الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبتسام إبراهيم تريسي

غواية الماء

رواية

غواية الماء

غوايـة المـاء

روايـة

إبتسام إبراهيم تريسي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0338-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

الإهداء

كلّما التقينا على ضفاف حلم، تأخذنا الحكاية ـ عفو الخاطر ـ إلى نهر البدايات، حيث كنّا نخوض بمياه البراءة الأولى...

نزيّن المساءات بطفولتنا اللاهية..

نجمع «القندريس»، نقتل المسافات بضحكة، ونختلس من الزمن رعشة في مواجهة مجهول، ينبت كنبوءة في حقل قمح، تذهّبه شمسٌ آيلة للسقوط في حضن الخطيئة! كانت تدهشنا بتوهجها، قبل المغيب بشهقة، وتتركنا فاغرين أفواهنا ذهولاً..

نتعثر بخوفنا من عتمة قادمة.. بصهيل الوقت المعبّأ بالقلق، وحمحمة اللحظة الموقوتة باحتمالات الغياب.

عندما التقينا على ضفة الحقيقة...

افتقدنا براءة الماء...

فلم يتبقَ من بيادر «القندريس» سوى توقيع رماد، يشهد أنّ الحرائق مرّت من هنا!

ها نحن...

على ضفاف حلم آخر...

يفتقد المكان رعشة أصابعنا، وهمهمات خوفنا، وصراخ أهالينا...

وذلك العقاب الممتع بحبسنا مع أكوام التبن حتّى الصّباح...

كلانا لا يعرف، ماذا بقي من ألق الحكاية؟...

هل كنّا حقّاً معاً عند هذا السفح يوماً، نراقب شمساً آيلة للسقوط في حضن الغواية؟

أم أنّنا ما زلنا نجوب مسافات الخواء إلى لا مكان؟

إلى أوّل من فتح لي الأفق على نافذة افتراضية، عبد الرحمن حلاق.

على قيد النّدى

لم تمضِ دقائق على سماعي للخبر المفجع، بصوتها الحيادي عبر الهاتف «ماما لقد تطلّقت». حتّى تخلّصتُ من حالة الذهول والكآبة الّتي عشّشتْ في روحي، ونسجتْ خيوطاً عنكبوتية حول تفكيري، وغرقتُ في ضحك هستيري، جعل الصحوة تغسلني في لحظات، فأبدو مبلّلة بالدّهشة حتّى العظم! تساءلتُ من خلال دهشتي «أهي مصادفةٌ أخرى؟ أم أنّها تصاريف قدرٍ يرسم خطواتنا، وكأنّنا امرأة واحدة في جسدين؟ اقتنعتُ دائماً أنّها لا تشبهني، فمنذ ولادتها وحتّى اللحظة الّتي رفضتْ أن تجلس أمامي لتناقشني بهدوء في قرار زواجها، كنت أرى فيها ملامح والدها، حياده، قسوته،لا مبالاته، وأنانيته. فلماذا تريد الآن أن تصبح نسخة مني، وتحمّلني قدرها؟ أهو خيارها؟ أم حظي الذي يضع العصا في العجلات، ويرميني ـ بعد كلِّ نهوض ـ في هاوية جديدة؟ حاولتُ احتواء الأزمة لأخرج منها بأقلّ خسائر ممكنة، لكنّ الأفق كان مسدوداً بالرّماد. كالعادة، تحاملتُ على خيبتي، ولم أترك لنفسي فرصة التفكير فيما أفعله. خلال دقائق كنت أقود سيارتي تجاه دمشق.. أوّل ما خطر لي أن أواجه العاصفة بفتح عينيّ جيداً، كي لا يصرعني الألم، ويربكني التّفكير والاحتمالات الغامضة. وعلى موعدي الدّائم، وصلتها في صباح سديمي، محمّل بالغيوم الرمادية. يحملني صوت فيروز ـ في هذه اللحظات ـ قطرة مطر حائرة على إسفلت قذر، تتناوشه أكياس النايلون الفارغة بدفع الريح العنيفة. على الرغم من الدفء المنبعث مع صوتها «**نسمت من صوب سوريا الجنوب، قلت هلّ المشتهى، وافى الحبيبُ**».[1] أغلقتُ المسجل، لم أكن في حالة تسمح لي بالاقتراب من

(1) سعيد عقل / الأخوين رحباني

خط النشوة ذاك، الذي تربكني فيه الكلمات الممزوجة بحنين لا يتوقف، يجرفني كسيل، ويعيدني إلى البحر، أغص بعطشي، وتتشقق حنجرتي بحثاً عن الماء!.

لم يبقَ سوى صوت الرّيح تهزُّ أشجار الشوارع، وتهاجم مظلّات النّاس، لتنتزعها بقوة، وترميها بعيداً، وتضحك بسخرية من المشهد الشاحب لوجوه مكفهرة، مرتبكة، تحاول أن تسيطر على مشاعر الاستياء، بمزيد من الغموض واللامبالاة! لم يشغلني المشهد طويلاً، فقد وصلت البيت، وكما توقعت، لم أجدها هناك! فتحتْ لي خادمتها الفلبينية، وأخبرتني، أنّ سيدتها خرجت في الصباح الباكر قبل ذهاب الصغير إلى المدرسة. دخلتُ غرفتي، كلّ شيء كما تركته منذ شهرين، لم تمسسه يدها في غيابي. طلبتُ فنجان قهوة، وتناولت الريشة من وعاء الرسم، كانت رطبة، مما أثار استغرابي. اعتذرت الشابة الفلبينية، وقد فهمت الموقف، بأنّ الصغير لعب بأدواتي، وأنّ سيدتها طلبت منها تنظيفها هذا الصّباح، لأنّها توقعت حضوري. هكذا إذن؟ توقعت حضوري، ولم تنتظرني! همهمت بضيق، واتصلت بها، هاتفها مغلق! أعرف أنّها تستخدم هذه الطريقة كي تردّ على مزاجها. أغلقتُ الهاتف بغضب. تناولتُ فنجان قهوتي بشرود، فاجأني الطعم ـ كما دائماً ـ لأكتشف أنّي أخطأت الفنجان للمرّة الألف بعد المليون! الطعم الصدئ يثير اشمئزازي للمرّة الأولى، ويقلب أمعائي، لماذا تفعل ذلك بي؟ لم أهنأ بعد بنظام حياتي الجديد، ولم أستمتع بخلاصي من أرق الكتابة اللامجدية لروايتي، وبدء بحثي في أطروحتي، حتّى برزت مشكلة طلاقها، ربّما لا يكون الطلاق بحدّ ذاته مشكلة بالنسبة لها، لكن ما سيتبعه، سيغرقني في مشاكل لا نهاية لها.

لكن، ما المانع؟ لتحمل قدرها ومسؤولية قراراتها التعسفية، كما

فعلتُ. هل عليّ أن أرهن حياتي لمزاجها المتقلّب؟ يكفيني ما ضاع من العمر، فلم يتبقَ منه بقدر ما مضى. سنواتٌ من الوحدة قضيتُها في محاولاتٍ فاشلة لكتابة رواية، تأبى شخصياتُها أن تخضع لرغبتي في إقصائها عن واقعي، تُبرز لسانها بشماتة بين السّطور، فأقفلُ عليها الأدراج نكاية بي! حاولتُ مراراً التزام الحياد تجاه ماضيّ بتفاصيله المربكة، من دون جدوى، فقرّرت اغتياله بالنّسيان. أعترفُ أنّي لم أجرؤ على تمزيق ما كتبته، واكتفيت بسجنه في عتمة الدُّرج المقفل، وبدأتُ رحلة البحث العلمي.

لا أنكر أبداً أنّي الآن أسعى لاكتمالي بعيداً عن أيِّ رجل، أعدت ترتيب ذاتي بطريقة أبدو فيها كما أريد. أمضيت حياتي أركض فزعة بين صفحات الجرائد والمجلات والتدريس، حتّى استنزفت آخر قطرة من جسدي، ولم يرَ مشروعي النّور، أخشى أنّه لن يراه أبداً، وستبقى روايتي اليتيمة، المبتورة، حبيسة الأدراج! كم مرّ من الحروب؟ كم مرَّ من القهر؟ وإلى الآن أفتش عن بداية جديدة من دون جدوى!

***

أربكني اختيار الدكتور المشرف لموضوع الأطروحة، رغبت في دراسة الرواية النسوية، لكنّ الدكتور مال إلى إقناعي أنّ النّجاح الحقيقي يكمن في تحدي النّفس بالكتابة عن موضوع لا أحبّه، وبما أنّ اختصاصي وحبي في ميدان الرواية، فلأقف في وجه الموج، وأكتب عن شاعر عباسي اختاره بنفسه. لا أنكر أنّ ذلك الاختيار أحبطني، لو اختار لي السيّاب أو نازك الملائكة أو محمود درويش، ربّما وجدت بغيتي، لكن أبا نواس! هذا الشاعر بالذات ارتبط في مخيلتي بملامح الدكتور محمّد الذي درّسنا مادّة الأدب العباسي، ولأسباب كثيرة لم أكن أطيق الدكتور محمّد، وغالباً كنت أهرب من محاضراته. هل كان

أبو نواس قصير القامة، أزرق العينين؟ لا أشكُّ أنّ التهتك صفة كانت تجمع بين أستاذي والشاعر، لكنّ الدكتور المشرف على أطروحتي، أصرّ أن ينسف مفاهيمي كلّها باختياره موضوع البحث «أبو نواس ثائراً» وبقدر ما أدهشني العنوان، وجدت صعوبة في البحث عن مراجع تعينني في الكتابة. وضَعَ محرك البحث «جوجل» في ملفاتي كماً هائلاً من المعلومات، لكنّي وجدتها كلّها تصبُّ في الخمريات والغزل! فكان لا بدّ لي من البحث باتّجاه آخر، وهناك في زاوية من الفضاء الافتراضي، وجدته في مدونة صغيرة تستظلُّ بالياسمين! لم أتردد في إرسال رسالة إلى الشاعر صاحب المدونة أطلب مساعدته، وطلب إضافة.

أضاءت الشاشة في نافذة المحادثة أمامي باللون الأخضر لاسمه «أبو نواس» كتبت له:

– مساؤك خير، أنا هاجر.

– مساؤك ياسمين.

– سبق وأرسلت لك رسالة أطلب مساعدتك في بحث أكتبه حول شعر أبي نواس.

– آسف. لم يصلني شيء، ربّما هناك خطأ ما في الإرسال.

– ربّما. شككت في البداية أنّك لا ترغب في الردّ عليّ.

– أبداً، كيف أفعل ذلك؟ بل يسرّني إن كنتُ قادراً على المساعدة.

– هذا ما أرجوه.

– من أين أنتِ؟

– «أنا من بلد الشبابيك المزروعة بالحبّ، المفتوحة على الصدفة»

- فيروزية الرّوح، لبنانية الجنسية؟.
- ليس بالضبط، لكن أعتبر نفسي كذلك.
- لماذا اخترتني لمساعدتك، والشعراء كثر؟
- اسم المدونة أولاً، ولأنّي وجدته فيك ثانياً، من خلال قصيدتك طبعاً.
- أعجبتك القصيدة؟
- جميلة.
- القصيدة أنثى منزوعة السّلاح، لهذا هي جميلة دائماً...
- ماذا تقول في قصيدة غير جميلة إذن؟
ـ امرأة مقيّدة بالكيد. ما الذي لفت انتباهك في قصائدي؟.
- أنّها تملك روحاً.
- لا تكون الكلمة مستيقظة الرّوح ما لم ترتجف بدهشة المعنى!
- أظنّها استطاعت إدهاشي.
- تظنين؟ إذن لم تمتلكي اليقين بعد؟
- بل امتلكته.
- بي أم بالقصيدة؟
- بمقدرة الكلمة على الإدهاش.
- حسناً، ما موضوعك؟
- أريد دراسة الشّاعر من زاوية سياسية على اعتبار أنّه عاش فترة حكم سياسي أوتوقراطي، فحاول في كثير من شعره الهروب من هذا الواقع إلى تصوير حالة ماجنة من الحياة، ولذلك سأعيد دراسة قصائده، لاستكشاف العلامات والرّموز الدّلالية الّتي تؤكد هذه الحالة، خاصة وأنّه أنتج في أواخر عمره قصائد دينية فلسفية بعيدة كلّ البعد عن

النّهج الذي كان يتّبعه، ويمكن النّظر إلى حركات التّمرد الّتي ظهرت في عصره وقبله على أنّها أشكالٌ من المعارضات السّياسية (أحزاب)، الّتي تمّ قمعها، لتتحوّل فيما بعد إلى حركات باطنية سريّة، تحوّلت تعاليمها الخاصة والمتوارثة خفية إلى نوع من المقدّسات مع مرور الزمن.

– حسناً، سأحاول جمع معلومات تفيدك، وأحادثك هنا، كوني كي يورق الكون بالجمال.

– ليلة سعيدة.

***

بعد مدّة من تعارفنا، وجدت في بريدي رسالة منه، ظننت أنّه أرسل لي المعلومات التي طلبتها، لكنّ رسالته فاجأتني.

عزيزتي... أستسمحك أن أنشر نبضنا هذا، علّه يفيض بالعطر في قلوب تتلهف لحرف صادق. أنتظر ردّك إن كان نفياً، أو قبولاً، أو اعتراضاً على بعضه.

(هل حدث ذلك حقّاً؟ نبتتْ كنبوءة من بين أصابعي، فأيقنت أنّ ما مرّ لم يكن حلماً عشته بكلي، لأخرج منه معبّاً بمشاعر اختلطت داخلي. رعشة أصابعي، وروحي التي تحلّق بعيداً في آفاق لا حدود لها. هنا على هذه النافذة الافتراضية، تعلّقت روحي بفتنتها من حيث لا أدري! فاجأتني ذات مساء بقولها:

– هل أدخل؟ أم أنّك في خلوة؟

– أنتِ لكِ الأبواب مشرعة لا تستأذنين أبداً.

– عندك قهوة؟

– أي وربي، إنّي أشربها الآن، هاهو الفنجان في يدي.

– أشاركك، أعزم نفسي؟.

– بل لي شرف قبولك مشاركتي، لو ترضين مشاركة شاعر.

– وهل أجمل من مشاركة شاعر مثلك في فنجان قهوة، وقصيدة؟

– أمّا القهوة فهي معلومة عندي، وأمّا القصيدة فهي أنت إذن!

– كيف أكون قصيدة وأشاركك فيها؟

– تماماً كآدم في خليقته الأولى، كان منه وإليه في حوائه؟

– أحسّ أنّي محاصرة بكلماتك إلى درجة فقدتُ معها بوصلتي للدّخول إلى دلالات معانيها.

– ذلك لأنّي ربّما أبعد بكِ، لا أبعد عنكِ... أتسمعينني؟

– نعم أسمعك.

– تسمعينني أم تنصتين إليّ؟.

– أنصت إليك، بحواسي كلّها.

– كنت أعرف أنك ستقولين هذا، فلو قلتِ «أسمعكَ» لاختلفنا. أخبريني، هل ما تزالين تريننني قريباً عند نافذتك؟

– نعم، لذا سأذهب للقائك، وأتركك بخير.

كنتُ أنظرُ إلى زهورها في صورة نافذة المحادثة، فأراها تجيد تنسيق الزهور كما تفعل بالكلمات، مما يجعلني على يقين أنّ بينهما لغة مشتركة. جعلتني أكتشف الانسجام الغريب بينها وبين زهور الجاردينيا التي تزيّن نافذتي، ربّما لأنّها زهرة وجودية، فشبيه الشيء ينجذب إليه. وعلى الرغم من رفضها تشبيهي لها بالياسمين والجاردينيا، بحجة أنّه يعطيها حجماً من البياض أكبر مما تتصف به. إلاّ أنّي امتلكت يقيني من تعدد حالات البياض بعيداً عن دلالة اللون، ففيها بياض الرّوح، والحرف، والحضور، وبياض التّواصل، وحتّى بياض الصّمت!. قلت

لهـا تلـك الكلمـات، وانتظرتُ ارتعاشـة الفرح من خـلال صوتها القادم عبـر مسـافات القهـر والوحـدة والحرمـان. إلاّ أنّ نبرتـه المتزنـة بقيـت علـى حيادهـا، وهـي تقـول: «إنّ ذلـك كثيـر عليّ»! لم أكـن أعرف أنّ الكلمـات الجميلـة تربكها، وتحدّ من قدرتها على التّعبير عن مشـاعرها بشـكل مباشـر!. مع أنّي أعي بوضوح أنّ البسـاطة التّي تتسـم بها، دليل عمق تفكيرها، وأحاسيسـها. ومن حيث لا أدري فتحتُ بأسـئلتي أبواب الحيـرة، وتركتهـا تفكّـر بالمحيطيـن بهـا، وللمـرّة الأولـى يربكها معرفة جـواب سـؤال بمنتهـى البسـاطة ـ كما قالت ـ لأنّه لـم يخطر على بالها قبل الآن! لم يسبق لها أن فكّرت بقاعدة التنافذ تلك! أن تجد نفسها في الآخرين بمقدار ما يجدون أنفسهم فيها! فقد كانت تعطي دائماً بمقدار ما تسـتطيع، وتمنح من نفسـها بأقصى ما تحتمل، لأنّها تنظر إليهم من زاوية روحها، لا من زاوية وجودهم. لم يخطر لها أيضاً، أنّ تفتح أبوابها على أمنياتها الخاصة، فقد تعودت أن تكون ما يرغب الآخرون أن تكون عليه!

كنـت علـى يقيـن أنّ سـعادتي كلّ ليلة، مرتبطـة بقنديل حضورها، فالليل يصبح أجمل في حضرة قديسـة، تُسـرج خيل الكلمات، وتشـعل سـراج الوقت باللهفة، وتمنحني تلك الطمأنينة المسـتحيلة، والرضا عن النّفس. اعتقدت أنّ تلك السّعادة يمنحها الرب لشاعر مثلي، حين يمتلك اليقين أنّه استطاع اعتقالها بكلماته، وقبض بيديه على نبض قلبها، فيرتفع في سـماوات ملائكية، يملؤها حضورها بالبهاء والنّور والسّـناء. تتجلّى أنوثتهـا فـي أبهـى صـورة، مثبتة اعتقادي أنّ حـواء كانت امرأة في أنثى، لأنّهـا أغـوت آدم مـن خـلال كينونة المرأة وسـحر الأنثى. وقد كان آدم وقتها طينة لم تتشـكّل بعد، فأجادت حواء تشـكيله، فذهبت به مذاهب شتى. وقد كانت البعض الذي احتوى الكلّ، كانت بضعةٌ، فغدت كوناً.

هي المحتوية وهو المحتوى.

سألتني «أتحبُّ المطر؟». فأحسست بصوتها يهطل عبر المسافات، نديّـاً، رائقـاً، أنيقـاً، بنبـرة مميـزة، أثبتت لي أنّ الحقيقـة دائماً أجمل من التّصور، فقد بعث صوتها الدّفء في يومي الماطر، واسـتعادت روحي نبرة ترتيلها، وهي تتحدّث، وتساءلتُ بلهفة، كيف سأدركها كلّها؟ قلت لها:

– يكفي أن تكون الرّوح على أهبة التّحليق لكي تلامس وجه السّماء!

قالت ـ فكيف إذا كانت سماواتها نبض شاعر؟ ستستفيق من حلم على حلم إذن!

– في الحلم نستعير، ولكنّنا في الواقع نتدبر!

– يكفيها أن تدوخ بعطر كلماتك لدقائق، ساعات، فذلك أقصى ما تتمنّاه.

– إذا ارتبطت «دوختها» بدهشة مبددة، فإنّها ستقصر عن إدراك لذّتها!

– وكأنّك تنفي بقولك ما تشعر به؟ فقد سرّبت إليّ إحساسك ذاك، لأنّي على يقين أنّ ما يشعر به أحدنا صدى لما يشعر به الآخر!

– نعم، أنتِ على حق، شعرتُ بأنّ وهجاً يملأ روحي، وأنّ روحي تصل درجة لم تبلغها إلاّ روحٌ مكلّلةٌ بالدّهشة ومحاطة بالاحتراق!

– والجسد؟

– الرّوح أولاً، لأنّ الجسد انعكاس لفعلها، فتمتدّ الرّغبة حينئذٍ من الرّوح إلى الجسد، ما يخالط الرّوح لا يمكننا أن نتخلّص منه بسهولة.

– لا تقل لي إنّك تكتفي بالكلمات، ولا تلجأ إلى استحضار

لحظاتنا هذه لتكون وقوداً لمخيلتك.

– نعم أنا أستحضر ذلك كلّه، وأعيده، ربّما تخيّلت لو أنّنا كنّا قريبين مكانياً لاختلفت الصّورة في البوح والمشاعر، تكون أكثر حميمية لأنّ واقع الجسد أكثر حضوراً من واقع الكلمات.

– ولكنّك تناقض نفسك هنا، ألم تقل لي إنّ قدرة الاستحضار أكبر قوة من قدرة الحضور؟

– أحياناً، قلت، أحياناً، عندما لا نجد سبيلاً لامتلاك الواقع.

– إذن نظريتك ليست صحيحة مادامت مشروطة.

– وهل كلّ النّظريات مثبتة من دون شروط؟) ....

أنتظر ردّك صديقتي.

***

وصلتْ منهكة، وشحوب يعلو وجهها، ارتمت على الأريكة وبإشارة من يدها حيّتني، وبأخرى طلبت فنجان قهوة من خادمتها! وحين طرحتُ أوّل سؤال عمّا حدث، أشارت بيدها، وهي تتمتم:

– ماما...

أفهمتني كعادتها أنّها لا تستطيع التحدّث، أو لا ترغب على الأقل في الوقت الحاضر في الإفصاح عن شيء. رشفتْ قهوتها بفتور، ونهضت قاصدة الحمّام. حين خرجتْ، كان مزاجها أفضل، ابتسمت لي، وعانقتني، فابتلّ وجهي بقطرات الماء المتساقطة من شعرها. اندست قليلاً في حضني، ففهمت أنّها تطلب السّماح مني بطريقتها الطفولية... تريدني إذن أن أوافق على موقفها الذي اتّخذته. نهضتْ إلى غرفتها، غابت قليلاً، وعادت وقد ارتدت ملابس السهرة، وتزيّنت. أدهشني منظرها، وكعادتي فار الدّم في عروقي وأنا أتأملها، كدت أصرخ، كما كنت أفعل قبل زواجها، لكنّي تمالكت أعصابي، وقلت:

– ستخرجين؟ إلى أين؟ ولمَ هذه الزينة؟ كنت أظنّ أنّك ستحبسين نفسك في البيت، على الأقل لقضاء العدّة! تهتمين أثناءها بطفلك.

قالت بنفاد صبر:

– ماما، لا أحبّ هذا الكلام، أرجوك، لا تضغطي على أعصابي، يجب أن أحضر احتفالا بانتهاء مسلسلي الجديد.

انفلتت مني شبه صرخة رغماً عني، قلت:

– ماذا؟ تحتفلين! مع من؟ لا تقولي لي إنّ طليقك موجودٌ أيضاً.

– هو كذلك ماما، تعلمين، العمل لا شأن له بعلاقتنا الشخصية، حتّى أنّه سينتج لي المسلسل القادم. لم أقل لك ماما... أحتاجك لتبقي مع الطفل لمدّة شهرين، لديّ تصوير في المغرب، سأسافر بعد أيام.

لم تنتظر هذه المرّة ردّي، قبّلتني بسرعة، وخرجت!

تركتني أعاني الذهول والاضطراب، وأتساءل، هل أخطأتُ في تربيتها إلى هذا الحدّ؟ أم هي وجهات نظر تختلف باختلاف الجيل؟ كما تريد إقناعي دائماً! كيف سأعتني بالطفل وعليّ أن أنهي مخطط بحثي خلال شهر؟ لقد ملّ الدكتور المشرف من تسويفي، واتّهمني بالكسل، والإهمال... يا إله السموات، لماذا تعاقبني هذه الفتاة المدلّلة على الرغم من بلوغها الثلاثين، وكونها سيّدة وزوجة؟ إلى متى ستغرقني في مشاكلها، وتحمّلني مسؤولية قراراتها؟

***

رسالة ثانية كانت تنتظر في بريدي هذا الصباح..

صديقتي.. افتحي نافذتك لروحي، فقد طال انتظاري، والريح تجلد بقايا احتمالي. انظري إلى نصنا المشترك الثاني بعيني محبتك، كي يصل القارئ بألق حضورك. أنتظر رأيكِ..

(حذَّرتِني من مدِّ يدي لمصافحتك حين نلتقي، وكنتِ تفتحين للغواية باباً، بقي مواربـاً، فلم تفصح كلماتكِ بقدر ما أخفت، وصار لزاماً عليّ أن أغامر بتفسيرها بما يتناسب ودقات القلب. هل أعجب لنبض كلماتك أم لحضورك فيها، وأنتِ الّتي بين حرف وحرف تتّقدين بالفتنة حدَّ احتراق الجنون بالجنون! لن أخشى أن أمدَّ يدي مصافحاً، لأنّ ثمّة شيئاً واحداً سأكون متأكداً منه، هو أنّ أصابعي ستكون أكثر بياضاً ونعومة، بينما سيكون عددها بمقدار أنجم الله في سماواتها، فهل بعد هذا سأتردد فلا أفعل؟

مبتهجٌ ببياض النّوارس، أحلّق معها بانتظار قدومك، ها أنت تنظرين إلينا، فتتسع آفاق تحليقنا، وهكذا أنتِ دائماً روحُ دهشة وحضور مفاجأة! أحيانا كثيرة لا يحتاج الضوء لدخول أرواحنا، إلاّ لنشرع أبواب النّافذة. وها أنا أشرعها وأنتظرك...

– هل أعتذر لعينيك لأنّي لامست النّعاس فيهما، فهرب خارج النّافذة .

– قبل ذلك لامس أذنيّ صوتُ العصافير.

– شكراً لأنّك تمنحين العصافير هذا الجمال.

– تشرب قهوة معي؟

– إذن اغمسي إصبعك في فنجاني لكي يكون سكّره ربّانياً.

– هل تريدني أن ألسع إصبعي؟

– ألا يرضيك أنّك حين تفعلين، تلسعين قلب الصّباح كلّه؟).

***

أنتقلُ بين الشرفة والحمّام والصالة، والقلق يفتت أعصابي، لماذا تغلق هاتفها؟ كيف تستطيع أن تتعامل مع موضوع طلاقها بهذا البرود واللامبالاة؟. أمامها أيام للسفر، ولم تفكّر أن تقضي مع عمرو ساعات،

تمنحه حنانها زاداً لغيابها المستمر والمتكرر. لا أعرف كيف تستطيع أن تكون أنانية لهذا الحدّ! لقد عشت لأجلها فترة طويلة من عمري، ولم أرتبط برجل آخر قبل زواجها، مع أنّ الخيارات كانت كثيرة أمامي، لكنّي راعيت مشاعرها، وخفت عليها. يا إلهي أكاد أجزم أنّ عواطفها متحجرة، ولا تحبّ سوى نفسها! حبستني في البيت ثانية هذه المرّة لأجل عمرو، هل تعاقبني؟ على أيّ شيء لا أفهم. لكنّي أدرك أحياناً أنّها تغار عليّ، وأنّها كانت ترفض الزواج كي لا تفارقني، ولا تترك فرصة لي للارتباط برجل آخر. لقد فعلتها، وفسخت خطبتها من شاب يحبّها، لأنّها عرفت أنّي معجبة بزميل لي في العمل، كان من الممكن تحول ذلك الإعجاب إلى ارتباط! لم يكن أمامي سوى مخرج واحد من قلق الأسئلة، أن أفتح ملفات العمل، وأبدأ الكتابة. لكنّ الأفكار هجرت ذهني، ولم أجد وسط الجدب والفراغ شيئاً يمكنه أن ينتشلني من حالتي سوى العالم الافتراضي!

مع أنّي أكره تلصص عيون النّهار عليّ، وأنا أغوص في مقعدي في مواجهة شاشة الكمبيوتر، إلاّ أنّه أغواني بفتحه، علّي أجد فيه ما يلهيني عن التّفكير! ما أدهشني أنّي وجدت نافذته مضيئة في هذا الوقت من الصّباح، فأبقيت نافذتي معتمة. فتحت البريد من دون هدف، في الرسائل المرسلة كانت رسالتي اليتيمة إليه، في البريد الوارد، مئات الرسائل من مواقع لم أعد أهتم بفتحها، أو الإطلاع عليها، وضعت إشارة الحذف عليها ـ كعادتي ـ وقبل أن تمضي في ثانية، لمحتْ عيناي اسمه! استعدت الرسالة من صندوق المحذوفات، وفتحتها على عجل، وجدت كلماتي أولاً في رأس الصفحة.

(فيمَ غيابكَ؟

أوّل مرّة أجدني مذهولة أمام رجل يرفض دعوة امرأة، سألت

نفسي عن السّبب؟ أهو وفاء لامرأة تحبّها؟ أم زوجة تخشاها!؟

ولم تقنعني الإجابة، لأنّه لا يوجد رجل على وجه الأرض، يمتلك الوفاء صافياً، وإن خشي زوجته، يخشاها في العلن، ويخونها في السّر. لا أعـرف ظروفـك، لكنّـي أتصورها هكذا. لكنّك لم ترد سـيدي، وهذا يزيدني إصراراً.

نرجس، غض كقصائدك، على الرغم من جفوة القلب!

هاجر).

ردّ

«صديقتي...

توجد احتمالات أخرى، تدركها النوارس أثناء تحليقها، لأنّها تنظر دائماً من خلال الزرقة. كوني بالقرب، كي يورق الكون بالجمال. مساؤك ورد»

أضأتُ النّافذة، على الرغم من ترددي في محاورته، سبقني بإلقاء التّحية.

- صباحك ياسمين..
- وصباحك، ظننت أنّك في العمل!
- أنا في العمل، لا يتعارض عملي مع وجودي هنا.
- أين تعمل؟
- في شبكة الإعلام العراقي. هل أستطيع استباق الزمن بسؤال؟
- تفضل.
- فهمتُ أنّكِ انفصلتِ عن زوجك، منذ زمن بعيد، حين حدّثتني عن مشكلة ابنتك. هل أتدخل في شأن لا يخصني إن سألتكِ عن سبب الانفصال؟

– تطلّقنا لأنّي لم أستطع قبول الوضع الذي كنّا عليه، مع هذا لم يصلح الطلاق الأمر، الفشل كان قبل ذلك بكثير!

– لماذا؟ إن لم يكن سؤالي محرجاً؟

– لا، ليست المرّة الأولى الّتي يخدشني فيها هذا السّؤال، بالإضافة للآخرين، سألته لنفسي، وأمتلك عليه عدّة أجوبة، ربّما موقفي المسبق من مؤسسة الزواج قلب حياتي إلى جحيم لا يطاق. مع ذلك أحسّ أحياناً أنّ هذه الورطة الّتي دخلتُ فيها مرغمة لم تكن بذلك السّوء. زواجي الأول كنتُ في سنٍ صغيرة نسبياً، وأظن أنّ قراري بالزواج، كان بدافع من ثقتي أنّي أمتلك بذلك استقلاليتي في تحديد مصيري. المشكلة هي أنّي في المرتين خرجتُ خالية الوفاض، ممتلئة بي وبجراحي، لكنّي كسبت روحي.

– وهل سيمنعك ذلك من خوض التّجربة للمرّة الثالثة؟

– لم أفكّر بذلك، لكنّي غالباً لا أتّخذ قرارات مسبقة، الأمر مرهون بظروفه.

– هل أستطيع رؤيتك مجدداً؟

– أنا في دمشق عند ابنتي، لكن بإمكانك أن تغمض عينيك، وتتخيّل المكان، ستراني!

– لن أحتاج لإغماض عينيّ، أنا أراك الآن، قريبة حتّى أكاد ألمس يديك، وأشم عبير شعرك.

غالبا ألجأ للصمت لأهرب مني، حين تفقد الكلمات قدرتها على إيصال ما أريد، هذه المرة أفقدتني المفاجأة توازني، وأربكني الصمت، فأغلقت النافذة من دون استئذان، وطلبت الضجيج برفع صوت الراديو، وتشغيل التلفاز. دخلت إلى المطبخ لأصنع القهوة بنفسي! تحطّمت

بعض الفناجين من ارتباكي، وأخطأتُ مكان القهوة، فنثرتها على الرخام، ثمّ... فارت على الغاز، وخنقتني الرائحة! خرجت إلى الشرفة، لأتأمل الشارع، بحثاً عن أيّ شيء يسرق اهتمامي، لأخرج من دوامة كلماته! ونسيت أن أشرب الفنجان الذي لامس أناملي عرضاً ببرود أدهشني!.

في المساء كانت رسالة جديدة في بريدي..

(لماذا تركتِ العصافير تزقزق وحدها؟ لا تقولي، دعي روحك تقول. في صمتك كلام كثير، «فالصمت قول ناطق، وبلاغة كبرى» هاتي يديك ليرتاح قلبي، فمن يرى فن الرب في لوحته يصبح مرتاحاً. ألم أقل لكِ: إنّ الله جميل؟ لا تقولي «إنّ الله سبحانه تجلّى حين خلق رقة في الوجود كرقتكَ، وقلباً كقلبكَ، حق لي أن أشكره، وأسبّح بحمده!» فأنتِ تجرحين الكلمات بنبضك، بعد أن جرحتِ المساء بعطر أنوثتك. تسألينني: «وأين أنوثتي من صانعها؟» أقول لك: إنّ صانع الأنوثة هو صانع الجمال، وصانع الجمال هو صانع الأنثى، وصانع الأنثى، هو صانعٌ ماهر ما مثله أحد. أرى ابتسامتك تتمرأى بندى شفتيكِ، وتهمسين «أفحمتني» فأهمس «أنتِ سعة لا تدرك، فكيف أفحمك؟». تجلجل ضحكتكِ حتّى يضيق الفضاء برنّتها، وترعش قلبي «ما شاء الله عليك تدرك ظبياً، فكيف لا تدرك سعتي؟» أقبل مزاحك، وأقول: «الظبي يتطلّب حركة الجسد، بينما سعتك تتطلّب اجتهاد روح؟». فتقولين باستسلام «وهل أَقْدَرُ من روحكَ على بلوغ سعتي؟». وتضيفين بنبرة يائسة: «إلى متى سنبقى هكذا، نطارد الهواء؟».

أتعتقدين بأنّنا نطارد الهواء؟ أسمعك تجيبين: «مادام الامتداد عاجزاً عن بلوغ السّعة! ألا تعتقد أنّنا نطارد الهواء؟». أنفي بكلّ ثقة ما ذهبتِ إليه، لأنّ المطاردة فعلٌ لا يدلُّ على غاية مستحيلة، مع أنّي لا أؤمن بمبدأ المطاردة أصلاً.

أذكـر حيـن قلـتِ لي: «أشـمُّ رائحة زهر الليمون قريبـة، كأنّها بين أصابعي!» قلتُ لكِ:

«جميلٌ يحملُ جميلاً، لو عرف المحمول أنّه روح القدّاح! فكيف إذا كان القدّاح روحه؟». يومها صرتِ تخشين عليّ منكِ! أكنتِ تجهلين أنّ الكثيـر مـن الخشـية عاطفـة كبرى؟ أعرف أنّكِ لـم تكوني قبل لقائنا تهتميـن بالكلمـات، وأنّـك بعد وصولنا إلينا، صرتِ ترين كم هو صعب صمتك! فهل عرفتِ لحظتها أنّ الوصول قراءة واستقراء؟ وهل أتممتِ يقينـك بـي؟ قلـتِ لي: «اليقين أحياناً يجعلنا حذرين أكثر». فهل نسـيتِ أنّنا ما لم ندرك ونحيط، لا نصل إلى اليقين؟ ظننتِ أنّه لا يكفي اليقين بمناسبة الجوّ لتبحري صوبي، كنتِ تخافين من عاصفة مختبئة في غيمة مـا! لـم يتسـلّل إليـك يقينـي أنّ الغيوم لا تحمـل إلاّ المطر، وهو دموع الآلهة الّتي تطهّرنا، فنتطهّر بها. كنتِ تخشين أن تقلب العاصفة القارب، فنغرق في لمحة عين. قلتُ لكِ: «لو عرف الملّاح أنّ سفينته ستغرق، ما سار في عرض البحر!. حَسبُ الرّوح أن تكون بوصلة، وحَسْبُ القلب أن يكون مناراً». مع هذا وضعتِ في حسـابك الاحتمال الأسـوأ، لأنّك تريـن أنّ روح المغامـرة عنـد البحّار هي الّتي تدفعه إلى تجاهل الخطر! لكنّك لم تربطي بين البحّار والشّـاعر، فإن تمتّع الأوّل بروح المغامرة، فالثاني يغامر في روح الإيجاد والوصول إلى الهناك. لأنّه لا يسـير مع السّائد، بل يتسيّد السّير في اتّجاهات بوصلته. صرت تخافين مني؟ مع أنّي لا أخيف الفراشات أبداً، وأنت تعلمين أنّ الضوء يجذب الفراشات، ولا يخيفها، لأنّه حين يجذبها سـيضيف إلى رصيد جماله جمالاً آخر. بقيـتِ صامتـة، لـم تـردي! حتى وأنت صامتة، أسـمع صـوت كلماتك، فـإنَّ لهـا نبـرة واضحـة النّغمات. حضـورك يغطي على جمال الأشـياء، فالأشـياء مهمـا بلغـت مـن جمال لا تـدرك جمال نبـض الحضور. وأنا

شاعر، في حضرتك، يحلّق حين تصوغه حروفكِ معنى. سواء أفصحت أو أحجمت، غبت أو حضرت، في كلّ الحالات، أراني مشدوداً كقوس، جاهزاً لاختراق قلبك، حتّى وإن أبديت صداً!.

يفاجئني حضورك، كما دائماً، وأنسى أنّي كنت أتوقعه، وأنّي أرابط خلف الشاشة بانتظارك! تسبقينني هذه المرّة بإلقاء السلام:

– يكفي الصباح بهجة أنّ صوتكَ تسـرّب إلى مسـامعي عذباً مع نسيمه.

– يكفي أنّ صوتكِ غطّى على صوت الطائرة الّتي كانت تحوم فوقي.

– ألهذا الحدّ كان صوتي قوياً؟

– ليست القوة هي الّتي تجعل الزهرة تخترق التّراب، إنّما الرّقة فيها.

– أقْبِل، تمسّك بأناملي، لا تخدعنك نعومتها، ففيها قوة السّحر، حين يمسّها العشق بروحه.

– جميلةٌ كلماتك كأنّ فيها رعشة الحياة.

– لا تخلق الرّعشـة إلاّ بتأثير روح ترسـل في الضلوع الحمى والجنون.

– بل الرّوح حين تكون لها قدرة الخلق، تستطيع أن تفعل ذلك بمهارة كبيرة.

– لا قدرة لي على الكلام، سأشير لك فقط.

– أفهم لغة الإشارات أنا..

– أحيانا تكون أبلغ من الكلمات، خاصّة بين روحين!

- وأحيانا تكون لكثرة الصّامتين حولنا!

***

يقلقني السّؤال؟ أهو الحبّ؟ لا أعتقد أنّي أحبّه هو، بل قبول لنفسي من جديد، ربّما قبول لتلك الملامح الّتي كرهتها لفترة ما من عمري، بأيامه السّاكنة كمستنقع، هلامية، صقيلة،لا نَفَس، لا حركة. سقط حبّه في قلبي كحصاة حرّكت مياه الغواية الرّاكدة طيلة تلك السّنوات. جعلتني أنظر في المرآة، أتأمل شعري، سطحه الخشن، أطرافه المقصفة، أرفعه قليلاً، ألف خصلاته إلى الدّاخل لتبدو تلك النداوة القديمة، واللون الحقيقي الخالي من الأصباغ! أتركه ينسدل متعباً مرهقاً من تبدلات الأزمنة! ألمس بأصابع متعبة ملامحي، ماذا تغيّر هنا أيضاً؟ أشعر أنّ المرأة التي تواجهني في المرآة لا علاقة لها بما كنته. أكتشف بحسرة أنّي أبدو أقصر قليلاً، أم هو خداع بصر؟ لا أدري إلى أين تسوقني هذه المخيلة البلهاء، تُعثر خطاي بآلاف القصص، وتدفعني في درب غوايتها، حتّى أفقدني أحياناً في سطور لهاثها، أحاول لملمة نثار الحرف والرّوح، وتهيئة نفسي لبداية جديدة، أخرج بها مني إلى أفق أشدّ رحابة واتّساعاً، أناقش فيه مسائل يمكنها أن تدفع بي خارج ذاتي. فتحت الكمبيوتر، وهيّأت نفسي لمواجهة الصفحات البيضاء ثانية. لم يكن الأمر بتلك الصعوبة التي تخيّلتها، كتبتُ النص:

«خداع بصر»

«زهرة مسورة بالقهر، ومنسحبة إلى عالم الحلم، نسجتُ من عطري وجوهاً عديدة، تأملتها ملياً، واخترتُ أجملها، شكّلته على مقاس الحلم، ووضعته داخل النّص، مارست معه جنوني، وشاركته لعبة الوجود، وحكيت له ـ كما شهرزاد ـ قصصاً، تنتهي كلّها بفراق مؤلم، يتصدّع القلب على إثره، وينقش الموت حروفه الصّفراء على

حوافها.

فجأة خرجتَ لي من النّص، رجلاً كما تشتهي عاشقة، تثلج أصابعه ياسميناً، ويكتب بنبضه روح الورد، فخشيت أن يقع القلب فريسة عشق خارج النص!

أشرعتَ في المساءات الدافئة نوافذك لقلبي، وأغريتني بالدّخول.

تردّدت الرّوح، وخشيتْ فخ المواجهة، وحارت كيف تتحايل على اضطرابها!

ولأنّي كنتُ أتعثّر بين خيباتي، وأحاول أن أبقى واقفة دائماً، فقد أصبح صدري متاريس لا يمكن لريح مهما كانت قوية أن تخترقها لم يخطر لي أن تدخل إليّ متخفياً في غيمة عطر، صنعتها أناملي!

تلك الجديلة المضفورة فوق رأسي إكليلاً من الشوك، والأنامل المخبّأة في قفاز «الغسيل والطهو «والعينان المتواريتان خلف النظارة .

كيف استطعت أن تنبش كلّ هذا لترى الجمال؟

قلت لي: «وأيقنتُ أنّك بلادٌ من الياسمين، وأنّي بعضُ بلادك، لك القلب كلّه بنبضه» ففككت الجديلة!

غرستَ الوردَ في دربي بساطاً من النّدى، فأوّل الياسمين، ارتعش القلب! وأوّل النرجس، غاص القلب في الضلوع بلهفته! وأوّل البنفسج، ذاب الجليد في أطرافي، وأوّل الجوري، اشتعلت الحرائق في جسدي. وحين تضوّعت الجاردينيا على حواف النبض، تساقطت أوراق الورد كلّها عند قدميك! وأصبحت عارية من أسلحتي في مواجهة نسيمك، فزّت روحي محلّقة صوبك، شرّنقني عبيرك، ولفّ جسدي بغلالة الهمس والبوح، غمرتَني بفيضٍ من العبير والورد والمغفرة، غسلتني كلماتك من أوجاعي كلّها. واندفعتُ حرّة، بلا عقد، تجلّى بياض أناملي، وتاقت

عيناي للضوء، وحللت شعري للريح.

حينها صدمتني أنفاسك قريباً من أذني: أنتِ امرأة لك وضعك الخاص، وأنا رجلٌ حالٌ مرتحل!»

نصي الأوّل بعد قحط دام سنوات، وضعته في المنتدى، وأغلقت الملفات كلّها. تابعت عملي اليومي وكأنّ شيئاً لم يكن، لم أنشغل بردود الفعل حتّى منتصف الليل، فتحت الصفحات، وفوجئت بالتعليقات! لم أهتم كثيراً لما قاله الأصدقاء، فقد اعتبرت كلماتهم مجاملة لطيفة، لكنّ القلب كاد يتوقف عن الخفقان، حين شاهدتُ توقيعك أسفل كلماتٍ، تشي بك، ففيها من رائحة الياسمين، بياض النبض، وألفة الحضور. كنتُ بحاجة إلى صديق أبوح له بمقدار الفرح الذي اقتلع أشواك الأسئلة المرّة من دربي، وترك لي فسحة أمل خجول، يطلُّ برأسه على استحياء، مانحاً إياي جواز مرورٍ إلى قلبك.

رأيت نافذتها مضاءة، غفران؟ ياه كم مرّ من الزمن! آخر رسالة وصلتني منها كانت منذ عام، أو أكثر. كتبت لي وقتها تقول:

(«وأطهّر أكتاف افتقادي بتراب تلكَ الأزقة، حيثُ عبَرتها خلسةً وعلناً، حاملاً رغيفَ أحلامكَ وزجاجة عطرٍ ووردة ..

الفقراء لايحتاجون الحب.. بل الحبّ من يحتاجهم، ويبحث عنهم، ويطاردهم، حتّى يزدادون كرهاً لأنفسهم ونقمةً على أقدراهم ..

دائماً نفتقد مالانستطيع امتلاكه.. ونمتلك مالا نفتقده، لذلك نحن بحالة سعيٍ دائم نحوَ ماليسَ لنا، وتنتهي حياتنا من دون الوصول إليه ..

ابتلع رغيف خبزك، وأفرغ زجاجة العطر على جسدك، واحتفظ بالوردة، فربما مرّت من انتظرتها عمراً، فتكون جاهزاً، وإن لم تمرّ.. لن تضيع وردتك، لأنّهم سيضعونها على قبرك ..!

لدفء لحظاتنا المختلسة من زمن آيل للمغيب، فيروز تغني..

«ورقو الأصفر شهر أيلول تحت الشبابيك

ذكرني و.. ورقو دهب مشغول ذكّرني فيك[2]..

صباحك دفء وأمان»

لو تعلمين حجم الخسائر في قلبي؟ لو تعلمين!

كيف نتمنّى لأنفسنا أو لبعضنا أشياء ضرورية للمسيرة؟ كيف نحتفي بسنةٍ كانت خنجراً على أمانينا الصغيرة؟ لكنّها عبثية الكون.. ديمومة هذا القادم/ الماضي.. هذا الذي يستدرجنا إلى تلك التّفاصيل المثيرة، كي يصلبنا هكذا أمام الجدار والذاكرة.

هل ما زال لنا بعض من الوقت والجهد للتهنئة؟ يخيّل إليّ أنّ قنابل أمريكا أكلت الأخضر واليابس فينا وحولنا.. يخيّل إليّ أنه ما من شيء صار قابلاً للشفاء، وقد اتّسعت خريطة الوجع، ومساحة الجرح..

ثمّة نهارات تأتي من المستحيل.. قالها «لوركا»، وصدّقنا كثيراً تلك النّهارات الّتي تشرئب بأعناقها من يُتمنا المشترك..

أجل..! يتامى نحن أمام العام القادم.. يتامى «شرعيون» تضعهم أمريكا في خانة الإرهابيين مسبقاً!

يتامى نحن، إذ تعبرنا الفجيعة في الصميم.. فلا نجرؤ على الحلم ثانية..

فخلفنا مقبرة من الأحلام وقد خنّاها كثيراً.. وفي كلِّ عام نفقد رجاء البقاء على أرض لم تعد لنا!

آسفة عزيزتي لأنّي لم أرسل لك هذه الرسالة في وقتها.. اليوم فقط اكتشفت أنّها مازالت قابعة في ملف على كمبيوتري!

---

(2) جوزف حرب / فيلمون وهبي

عزيزتي الرائعة هاجر...

فقط، بينما أفتح بريدي، وصلتني رسالتك!

لكم سرّني شعوري بأنّك ها هنا، وأنّ يدي تمسك بيدك الطيبة. سرّني سؤالك، وإخلاصك في السّؤال عني. الحمد لله أنا بخير، وسأتخلص من الجبس في الأيام الأولى من العيد، وبيني وبينك، الجبس ليس سيئاً، فأنا حقّاً في إجازة عبره، يعني أمارس كسلي بالقانون! الجوّ عندنا بارد جداً. لا يمكن أن تخدعه خيوط الشّمس المتسلّلة بين الغيوم السّوداء! للجوّ طقوسه على قلبي، أشعر بكآبة كلّما بدت لي الشّوارع تافهة، وغير مجدية بحفرها الكثيرة المليئة بالماء والوحل.

حالياً أنا في تسكعٍ شبه مستمر. ما زلت أبحث عن بيت، وعمّن يقرضني بعض المال. البنك يطلب مني ضمانات لا أقدر عليها. تساءلت بيني وبين نفسي: «ما نوع الضمانات الّتي يمكن لامرأة مثلي أن تقدّمها لبنك يعيش بثقافة الرّبا والفوائد؟» وابتسمت!

سنخسر كلّ شيء. ولكن... بقليل من الشجاعة يمكننا الاحتفاظ ببعض كرامتنا. قالها الشاعر الفرنسي «بودلير» وهو يغادر مدينته للمرّة الأخيرة. وقد أقولها أنا أيضاً، حين لن يبقى لي مكان للعيش هنا.

وعدتني بصورتك، وما زلت أنتظر!

هل من الممكن إرسالها لي؟

تسرّني رؤيتك.

أشعر أنّي أعرفك جيداً.. أعرف شكلك، أعتقد أنّنا نتشابه في الكثير من الأشياء، ربّما أنا مجنونة أكثر منك، ولكنّي أحبُّ جنوني، وأكره حزني الشّديد، الذي حين يغمرني، يرميني في كلِّ أنواع الفظاعة

والبعد.

حين أحزن، أتشبث بجدران وحدتي، وأستنجد بأيّ صوت يناديني، كي لا ... أسقط! وكي لا أنهار.. وكي لا أغرق. قالت لي والدتي: «عليك أن توافقي على فكرة الزواج من ابن عمك» ابن عمي الذي يريدني له منذ كان عمره 15 سنة، ولم أعد أريده لي منذ كان عمري 20 سنة. يمكنني تخيل كلّ شيء في حياتي عدا أن يكون زوجي، ولهذا أضع مسافتي معه بكلمة «أخي» التي تغضبه أحياناً، ولكنّها تثيرني فرحاً كلّما أغضبته!

يبدو عريساً جيداً من أوّل نظرة، ولكن.... يبدو لي أخاً جيداً.

لا يمكنني الارتباط بشخص لا أشعر نحوه بشيء أكثر من الضجر في حوارات عامة، والكثير من القرف كلّما أراد «استفزازي» بامرأة يعرفها! فقد تزوج مرّتين، وفشل في زواجه مرّتين. قلت لوالدتي: «حين أفكر في وضع حد لحياتي سأتزوجه».

أجل، من السّهل الانتهاء إلى الفراغ على أن نختار شيئاً مقرفاً. وهذا جانب من جنوني!

وماذا أيضا؟

ماذا طبختِ اليوم؟ طبعاً أنا جادّة، لأنّي لم أتناول غذائي بعد والساعة هنا الواحدة والنّصف ظهراً.

في الجزائر يتغدى النّاس في منتصف النّهار تماماً. يعني لو طبختِ شيئاً لذيذاً سأستمتعُ بتناوله معك. هيا ابتسمي، لكي يكون يومك جميلاً. ولتكن ابتسامتك راية تقابلني كلّما مررت بوطنك القلب. حيّاك الله أينما كنتِ.

أختك دائماً...

غفران).

.....

بادرتها بلهفة:

– صباحك ياسمين.

– صباحك قلبي، ومساؤك حبي.

– تغيبين طويلاً، وتحضرين فجأة، وكأنّ الزمن توقف عند تلك اللحظة! حدّثيني عن زمن الغياب.

– أخباري مملة، لا أريد التّحدث عنها، احكي لي أنت عن روايتك، لعلّ حديثك ينتشلني مما أعيشه.

– روايتي! أودعتها أدراج النسيان، وغرقتُ بأطروحة الدكتوراه، لكن لا أخفيك أنّ هاجس الكتابة لم يفارقني، أفكّر بكتابة رواية جديدة، أبحث عن شخصيات حقيقية، تتحدّث عن عوالمها بشفافية من دون تدخل مني، أقولُ لكِ مللتُ من تركيب وصناعة الشخصيات، واختراع الخلطات لذلك. فقد وجدت أنّ الشّخصية في الرّواية لا يمكن أنّ ترقى لتكون بشراً من لحم ودم، ما لم أذهب أنا إليها، سأتحدّث عن الخيبة، بل عن القهر الذي نعيشه في أوطان مسلوبة. ما رأيك هل تشاركينني؟ ستتناسل الحكايات من حديثنا، ونجد متنفساً للبوح!

– بالتأكيد، سيكون ذلك مبعث سرور لي، فالعلاقات الجميلة هي الّتي تصنع النّص الأجمل.

– مابك؟ أشعر أنّك تحتاجين للبكاء، وكأس شاي من يدي، وثرثرة حتّى الفجر، وبعدين نروح إلى البحر .

– أنت مغرية ككوب عصير في عز الصيف، أحتاج للسباحة، وهكذا أبوح لك بكلّ شيء.

- أخشى الغرق!

- لـن أتـركك تغرقيـن حتّـى لو غرقت مكانـك. فالكلّ بحاجة إليك، أنا، النسيم بحاجتك والجهات، والأشياء الّتي عبرتها، أو عبرتك، والغيمة الّتي ظلّلتك ذات حزن.

- تقولين فيّ شعراً.!

- لو شفتِ أنّه شعر، فهو شعر على شرف روحك الّتي أحبُّها... صدقيني نحن نتشـابه، نشـبه يتيمين في شـارع واحد، التقيا، فسارا معاً.. متعة المشاعر في صدقها.

- ها نحن نصنع النّص من حيث لا ندري!

- نصنعه دائماً من حيث لا ندري، لهذا سنكتب دائماً، من حيث ندري أيضاً، نحن لا نتجرّد من أدبنا حين نتكلم.

تـرددت كثيـراً فـي البـوح، هل أخبرهـا؟ أعطيتهـا الرابط... خلال دقائق قرأت النص، والتّعليقات، وكتبت لي متسائلة:

- هل تعرفينه؟ الحسن بن هانئ؟

وجـدت نفسـي أنفـي التّهمـة بإصرار، مع أنّي كنـت أفكّر جادّة أن أخبرهـا بمشـاعري نحـوه، لـم أسـتطع فهـم ردّة فعلي، علـى الرغم من تسـاؤلها: «لكنّـه كتـب لكِ كلاماً مميـزاً؟». علّلت ذلك ـ ربّما ـ بجمال النّص، أعرف أنّها لم تقتنع، لكنّها احتفظت بريبتها، ولم تناقشني أكثر، ثـمّ انطفـأت نافذتهـا فجأة. أدرك من خـلال علاقتنا الطويلة أنّ الاتّصال لديها قد ينقطع في أيّ وقتٍ حين تكون في الجزائر، وحتّى عندما تكون فـي باريـس غالبـاً تحادثني من مقهى انترنـت، لذا لا تطيل الحديث. لا أدري ما الذي جعلني أفتح ملف رسـائلها، وأعيد قراءة أيامنا وذكرياتنا عبر تلك الرسـائل. يلامسـني حنين عجيب يربطني بها، وكأنّنا أصدقاء

طفولة، تربينا معاً في بيت واحد، في حارة واحدة درجنا، وفي مدرسة واحدة تلقّينا علومنا. أوّل معرفتي بغفران كانت من خلال قصصها المنشورة في موقع القصّة العربية، أذكر أنّي علّقت على قصّة لها أثارت فيّ مشاعر الحقد والألم على ما يجري في الجزائر، فكتبت لي رسالة تشكرني على تعاطفي مع ما كتبَتْهُ، وتطلب إضافتي إلى جهات الاتّصال لديها. منذ ذلك التّاريخ أصبحنا صديقتين. غابت فترة، ولم أعد أسمع عنها شيئاً، ثمّ فجأة وجدت رسالة منها في بريدي! رداً على رسالة قديمة مني، تقول:

(«وفجرٌ أَشعلَ رمادَ الحنينِ إلى كسرةِ عشق وجرعةِ عناق.. كم تقاذفتنا تلكَ الهوامش بينَ أقدامها! وأرمدت بتراب نعالها عيونَ لهفتنا! وأحكمت إغلاقها على أنفاس صرخاتنا! فامتثلنا نعاجاً مروّضين..

خانقةٌ قوانين الطبيعة.. وموجعةٌ قيود الروح ..

ولفيروز حضورها الدائم بيننا..

أنا عندي حنين ما بعرف لمين[3]؟

صباحك حنين..»

الآن، رجعت من زيارة لم أفكر في القيام بها.. فجأة انتابتني رغبة لزيارة قبر والدي.. وفجأة ذهبت.. تفاجأت بعدد الزوار الحاملين الماء والحزن معهم.. كأنّ الموتى يشربون.. كأنّهم سيأبهون بحزننا بعد أن ذهبوا حاملين ضجيج الرؤى قبلنا..!

جلست على صخرة قبالة والدي.. وشعرت بالبرد.. كانت السّماء تمطر.. وكنت أفكّر في ذلك الرجل الذي أحببته، ولم أره جيداً كما كان على بنت أن ترى والدها.. والد لن يعرف صوتي لو ناديته «بابا».. والد

(3) الأخوين رحباني

لن يعرف شكلي، الآن وقد صار المطر بهذا الشكل.. الآن وقد صارت خريطة الضجر والوحدة بهذا الحجم.. ماذا بإمكان ابنة مثلي أن تقول لأب غادرها فجأة.. أب لم يترك لها سوى راية وطن مضرّجة بالدّم، معلّقة على جدارٍ أسقطه الزلزال، وذاكرة مكتظة بالأسئلة.. أب لم يترك غير شارع حمل اسمه بمناسبة سرعان ما انتهت!

أتذكّر، يوم قرّرت «الحكومة» أن تطلق على أحد شوارع العاصمة اسم والدي، اعترافاً منها بنضاله إبان الثورة، وتعبيراً عن تأنيب ضميرها إزاء رحيله الصامت، والمليء بالإدانة لها.. هو الذي خانه الرفاق القدامى مرّتين، مرّة باسم الثورة، ومرّة أخرى باسم الوطن.. هو الذي انتهى إلى شارعٍ لا أدخله كلّ يوم.. شارع يسكن فيه لصوص الدولة ومرتزقتها.. شارع تنتصب فيه حواجز التفتيش الأمنية.

حين كنت أدخله، يوقفني الشرطي ليطلب مني بطاقة هويتي، وليسألني: هل ستزورين أحداً؟

كنت أعرف ألاّ أحد لي هنا.. سوى ذلك الاسم الذي لم يكن أكثر من عبارة مكتوب عليها اسم والدي وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته وعبارة: «قاد كتيبة مجاهدين إبان الثورة التّحريرية» (عبارة مكتوبة بالفرنسية!!).. والدي الذي جلست قبالته اليوم صباحاً، أنظر إلى قبره، متسائلة: ماذا أفعل هنا؟!

أنتظرك صديقتي...

لكم هزّتني رسالتك.. هزّتني هذه الجملة القصيرة كتلويحة أمام قطار مسافر... لكم أبهرتني رسالتك .. أوقعتني في الفخ.. فخ قلبي الذي، فجأة دق بعنف.. فتساءلت: أيمكن لجملة أن ترميني هكذا على ورق أكتبه أو يكتبني إليك بامتنان؟ آه يا صديقتي.. لو قيلت لي هذه الكلمة قبل أعوام.. قبل مائة عام من الحنين إلى أيّ شيء جميل

وصادق.. و... لو في خضم جنوني وتعبي المستمر.. سقوطي ونهوضي من رماد الآه، وانهياري.. قبالة الهزات الأرضية الّتي كانت تصيب قلبي.. كنت بحاجة، ربّما، إلى من يقول لي: «أنتظرك صديقتي..».. فقد كنت أرحل، وأغادر من دون أن ينتظرني أحد.. وكنت أعود لأستعيد جنون الرحيل إلى الذاكرة، من جديد.. ربّما الوحيد الذي قال لي: «أنتظرك».. لم ينتظرني حقّاَ.. ذهب إلى الأبد.. اغتالته جماعة إرهابية باسم الدين.. كنت في قائمة المحكوم عليهم بالاغتيال.. في مدينة تموت يومياً بكلّ الطرق.. مدينة جدرانها الصراخ، وبيوتها الخوف.. وأبوابها الصّمت الموصد في وجه الصّباحات الّتي... كم تأخرتْ تلك الصّباحات.. وكم...؟

ثمَّ... فجأة تقولين لي: «أنتظرك صديقتي» بهذا اللون الأزرق الذي بعثرني.. جعل أناملي ترتعش، وأنا أحاول طبع رسالتك في ورقة.. تنتظرينني؟ يا للوعد الذي تحمله عبارتك.. وعدٌ جميل يشبه يداً تتشابك مع يد أخرى في نزهة لا ينهينها العمر / المهزلة..

ثمّ تقولين لي: «ماذا عنكِ غفران؟»... أكاد أسألك مرتبكة: أنا؟ كي لا ألتفت خلفي «لأرى أحداً يحمل اسمي، ويصرخ خلفي: خذ «اسمك» عني!»

أنا؟

أنا أعيش على حدود الكارثة يا عزيزتي.. فقدت بيتي مرّات كثيرة، مرّة بسبب الإرهاب، ومرّة بسبب الفيضانات، ومرّة بسبب الزلزال.. وفي كلّ مرّة كنت أخرج فارغة اليدين من مدينة تضطهدني باسم الحب، وتحبني كي تقتلني فيها كثيراً كثيراَ!

«عن اسمي». لم يمهله الزمن لأسأله، لكنّي أعتقد أنّه أسماني غفران، لأنّه أراد مخلصاً أن يعبّر عن امتنانه للحياة الّتي منحته الحبّ

بعد خيانة الأصدقاء، فقرّر أن يصفح عن خطاياهم بتركه من يحمل ذكراه مغفرة وندى.

تقولين أيضاً: «وعدتني يوماً بإرسال رواية لك، ولم تصلني»..

صدقيني، أرسلت روايتي للكثيرين ولم تصل.. لن أحمل ذنوب البريد على عاتقي.. فأنا حين وعدت وفيت، وهذا عزائي الكبير أمامك اليوم.. على الرغم من أنّ رجائي أن تقرئي روايتي الأولى والثانية..

روايتي الأولى ترجمت إلى الفرنسية، وقد صدرت طبعتها الفرنسية الثانية في باريس.. أنا حالياً عاكفة على كتابة رواية جديدة.. يغلبني الضجر منها أحياناً، ويشدّني إليها الحنين فجأة..

تقولين لي: «سؤالي الأهم عنك؟ عن القلب!..

اكتشفت أنّ العمر يمضي الآن وأنّ رغبتي في الزواج اضمحلت عن السابق.. تعودت على وحدتي.. أعيش مع والدتي الرائعة وشقيقتين.. واحدة طبيبة والأخرى مدرّسة.. لديّ شقيقة متزوجة، وتقيم في فرنسا كما لديّ ثلاثة أشقاء متزوجون، يعيشون كلّ واحد في مدينة.. نلتقي في المناسبات، في أعياد نتقابل فيها بإحساس غريب من الذنب نحو بعضنا.. نلتقي، كمن يلتقي في عرس صاخب لا يسمع فيه أحد صوت محدثه جيداً!

«عن الجزائر التي قرأتها في نصوصك سابقاً؟»

هي المدينة والوطن والجرح الكبير.. هي ساحة للبكاء على ما مضى، وما سيأتي.. الجزائر التي أمشي فيها كغريب لا يعرف طريقه إلى هدفه!

أحيانا أكتشف مبهورة أنّ هذا الوطن مبتور الأحلام ليس وطني، وأنّني بحاجة إلى وطن كي أبدو أقلّ وحدة وغربة هاهنا..

حين أمشي في شارع ما، من شوارع باريس لا أشعر بالغربة.. كوني أعرف مسبقاً أنّ باريس ليست لي، وأنّها ليست لأحد سوى لنفسها.. ولكن هنا.. في الجزائر، تتشكّل الغربة على شكل كلّ الكلمات الّتي صباحاً تجدينها مكتوبة على جدران الشّوارع، كرسائل مهرّبة من سجين يائس!

هنا أشعر بالخوف من جارتي حين تسألني «هل مازلت تشتغلين في الصحافة؟» كأنّها تقول: «هل مازلت مهددة بالقتل؟» فالصّحافة تعني الاغتيال هنا!

هنا.. حرف ومسافة تنتظر جسراً من الحقيقة.. كالمدن الّتي تتقابل في الخراب، والانهيار.. كالأمنيات التي يتمنّاها الأولياء الصّالحين مع إدراكهم أنّها لا تتحقق، ومع ذلك يتمنّونها انتقاماً من ذلك الشيء الذي اعتقدوه يقيناً!

هنا لا أرد على الهاتف كثيراً، وإن صادف وأجبت شخصياً، ووجدت شخصا يسألني: «هل غفران موجودة» أتفاجأ بصوتي يردُّ عليه: «عفواً، ليس عندنا أحد بهذا الاسم!»

«عن الغربة الّتي تغتالك باستمرار كما أرى بين السّطور؟»

الغربة.. هي هوية لم نعد نشعر بالخيار قبالتها.. حين ينظر موظف المطار إلى جواز سفرنا بوجه مكفهر وبصوت مكتظ بالاتّهام يسألك: ما سبب الزيارة؟ فيتملكك الحزن العميق.. من يجرؤ على الردّ؟ للزيارة أسباب كثيرة اليوم، أكبرها الهرب من شيء يلاصق مسامات جلدنا.. ربّما هو الخوف والخوف... والخوف.

الغربة؟ هي الرواية الّتي تستغرق عمرنا في الكتابة أيّتها العزيزة.. وماذا أيضاً؟ هل قلت لكِ ما ترغبين في سماعه مني؟ أم ثمّة

الأهم الذي لم أقله.. فعادة أنا لا أقول شيئاً! هيّا ابتسمي! فلا أريد أن أجعل من هذه الرسالة تراجيديا.. على رأي ابنة أخي. أمينة «عمرها ثماني سنوات» قالت لي في آخر مرّة رأيتها فيها: «عمتي هل أحكي لك نكتة؟ أجبتها: نعم. فقالت لي: واحد جزائري وجد وظيفة داخل غواصة أمريكية، ذات مرّة والغواصة في أعماق البحار، سمع الجزائري طرقاً على باب الغواصة، ففتحه!» وضحكت يومها.. فكّرت أنّ فتح الباب ميزة جزائرية ولو للكارثة!

عزيزتي الرائعة هاجر..

أصدقك القول إنّها أطول رسالة أكتبها من مدّة طويلة.. لم يسبق لي أن كتبت رسالة بهذا الحجم والبوح.. لكنّك فتحتني اليوم كمحارة باغتها ضوء الشمس.. وجدتني مأخوذة بجملتك القصيدة: «أنتظرك غفران..»

فكم هو رائع أن ينتظرني من يحمل اسمك وروحك وهدوء جنونك الطيب.. وكم أنا ممتنة لك، لأنّ يدك لامست يدي، وجعلتني أردّ عليك في اللحظة نفسها الّتي قرأتُ فيها رسالتك..

كوني بخير... وليكن يومك جميلاً كقلبك النابض هذا النّهار..

أختك وصديقتك.

غفران

***

أكثر من مرّة فتحت البريد أريد الكتابة لغفران، وتراجعت، ليس لأنّي سئمت الانتظار، وليس لأنّي نسيت. بل لأنّي قلت، ربّما عندما لا تجدني في انتظارها، تحاول إرسال مطرها لاستفزازي. هل كنت مخطئة؟

«صباح الخير...

أنا لا أملّ انتظاركِ وإن لم أكتب لكِ، فأنتِ في البال والقلب.

هل أسألُ عن أخبارك؟

هل أسألك ماذا حلّ بالموقع الذي تعدينه؟

هل أنتظرك على الماسنجر لنتحدث في غفلة من القهر والحصار واللاجدوى؟

أجيبي إن كنت ترغبين...

وستبقى ورودي في بريدك، هي ورود افتراضية بلا رائحة... لكنّها ستبقى، تأكدي أنّي لن أملّ إرسالها.

صباحٌ ممطر... مطرٌ أسود بلون مخلّفات الحرائق المشتعلة في دمي!

أنا وأنتِ نعيش على الحافة!

تعلمين؟ حاجتي إليكِ كحاجتك لي، أحسّ أنّي أغتسل ببياض روحك ونبضك واسمك من رماد الحروب التي مرّت بي.

كان لدى أمي حسّ النبوءة حين أصرّت أن تنادني هاجر منذ ولادتي، وربّما كان أبي على الطرف المقابل من اليأس، فأحبّ أن يتمسك بقبس من نور تركه هناك في شارع جمال باشا، حين أصرّ على تسميتي حنين، فعشت حياتي بين خيارين داخل قضبان فرضاها على روحي بتناقضاتهما واشتباكهما المستمر مع تفاصيل وجودهما.

لم أكن أميل لأب لا يعترف بخصوصية أنوثتي، ويريدني مقاتلة مثله، كرهت العيش في المخيمات، كما كرهتْ أمُّي تلك التّفاصيل المملة لشجارهما واختلافهما، فتركتنا، ورحلت!

أغبطك أحياناً صديقتي لأنّك تجدين قبراً، تجلسين على صخرته، وتناجين أباً لم تعرفيه، بعضُ الجهل نوعٌ من حكمة القدر، فأن تجهلي صورته، وتحتفظي بذلك النقاء لشكل مقاتل في سبيل الوطن، خيرٌ من

أن تشوّه الصورة بعنف يُمارس من مقاتل على جسدك الصغير كي تكوني صورة أخرى منه!

لم يفهم يوماً أنّ الحلم الذي يسكن قرارة القلب أبعد ما يكون عن بندقية واجتماع حزبي.

تعلمين غفران أيّ وجع أعيش مع إحساسي بوجود أب ميت مع أنّه حي؟ كم أشتهي لو أبكي على كتفه، وأنزف خيباتي حدّ التلاشي!.

ليست المدينة له، وليست لي، فأنا من صلبه، ولا يمكن لنسب الأم أن يغيّر تلك الحقيقة، أعيش مدينةً، تحيا بي، لا شارع فيها يحمل اسمه، ولا نبضها يخفق في الشرايين. تبكي معي، وتنزف رماداً، ثمّ تأوي للنوم، وتتركني أتسكع وحدي.

لعلّ جبران كان يعنيني حين صرخ في وجه الليل يوماً «المحبة لاتعرف عمقها إلاّ ساعة الفراق» لماذا كُتب علينا أن نحبّ هؤلاء الذين لا يحبوننا؟ أو على الأقل لا ندرك مشاعرهم نحونا؟ ولماذا علينا أن نرضى بفراقهم ونحن نبتسم لتلويحاتهم وسط بكاء القلب؟

يومياً يجبرني حزني للتوقف مقابل صخرة الروشة، أرقب السفن الغائصة في الأفق، علّها تحمل لي تلويحة مسافر عائد، أو أملاً برحيل قريب!

يومياً تستوقفني النوارس على الشاطئ، تصافح ألمي، وتنظر إليّ بعين الحنين، فأراه على البعد هناك، في الجانب الآخر من الشاطئ!

نعم أراه، كنتُ لزمن مضى على يقين أنّه يراني أيضاً، لكنّي صرت الآن أسيرة اعتقاد، أنّه مهما كان ذلك الرّابط السّري بيننا قويّاً، لن يتحوّل يوماً إلى ندى، سيبقى مجرد وهم أذروه مع فتات القلب في المياه المالحة، لتلتقطه النوارس، وتمضي بعيداً هنااااك. صار ضرورياً

أن أخبرك بما زلزل القلب، ونسف ثوابتي كلّها! ربّما تدركين بحدسك، أنّ ما بي بك! فكم من اللحظات الهاربة نعتقلها في كلمات، ونتحسس نبضها حين نخلو إلينا؟ في الحبّ، نشعر أنّ الزمن يعتق المشاعر، يعطيها عمقها وحميميتها، وتبدو لنا الذكريات القديمة صوراً باهتة. وهذا يبرر نسيانها في اعتقادي.

تعلمين؟ أفكّر أحياناً أن أتحجب، وأن أبحث عن خلاصي في الصلاة. ولا أدري أيّ شيء يمنعني من اتّخاذ هذه الخطوة؟ مع أنّي على يقين أنّي أسير بخطىً حثيثة نحو النهاية، على الرغم من اعتقادي أنّ الشيخوخة السليمة استواء على عرش الحياة!

لعلّي لا أضيف إلى أحزانك جديداً صديقتي، فالقلب المدّمى لا يضيره المزيد من الطعن. «رحم الله والدك» ليت الرحمة تلمس قلب والدي!»

لك محبة من دون فراق...

هاجر

***

أهو الطوفان ذلك الذي غمر روحي حين هبّت زوبعة كلماته لتحرّك مياه العشق الراكدة منذ زمن طويل؟ اصطخبت أمواجه العنيفة في غفلة مني، ووجدت نفسي ألهث تعباً وإرهاقاً، لم أبحث عن تفسير لما يجري، لم أهتم كثيراً للعواصف الآتية من عمق المستحيل، الذي بات أمام عينيّ حقيقة ملموسة، ما من شكّ أنّي كنت أرغب في حدوثها وإن في الزمن الخطأ! وعلى الرغم من وعيي لتلك الحقيقة، لم أعبأ بالنتائج التي توحي بهزيمة محتملة تلوح في الأفق! فقط كانت تستثيرني فكرة المطر الذي سقى أرضي العطشى، وجعل الروح تحلّق في آفاق من الوجد بانتظار المزيد من الكلمات رابطت أمام الشاشة

مساءً بانتظاره. ارتعش قلبي حين أضاءت نافذته بوردة جاردينيا يحملها بين أصابعه. بادرني بالسلام:

– مساؤك مغفرة، وحدك؟

– نعم.

كدت أقول له «أنتظرك» لكنّ شيئاً ما أسكتني. قلت:

– ماذا تفعل في هذا الوقت من الليل قرب نافذتي؟

– أحاول أن أقرأ الورد في معناكِ.

– وأيُّ الدّفاتر بين يديك؟

– دفتر صمتك الجليل.

– في دفتر صمتي حروف ناقصة، وأفعال ناقصة.

– ذلك لأنّك لا تمسكين بضياء النّجوم حين تسامرينها في سماء روحك.

– أغمض عين، وأفتح عين؟

– لا يجدر باليمامة أن تستعير خصائص الذئاب!

– تفعل، حين تعيش في غابة تنظر إلى الطيور على أنّها كائنات غبية، فتستعير خصائصها وأصواتها. أرجو ألاّ يخيفك صوتي!

– لم أتعوّد أن أخشى صوتاً إلهياً يلامس روحي، صوتك هاتفٌ سماوي، كان رائعاً وهو يدغدغ الصباح.

– لا أتحمّل ما تقوله لي.

– وماذا قلت أنا سيدتي سوى كلمات؟

– إن كانت مجرد كلمات، فلا بأس أن نقولها، ونمضي.

– بل إنّها «كلمات ليست كالكلمات»، وأنتِ الّتي تمنحينها فتنة المعنى. أنت التي تعطين كلّ المدى.

- وهل تقدر الفراشة أن تعطي كلّ المدى وعمرها قصير؟
- لا عمر للفراشات إلاّ بمقدار تحليقها في فضاءاتها.
- كيف ستحلّق بجناحين هشين وضعيفين ومحاصرين بالضوء؟
- هي تخلق فضاءها لذلك ستفعل، تحليقها فيه المعرفة، فهي تمنح الأمان.
- تعطي للفراشة أكثر من مقدرتها، هي كائنٌ سريع العطب.
- حين يكتمل الجسد بروحه، يسمو فوق فضاء الفراشات.
- دعه يكتمل، ويسمو، فالفراشة اقتربت من الضوء حدّ الالتحام، وستحترق خلال دقائق، وتصبح رماداً.
- ألم نتفق أنّ الضوء هو من يحترق بها؟
- وهل احترق الضوء إذن؟
- هو يتسع لتُزيد دائرتُه اشتعالَه لا احتراقه!

***

دوّختني دوامة العطر التي فاحت بها روحه، وأيقنت في لحظات أنّ روحي المتصحرة كانت بحاجة لقطرة غيث، فغمرها دفق من المطر حتّى كادت تختنق. وعلى الرغم من محاولتي التشبث بالبلل متناسية الزمن الذي طحن العظام، وأربك حركة الجسد، إلاّ أنّ لقائي الأول بزوجي الثاني أبى إلاّ أن يجتاح ذاكرتي، ويحضرني بقوة منبهاً إياي إلى أنّ ما أعيشه قد لا يتجاوز حلماً أحمق، اختلقته مخيلتي، لتجمّل علاقة الحبّ، التي نبتت فجأة في صحراء العمر كسراب يلوح من بعيد، صوّره لي العطش، وتشوش الرؤيا!. كان خالد في الخمسين حين التقيته وأنا في الثامنة والثلاثين، لم أكن بحاجة لتفكير طويل في عرضه المغري بالزواج، فقد حاول إقناعي بأنّ الحبّ ليس شرطاً أساسياً للزواج، وأنّ

الروحانيـات التـي أبحـث عنها تناسـب فتاة مراهقة! كشـف أوراقه كلّها دفعـة واحـدة، ممـا أربكني، وأقنعنـي! مازلت أذكر تفاصيـل حديثنا في مقهى على الشـاطئ، كنت أتأمل البحر، واكتفى هو بتأمل وجهي، وهو يقول:

– أصلاً يا سيدتي الحبّ ليس له سوى اختبار واحد حقيقي، فإمّا أن يقوي المشاعر، وإمّا أن يبددها، هو المحك، وغير ذلك مجرد أوهام. والرّوحانيات لا تنفصل، ولا مكان لها خارج الجسد، منه وإليه، الجسد هو الأساس، وبسببه اكْتُسِبت الكثير من المشاعر. الحبّ شعور حضـاري، ليـس أصيلاً، إنّه مكتسـب، أقصد ليـس فطرياً. لولا حاجات الجسد لما كانت هذه العاطفة بين الرجل والمرأة، الحاجة أولاً، ثمّ يأتي الحبّ للتّعبير عنها. حين يتاح للمحبّ أن يمارس الحبّ مع المحبوب، تنتهي التّجربة باحتمالين لا ثالث لهما، إمّا التّأكد من الحبّ، وإمّا موته. قد يتاح الجنس من دون حبّ مسبق، أعني هذا أيضاً قد يؤدي إلى نتيجة من النتيجتين، هنالك شيءٌ آخر غير الحبّ، الانجذاب الجنسي، لا فرق بين الرجل والمرأة في حاجات الجسد وشجونه!

– ربما يكون كلامك صحيحاً، لولا القيود الموضوعة من الدين والمجتمع.

– وهذه تسري على الرجل والمرأة، في مجتمعاتنا بالطبع وإن اختلفت مساحة كلّ منهما، فروق تظلّ بسيطة في النّهاية، فحريّة الرجل عندنا مرهونة بحريّة المرأة، أليست الشريكة؟ إن كانت مكبلة فهي عصية عليه.

– مشكلة الرجل محلولة، فهو يستطيع الزواج بأكثر من واحدة!

– أيّ إنسان متحضر يقبل أن يلم أكثر من امرأة؟ فهي تعرف مسـاحة حريّته الشّـرعية، وتخشـى من الفشل الاجتماعي أكثر شيء، قد

لا تحبّ زوجها ومع ذلك تحيطه بأسلاكها الشائكة، أن يموت أهون عليها من أن يتزوج، بل إنّها تتمنّى لو مات، الاستثناء وارد، والفروق الذاتية موجودة.

– أستغرب حقّاً أن تتمنّى امرأة الموت لرجل، وتنام معه!

– تنام معه بجسدها كما تُكره نفسها على طعام ليس له بديل. الطعام والجنس شقيقان!

– لا تصدق أنّها مجبرة على طعام لا يوجد غيره.

– ألم نتفق قبل قليل على تابوهات الدين والمجتمع؟ إن أفلتت منها فهي امرأة أخرى، تسلّمه جسدها، وتحلم بآخر!

– إن كانت صادقة مع نفسها تواجهه بالرفض.

– أتحدث عن امرأة مُكرهة، الأمر يخص حاجة الجسد فهي بحاجة للجنس، وحين لا يكون أمامها سوى زوجها فلن ترفض، الجنس يظلُّ مقبولاً حتّى خارج عاطفة الحبّ.

من منظور نيتشة، يكون فهماً معكوساً للواقع، أن نضع الروح في موقع السيادة للوعي، وأن نجعل من هذا الفهم مبدأ للوجود، ففي الحقيقة، يقول: «إنّ ما هو أوّل، هو الجسد». هذه الأولوية التي يعطيها نيتشة للجسد، هي أكثر من مجرد ترتيب تفاضلي، وبالتّالي فهي تفرض الاهتمام بها، إنّها قبل كلّ شيء تقف بالصد للفهم الديكارتي لأولوية الرّوح على الجسد. ولأنّي وقتها كنت مغرمة بقراءات تختص بعلم النفس، رأيتني منجذبة لآرائه و... وقّعت على صفقة الزواج تلك من منظور «سدّ الذرائع»!

التجربة الأولى كانت تجربة فقيرة وخجولة، لم أكن أعي بالضبط معنى العملية، ولقصر الزمن، خرجت بفكرة مشوشة شديدة التعقيد،

تدخلني طقوس البرد، والخوف، وتتركني على حافة جوع! لم أكن وقتها أفهم جسدي، وربّما كنت حمقاء إلى درجة لم أفهم معها معنى الآلام التي تنتابني إثر انتهاء طقس الحبّ عنده، فألجأ إلى كأس نعناع أعتقد أنّه الحلّ لألمي! وعندما أخبره بتمزق أحشائي، كان يدير ظهره لي، وهو يتمتم «لا شكّ أنّه البرد».

وحتّى بعد رحيله، كنت أخجل من قراءة كتب تجعلني على بينة من الأمر، واحتفظت بمفاهيم مشوشة عن العلاقة الزوجية.

الثاني حاول أنْ يقنعني أنّ ما يقوم به هو الفعل الأمثل، وأنّي معطوبة، ولا أنفع لشيء، لكنّي وقتها كنت قد وعيت ذاتي، واستطعت اكتشاف جسدي وحاجاته، وعرفت أنّه هو الهش والمعطوب، فواجهته بالحقيقة... وأنا أبذل قصارى جهدي لأرضيه، على الرغم من عدم وصولي إلى نهاية الشوط، واكتفائي بآلام الرأس والصداع الذي يمزّق جبهتي.

وكأنّي في هذه اللحظة، تحرّرت من ذلك المنطق الغريب، الذي مازلت مندهشة من قبولي له ساعتها، والمغامرة في قبول صفقة زواج استثنائي ومريح، يقدّم لي زوجي من خلاله دعماً مادياً مقابل إشباع جسدي، وعناية خاصّة بكلّ متطلباته. وعلى هذا الأساس تركت وظيفتي في التعليم، وعدت معه إلى بيروت، بعد زواج ابنتي بأشهر! لا أعرف كيف مرّت السنوات بسرعة، وبدأت أشعر بالغبن من تلك الصفقة التي أبعدتني عن الرسم، والكتابة، وتركتني أعاني فقراً روحياً لم أستطع معه أن أنهي رواية بقيت في أدراجي ما يزيد عن عشر سنوات! لم يعد السفر يغريني، وصارت السهرات تشعرني بالملل والتّعب، وتدريجياً انزويت في البيت، وحتّى واجبي تجاه زوجي أصبح روتينياً ومملاً، بل ومقرفاً أحياناً. هو أيضاً صارحني

أنّ الوضع الذي يعيشه لم يعد مريحاً، وأنّه يفضّل أن ننفصل، وعرض عليّ أن يعوضني عن السّنوات الّتي قضيتها معه، على الأصح في خدمته، بأن يترك لي البيت الذي نقيم فيه!. كان العرض مغرياً أيضاً، وهكذا انفصلنا، وعدت للبحث عن عمل يقيني من الوحدة والملل، ويسدّ مصاريفي اليومية.

***

غفران كانت تظهر بين حين وآخر، فتبدّد وحشة أيامي بصداقتها، وإن كانت افتراضية، فقد كنّا نشعر أنّنا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد، وأنّنا التقينا في مكان ما، ربّما بسبب أحلامنا المشتركة، وهمومنا أيضاً. كلّما تحاورنا، تسألني السّؤال الاعتيادي عن آخر ما كتبته ـ وكنتُ في هذه الأيام أعيش هاجساً جديداً، أن أكتب عنه، عن العراق، عمّا أشاهده كلّ يوم على شاشة التلفاز ممتزجاً بخيبتي المتكررة ـ بمجرد ظهورها في نافذة المحادثة، أخبرتها بما أفكر فيه، سألتني عنه، لكنّي خفت أن أبوح باسمه، اكتفيت فقط بالقول إنّه شخص مختلف تعرّفت عليه من خلال الانترنت، وبأنّي أفكّر بكتابة نص جديد عنه:

– هو نصٌ مختلف، أفكّر أن أكتبه، لأفهمه، أريد إدراكه كلّه. فيه غموض محبب، ضبابية تخرج من الكلمات، تربك ذهني أحياناً، فأجتهد لأبدو مثيلة له! مع هذا أجده أنا، وأجدني من خلاله، أحسّه روحي المحلّقة عند نافذته. ليس هذياناً، وإن كنت أريده كذلك، وليس جنوناً وإن كنت أرجو الوصول إليه، وأخشاه! سأعتقله في رواية.

– اكتبيه إذن...

– أحتاج لرؤيته.

– احتاج القمر إلى سنين حتّى وصلوا إليه، وعرفوه.

– هو أبعد من القمر، وأصعب منالاً من أشعة الشّمس.

– اكتبيه قطرةً قطرة.. على صفحات الليل، حتماً ستلملمين النّدى من جبهة الرواية حينها.

– أنا أزعم، وأدّعي، أنّه لا يوجد رجل يستعصي عليّ فهمه.

– لذلك كان، حتّى يلغي ادعاءاتك، وينسف كلّ ما تزعمين!

– أدخلني في دوامة، أجده أحياناً صفحة بيضاء أكتب فيها ما أريد، وأحياناً ينغلق كمحارة، لا أعرف ما بداخلها من دون أن أمدّ سكيناً لأجرحها، وأخشى أن تسيل الدّماء! كان ليثبت لي خطأ مزاعمي وادعاءاتي.

– نحتاج الضدّ، لنعيش حياة أخرى، وتجربة جديدة.

– والله نحن «كاتبات» خائبات لا نشتعل عشقاً إلاّ داخل النص، ولا نعرف أن نعشق خارجه. زهورٌ تنثر عطرها، نألف التّراب، والماء، لا نحلّق كثيراً، لكنّهم يطيرون بعيداً، بعد أن يضربوا بأجنحتهم، فيخفق الهواء من حولنا!

– نعم.. نحن هنا ننفض جمر الأيام عن كلماتنا.. وننهض منا.. لنكون كما نشتهي!

– نريد رجلاً على مقاس الحلم، وحين يصفعنا الواقع، نخلقه كما نريد في «رواية أو نص» لكن ماذا يكون شعورك لو خرج ذلك الرجل من النص؟

– سأغافله، وأقص جناحيه، نعم ذلك أنسب حل لأحتفظ به، النساء يحبين الملكية الخاصة.

– كيف إذا وجدته أمامك حارّاً طازجاً، وقال لك: هيت لك؟ خرج لي من النّص، بصراحة هو رجل استثنائي، لايشبه سوى النّص، ولأنّي امرأة قبل أن أكون كاتبة، اشتعلتُ غيظاً من وجوده في طريقي،

لماذا عليّ أن أحترق هكذا، لأكتب عن عشق لن أعيشه، أنا مغتاظة، وأتساءل: لماذا يكون هذا الرجل موجوداً الآن، وفي هذه الظروف، في حياتي؟ ما الفائدة من وجوده سوى المزيد من الحرائق والقتل والرماد؟ سأكتبه، لكن أتستحق رواية كلّ العذاب الذي سأعيشه معه؟

– اكتبيه.. لحظتها ستتخلّصين منه.

– تندمج روحانا حتّى أنّني أخطئ تحديد مصدر النبض!

– وكأنّها مصنوعة من دهشة.. روح تسرق ما عندنا.. وتزرعها في الآخر.

– أقول لكِ مدى التوافق في صنع المشهد أو الحوار، بمجرد أن يبدأ هو أو أبدأ أنا، نمشي على الغيم.. ولا أريده أن يعرف أنّ ما يمنحني إياه من خلال الكلمات، هو ما أعشقه حقّاً في رجل تخلقه كلماتي، وتكتبه على الورق، فيستمتع به الآخرون، وأنا أبقى في خيبتي.

– ألا يعرف؟ تخطئين إذ تظنين ذلك!

– كيف أجد في طريقي رجلاً يقول لي ما رسمته في مخيلتي، وما كتبته عن لسانه على ورق، كيف أجده ينثر حولي الياسمين، ويصبّحني بالورد، ويمسيني به؟ كيف أجده ولا أعشقه؟

– توقفي، إياك واللجّة؟

– لكنّها صرحٌ من قوارير ممردة!

– أخشى عليكِ تحطم الزجاج من وطأة الألم.

– بل هو قلبي ذاك الذي ارتطم بروحه، فحدث الانفجار.

...

بعد أيام وجدت رسالة في بريدي، كتبتها من مقهى انترنت مما يوحي بأنّها غادرت الجزائر، غلبتها نبرة الفرح، كتبت..

«وكأنّ ما حصل قبل لحظات مرّ عليه عمر!

وكأنّـي مـا عبـرتُ ضفاف روحه، وما غرسـت أنياب اشـتياقي في لحم ذاكرته..

أنـا المـؤودة تحـت تـراب حلمـه، أنبش الأمـس بأصابـع الترقب، وأخشى من يقظه شيطان حنيني!

محـاولات فاشـلة تلـك التي أحتمـي خلفهـا، لأردع حنجرتي عن الصراخ في وجه الخوف من فقده..

عصيّـة تلـك الدّمعـة التـي اعتادت علـى أصابعـه لتحتضنها لحظة انفلاتها من هدبي..

...ولفيروز صباح مختلف .. ما تاري سوا أنت وها الهوى اتفقتوا عليّ وما عندي خبر[4]!» يالصباحك المشرق أملًا!

أخبرتنـي أنّـك الآن فـي دمشـق!. آه كـم أودُّ لو أنّي معك، نجوب الأزقة، نغتسل بالمطر، نلجأ إلى دفء الزوايا، نحتمي من بللنا بحميمية اللحظة، وسقف الكلمات.

مدهشة أنتِ...

ومطرك السـوري الجميل، هل أقول لكِ: إنّني دخلت الماسـنجر لأجلك؟ لا رغبة لي في الحوار مع أحد، ولهذا حين وجدتك شعرت بفرحة غريبة، وكأنّك تنتظرينني أيضاً، أيّتها الجميلة.

قلت لي: لم لا أحبّك؟ وشـعرت بالخيبة.. ربّما لأنّي توقعت أن تقولي لي: نعم أحبّك كثيراً.

أشـعر بحـب جميـل نحـوك، حب صـادق ودافئ ومخلـص. أيّتها الرائعة التي فجأة شدّتني من يدي، وجعلتني أتخلّى عن صمتي، وأكتب،

(4) لا تعتب عليّ/ الأخوين رحباني

أكتب إليها في صباحٍ جزائري غارق في القتامة! أيّتها الصديقة العزيزة، يدك مازالت في يدي، ويدي تشدّ على يدك، تشدّ بقوة، بحجم وحدتي، وحزني، ودهشتي، وفرحتي الآن.

شكراً لأنّك موجودة.

***

أكان النقطة التي فاض منها الكأس، وكلّ ما حدث كامنٌ فيّ بانتظار هبّة ريح؟ أم لأنّه هو بما هو كائن، أحدث تلك التبدلات التي طرأت على روحي وجسدي؟ لاحظتْ عيناي تلك التحولات الجذرية لرغبات الجسد، كما انتبهتُ من ذهولي لغرق روحي الكامل في تفاصيل متخيلة للقاءات أخترعها بدقة، وأرتّبها حسب احتياجاتي ورغباتي، وأغرق في أحلام يقظة، لا ينتشلني منها واقعي المزعج، ولا مشاكل ابنتي! أنثر الألوان على القماش بحماس لا يشوبه وعي ولا التقاط لموضوع أو فكرة، وتريحني تلك الخطوط المتداخلة، والألوان الممزوجة بحضور طاغٍ للأزرق. أنتظره بين النوارس التي تسكن اللوحات، وأنا أتأمل جسر الرصافة، وأتخيّل شكل المقاهي، كما وصفها لي، والشوارع والنّخل، وأعيش تفاصيل المكان، وتغمرني الفكرة بحنان متدفق «سأكتبه» لا شكّ أنّي هذه المرّة سأحتضن أمنيتي بين أصابعي، ولن أطلق حمائمها إلاّ بعد وضعها البيوض في راحتي! وما بين انتظار الحلم ووجوده الافتراضي، أبقى مرابطة أمام شاشة الكمبيوتر بانتظار قنديل يلوح في نافذته، فيضيء روحي، لتتراسل مع روحه عبر الكلمات:

– مساؤك فل، كيفك.. وروحك؟

– على قيد الندى!... أشعر بطاقة لا يتسع لها جسدي، أودّ أن أفرغها في كلمات تحتضن كلماتك، لتشكّل منها نصاً جديداً.

– سأحبُّ كلماتي كثيراً، لأنّها ستكون بين سطورك... تغمرين

شاعراً بفيض روحك، يخشى أن لا يبلغ شاطئيك، فأيُّ زارع أنتِ وأيّ مزروع أنا؟ وإنّ المزروع لا يدرك الزارع ولو اجتهد... مازالت روحي تستعيد نبرة ترتيلك، وأنت تتحدّثين إليّ، فكيف سأدركك كلّك؟

– المطر الغزير والمفاجئ، قد يقتل الزرع، دعه إذن ينهمر ببطء، ويغيثنا.

– لا مطر كمطر الروح، ولا أرض كأرض القلب، إنّهما الحامل والمحمول، فهدهدي خوفك.

– حتّى القلب ترهقه الدّقات السّريعة!

– ولكنّه يحتويها بسعته.

– مالنا لا نرى المسافات؟ ولا ترهقنا الأمكنة؟

– ربّما لأنّنا نسير إلينا بنا، لا نسير إلى بعضنا!

– ننسى الزمن!

– عندما يكبر الإنسان يصبح أحلى.

– أحياناً ـ بعيداً عن المزاح ـ أحسّ بهذا، فأجد بعض الأشخاص حولي في الكِبر أجمل مما كانوا عليه في شبابهم، لا أعرف السّبب بالتّحديد.

– نعم، أنا لا أمزح، لأنّ الإنسان ينضج تماماً روحاً وعقلاً وجسداً، والنّضج يصاحب الجمال.

– ربّما هذا النّضج يضفي مسحة الجمال تلك.

***

مازلت على الحافة، أرقب النوارس، وأتمنّى لو أستعير أجنحتها، لأغوص في عمق الزرقة، علّني اصطاد سمك الرغبة الملون! أو أحظى من مسافر على سفينة بنظرة فيها وعد بلقاء!

وأرانـي علـى حـدّ الغـرق دائماً، وأنقذنـي بالمزيد مـن اللامبالاة. أحيانـاً نكـون أجبـن مـن مواجهتنا، أجبن من أن نعـرّي دواخلنا، ونراها في ضوء الشّمس! بل إنّنا أجبن من أن نصدق حتّى مشاعرنا. لهذا نحلّق دائماً قريباً من الماء بين زرقتين، بل نحلّق بين خيبتين، ونتدثّر بسـمائنا خجلاً منا!

مازلتُ هناك عند الجسـر، أشـاكسُ الليل، وأبحثُ في عتمته عن نجمـة، خطفـتْ منـك ضياءها، لا أثر للنوارس، أكنـسُ مياه النّهر بعينيّ بحثـاً عـن بهجـة البياض، فتخفـق موجاته ناعمة طريّةً. تهبّ النّسـمات، عذبٌ رذاذ الماء، يدغدغ وجهي، ويوقّع على صفحته حضور النّشوة.

عتمة وهدوء، وأثر النوارس ما زال على الشاطئ، هنا حيث وقفتَ في الصباح، عندما امتدت يدك لتعانق أصابع الشـروق، وتركتَ للنسـيم بعض أنفاسك، لتكتب بها تاريخ العشق.

مازلتُ عند الجسر، أحاولُ لملمة شتات روحي، أجدها هناك، في إثرك على حافة الفجر.

إنّ روحـي «البارحـة» صفـت، وارتفعت، ورأت، ووعت، وعلمت علم اليقين، أنّ كلماتك»الوحيدة» القادرة على استنفار حواسي كلّها، وتحريـك الأنثى فـي داخلـي، لترتكـب خطيئـة الحيـاة داخـل روحك، وتقتـرف إثـم الوجـود معـك، ضاربة بالعيـش خارجها عـرض الحائط. أكنت تعرف أنّك قادر على خلق حياة أخرى داخلي؟ ها أنا أخطو إلى حياتـي بثقـة مـن امتلك اليقين، وثبات من عـرف الحقيقة. يكفيني منك وعود هشة بجمال أرشف منه حضوري.

غادرتني منذ لحظات...

وأثر الطعن في الرّوح حارٌ وندي. متى تقول للمسـاء ما قلته قبل اندلاع الحرائق على صفحة الرحيل؟ تهشمني كلماتك بمطرقة حيادها،

تقـع فـوق رأسـي كصخـرة «مالاريميه» لكنّها لا تصنع دهشـة، بل تقتل في التّو واللحظة!

كم قلت للنفس: خلِّ عنكِ، إنّها مجرد كلمات! لكنّك أكّدت لي: إنّها كلمات ليست كالكلمات! يالهول اللغة كم تملك قدرةً على القتل!

سعيتَ لإدهاشي ربّما، والكلمات حرفتك ولعبتك، لكنّك لم تنتبه إلـى الثغـرة التـي هبّت منها الريح، فاقتلعـت الأمان في النّفس، وأثارت زوابـع القلـق، وحرّكـت جمراً بـارداً، وصقلت روحاً، نمـا على حوافها شوك، وتكلّس رمل، وتسلّق نبات طفيلي، مدّ فروعه حدّ الاختناق!.

ليتـك تـدري، أنّ هفهفـة العطر، والمغفـرة، والورد بأطيافه، تجرح القلب تماماً كما يفعل خنجر حاقد!

وليتـك تـدري، أنّ روحـك الرقيقة هذه، وطبعك الحاد، وأفكارك، وتكوينك كلّه، خرج لي من صفحات مخيلتي، ليقول: الواقع أيضاً فيه مـن الجمـال مـا لا تسـتطيعين إدراكه! أكّدت لي أنّ «الـرّوح تؤدي إلى الجسـد» وأنا أنتظر كلمة تنتشـلني من قلقي وشـكّي، وتعالج روحي من نكساتها، وتخرجها من انكفائها الطويل داخل جسدي.

للكلمة سـحرٌ في النّفس والرّوح والجسـد أيضاً، فكيف إذا قالها شخص ننتظر منه أن يمطر في روحنا ولو بطريق الخطأ!

***

أوان المطر

سـألتني منـذ أيـام «تكتبين رواية؟» ونفيـتُ ذلك، لم يكن في نيتي وقتها كتابة رواية، في ذهني كانت تقبع فكرة صغيرة لم تتطور بعد.

وهي أن أعود إلى روايتي التي كتبتها حسـب قانون الاحتمالات. وتركتهـا طيلـة تلـك السـنوات، لأنّـي حين بـدأت الكتابة اكتشـفت أنّي سأنسف الكثير من الأحداث، وأنّ الرواية بأحداثها لا تحتمل التّجريب. فتركت الفكرة.

كنت أحكي عن قصّة الحبّ تلك بين شـخصين افترقا، أصل إلى لحظـة الفـراق، وأعيـد الكتابـة منذ البداية على أسـاس آخر، فيما لو لم يفترق هذان الشخصان، اتفقا، وتزوجا، كيف ستسير الأحداث؟

سـأعود عنـد نقطـة معينة لأقول: لننقـض كلّ هذا، ماذا يحدث لو أنّ أحدهما مات مثلاً؟

الروايـة سـتقوم علـى ثـلاث نهايات، كلُّ واحـدة محتملة للمقدمة نفسها، وللأشخاص ذاتهم.

أعـدت النّظـر الآن فـي الفكـرة، لأنّ فكـرة ثانيـة تقاطعـت معهـا البارحة أثناء حديثنا على الماسنجر، فكرة لعبة الجنون تلك! المحادثات الافتراضية التي تقرّر مصائر الشخصيات، وتلعب بها.. وعدت إلى قصّة يوسف...

كنتُ ويوسف على ضفاف الحلم، أزرع معه بذوراً لعلاقة مختلفة، وكلّما تضخّم الحلم، واستطعت فيه الحصول على كفايتي، أصحو من النوم، وشعورٌ بالبهجة يغمرني.

هكـذا سـرت إليـه في فصـل الغوايـة الأوّل، حينما يزرع ياسـمينه

كلمات في أذني، تنتفض خلاياي عشقاً، وأراني أركع قريباً من شاطئه! ولأوّل مرّة في حياتي، قرّرت أن أتعرّى من ألمي، وارتباكي، وترددي، وخجلي، وأكون أنا، من دون حاجة إلى التجمّل بالهدوء والرزانة، وبرودة الأعصاب، وردود الأفعال المدروسة. قرّرت التخلي عن طبعي المسالم الذي يفرض عليّ دائماً أن أراعي الطرف الآخر، وأداريه، وألبي احتياجاته، دافنة مشاعري ورغباتي، حدّ لجوئي إلى إظهار الرضا وأنا غاضبة. صحيح أنّ هبّات من الجنون تجتاحني أحياناً، فأتمرّد على نفسي، لكنّ ذلك لم يحدث كثيراً.

ما زالت صفعة زوجي الأوّل على وجهي، تنبهني إلى عدم التورط ثانية بالحديث عن حاجة الجسد، أو التفكير ـ ولو عن طريق المزاح ـ بإيجاد بدائل تعوّض جسدي عن حرمانه. من الصعب والمؤلم، أن أتحدّث عن جسدي الذي كان مدخلاً لحواري الأوّل مع زوجي الثاني. فمن خلاله طلب مني الزواج، وعقدنا الصفقة! ومن خلال علاقتنا، كرهت جسدي، ونفيت تفكيري به، والتمست طريقاً إلى الروحانيات، التي عوّضتني عن فقر واقعي، وأمدّتني بطاقةٍ عجيبة، استطعت من خلالها أن أعشق شخصيات أخترعها، وأتحكّم في حياتها على ورق. وهكذا أحببت يوسف بطل روايتي الأولى التي لم تنتهِ، لأنّي ما أزال خائفة من وزر المصير الذي سأخترعه له، وربّما خائفة من فقدانه، حين أنهي علاقتي به على الورق!

التقيته بمكتبه... اتكأ على مسند كرسيّ، وقال: «كيفك؟». ونفض رماد سيجارته في أصيص زرع بجواري. قلت: «حرام أن تحرق قلبها برماد سيجارتك، النبات يحتاج للماء.

تنهّد، وقال: «قالت لي «ستي» الرماد يفيد الزرع، لأنّه يمنحه الحياة من حيث لا يدري!»

قلتُ باستغراب: «أتعتقد ذلك حقّاً؟»

قال: «أتشكين؟ كيف لك ألا تدركي، أنّ نفخةً واحدة من الرّيح، تكشف وجه الجمر المختبئ هناك، ليرتدّ البصيص إلى القلب!».

قلت: فرقٌ بين أن ندرك بصيص القلب بلغة الجمر، أو نغمره بفيض الندى، كلاهما يترك رعشة، لكنّ إحداهما تنثرنا رماداً، والثانية تنبتنا ربيعاً، فأيّ الرعشتين تبغي؟

- أراك ترتعشين بكليهما!

الغريب أنّي لم أعرف ما الرعشة؟ إلاّ من خلال كلماته، وحدها القادرة على فكّ الاشتباك الغامض في أعماقي، ونسف كلّ المنظومات الأخلاقية التي تحجز مائي، فأراه يتدفق في حقوله، فيمتدّ نيسان إلى أقحواني بماء الغواية الأولى. أدركت وقتها فاجعة أن تعيش عمرك بشخصية ليست لك، وأن تكون مضطراً طيلة الوقت إلى كبت مشاعرك، ودفنها، لأنّها لا تناسب وضعك الاجتماعي! من الذي اخترع تلك المفاهيم التي تحجر على مشاعري وأفكاري؟ كفى... هذا ما صرخت به وسط فضاء عزلتي، ولم أجد جواباً!.

ولأنّني كنت أعاني من فقد صديقة، كانت لفترة طويلة تحدّثني عبر النافذة الافتراضية، ثمّ خطفها الموت. فقد رحت أفتح نافذتها كلّ يوم، وأحدّثها عن يوسف! لزمن لم يطل، كنت أشعر بروحها قريبة مني، تردّ عليّ في النافذة، وتنصحني، معها وحدها، استطعت خلع أقنعتي كلّها، وتحدّثت عن أحاسيسي ورغباتي بكلّ وضوح وصراحة، حتّى أنّي أخبرتها بخوفي على يوسف، بعد أن تسلّل إلى أحلامي، ونام في فراشي، وأصبح جزءاً مني. نعم خفت عليّ من فقده، لأنّ الأشياء الجميلة سريعاً ما تغادرنا، وتترك وراءها فراغاً هائلاً، يوجعنا بقية العمر!.

وهكذا أصبح يوسف واقعاً أعيشه يومياً بكلّ تفاصيله ونمنماته،

ينتظرني على نافذة افتراضية أنشأتُ حسابها في غفلة من اتزاني، ورحت أحدّثه عمّا يقلق روحي، كشخص انفصل عن جسدي ليكون أنا وأكون هو... أبدأ حديثي معه بوردة أرسلها عبر النّافذة، وأقول:

– كان من زمان؟

– وردتك رائعة، أخيراً أصبحنا نفهم.

– ليس هذا بالضبط، أخيراً خرجت من العزلة، الفهم موجود وسابق..

– وأين العزلة؟ تقصدين التواصل.. نعم أنتِ محقة، أنا سعيد بكِ.

– يبدو أنّنا سنجامل بعضنا، حتّى نصبح مثل «بيت فستق».

– هل تحبين الفستق؟

– أحبُّ ما هو جميل.

– والفستق أليس جميلاً؟

– هل تعرف أجمل ما فيه؟ حين يتفتح في الليل كأزرار الورد، في غفلة من حرارة آب، تتمطّى حبّاته في هدأة الليل، مع هبوب الشمال الخفيف، وتصدر فرقعة خافتة، تخترق حجب الصمت، فترتفع موسيقاها، وتتراقص ارتقاءً لنشوتها..

– قبل أن يصبح فستقاً، هذه عادتك دائماً تحبين الورد..

– لا، ليس في حالة الورد، بل قبل النضج الكامل، للفستق الحلبي خصوصية، أجمل لحظاته حين ينشقُّ عن صمته، ويصدر احتجاجاً، قبل السقوط!

– هل تلاحظين أنّنا نتحدّث كما كنّا من قبل؟

– نعم ألاحظ، وهل لنا ألا نفعل؟

- كأنّنا ما تطورنا؟

- لا، بل لأنّنا نحافظ على لحظات جميلة أحببناها. أعود للفستق، هل سمعت احتجاجه يوماً؟

- لا.. للأسف..

- أنت بحاجة لدورة اندماج مع الطبيعة..

- حقّاً، أنا بعيد عن الطبيعة جداً..

- تعرف أنّ ذلك يفيدك في إضفاء تفاصيل حميمة على ما تكتب.

- لا أشكّ، لاحظت ذلك على شعر نزيه أبو عفش بعد أن سكن مرمريتا.

- أنت تخزّ، أعرف أنّك لا تشكّ!

- وهل أستطيع أن أخزّ مثلك؟ أنت هاجر يا عزيزتي..

- أنت تفعل أحيانا من حيث لا تدري..

- لعنة الله عليّ إذن.. أنت لا تقدرين معزتك ومحبتك في قلبي، قد لا أعبّر، لكنّك ملء الرّوح.

- لا تلعن نفسك، ألا تدري أنّ هذا أيضاً يؤلمني؟ أشتاق أحياناً سماع صوتك..

- أحياناً أنشغل، فأنسى، وأتشاغل، فأغفل و... هل تعلمين أنّي أحياناً أقصد ذلك، كي لا أفتح باباً يصعب إغلاقه.. ما بيننا أكبر من أن يمرَّ عرضاً، فلا تغضبي مني في هذا، أنت أعزّ من أن أتجاهلك. لكن أعرف أنّك مجنونة، وأنا أجنّ، وبما أنّنا مجنونان رسمياً، فأنا أبتعد..

- لقد تجاوزنا سن الجنون منذ زمن..

- من قال؟ كذبة.. ما زلنا على درج الكلية نتمشى.. وما زلنا

في الحديقة نتشاجر، أو نتعانق..

وضعت له وجهاً ضاحكاً، يقلب على قفاه، ويخبط بيده.. فقال:

- كفى بكاءً.

فوضعت وجهاً باكياً، وكتبت له:

- هذا يبكي، أمّا السابق فكان يضحك.. يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا..

- كعاشق خطّ سطراً في الهوى ومحا.. يبدو أنّي نعست، أو راح نظري..

- طيب.. تعال نمحو كلّ ما كان..

- ماذا نمحو؟ تاريخنا؟

- كلّ التواريخ تتشوه، وتنمحي، وقّفت على تاريخنا؟

- لا أعتقد، تاريخنا سيحافظ على ألقه دائماً.

- أرى ذلك، وألمسه..

- هل تشكين أو تخزينني؟

- وحياتك لا، وحياة عينيك.. بالمناسبة هل تعرف أنّ عينيك ما تزالان تحتفظان بألقهما منذ ذلك الوقت الذي نظرتْ عيناي في عمقهما لأوّل مرّة؟

- العيون على ما يبدو خارج التاريخ! لاحظي برد وحرّ على نفس السطح...

- ربّما لأنّهما تعكسان داخلنا، نعم ألاحظ..

- كأنّي قرأت أنّ العيون هي وحدها لا تكبر منذ أن يولد الطفل حتّى يشيخ.

- ربّما لا تكبر علمياً، لكنّي أتحدّث عن ناحية ترتبط بمقدار

تحولاتنا الشخصية الداخلية..

– معذرة عليّ أن أغادر الآن، تصبحين على ما تحبين من ورد وأشياء أخر..

– وأنت من أهل الجمال.

بعد عدّة محادثات، قرّرت التوقف عن نوبة الجنون تلك، كنت أخشى أن تصبح حقيقة، وأجد نفسي في مواجهة ذاكرة ممتلئة بتفاصيل لا تخصني، مع هذا عليّ أن أعيشها رغماً عني. أغلقتُ الحساب ثانية، وحاولت نسيان تلك النافذة، وقتل يوسف الذي كان مهندساً، ثمّ أصبح بجرّة قلم شاعراً، وكان يوماً ما شخصية أكتب عنها، مستعينة بوجه جار قديم، سكن حينا، وغازلتني نظراته من شرفة مقابلة، ثمّ تحوّل إلى شخص أعيشه بكلّ خصوصيته وتفاصيله.. كان يجب أن أقتله، وأنهي قصة العشق التي اخترقتني كصاعقة، وأحرقتني، وذرّتني رماداً.. لكن القلب أبى أن يفعل، وجدت نفسي في آخر لحظة، أقفل عليه درجاً، وأرمي المفتاح.. حينها انفتحت أدراج عقلي على حقيقة واحدة.. وحشة مرّة وفراغ..

***

أحياناً كثيرة تربكنا الحياة بأحداث غير متوقعة، إنسانياً تضعفنا، وتضعنا في مهب اللعبة.

ماذا لو سألتك أنت تلك الأسئلة التي كنت أسألها ليوسف؟ قلت لي «لا أحبّ أن ألعب هذه اللعبة، لأنّي لا أحبُّ السّؤال الذي أضع إجابته بنفسي».

الروائي دائماً يضع الإجابة التي يريدها هو على لسان الشخصيات.

لكن أن يذهب للشخصيات، ويتركها هي تجيب بطريقتها، كيف ستبدو الرواية عندئذ؟

أنا وأنت نمارسها يومياً على الماسنجر، لكن من دون هدف، فهل يختلف الأمر لو وضعنا هدفاً، وهو كتابة رواية؟

أو حتّى لو كان الهدف لعبة، غير مخطط لها! حين عدت إلى محادثاتنا، وجدتها خارجة من فكرتي المتخيلة، وشجعتني لدخول المغامرة، صحيح أنّي لا أضمن النتائج، لكنّي سأفعل. ها نحن بين نافذتين افتراضيتين أنا وأنت، والكلمات بيننا، ترعش الجسد، وتحلّق بالرّوح.

– هل تأخذين مني فنجان قهوتك؟ أم تمنحينني مساحة سكرها؟

– لن آخذه.

– يبدو أنّي أضعك دائماً بين خيارين؟

– تضعني بين خيارين ملتبسين أحياناً.

– ولكنّي دائماً أمنحكِ خياراً ثالثاً بينهما. حين يكون المادي بين يدينا، فإنّ ثمّة معنوياً في مساحة أخرى من فضائنا. أتعرفين؟ أرانا كخطوط العرض والطول؟

– أنا وأنت؟

– نعم، أنتِ كخطوط العرض، وأنا كخطوط الطول، والعرض سعة والطول امتداد، والسّعة أكثر قدرة على الاحتواء من الامتداد.

– ...

– أمتاهة أخرى؟

– لا يوجد متاهة... تعرف أنت أجمل من أن أقتلك بالكتابة عنك، وأحبسك في كتاب... فكّرت فيك كشخص مميز أستطيع أن أخلق من كلماته شخصية من لحم ودم، لكنّي أضن الآن بك، ولا أجرؤ على تنفيذ الفكرة.

– لماذا لا تجرؤين؟ حين نخترع أشخاصاً من حلم، يعني أنّنا خلّاقون، وحسب ذلك إبداعاً يتوّجنا..

– لأنّك كشخص حقيقي أمامي الآن أجمل بكثير من شخصية في رواية، لأقل إنّها أنانية مني، كي لا أتركك للآخرين، ولا بأس أن تعتبره غزلاً.. تجذبني كلماتك، فتتبعها روحي كفراشة تلحق الضوء.

– مازلت لا أصدّق أنّ الضوء هو من يجذب الفراشات إليه، بل كثيراً ما آمنت أنّ الفراشات هي من تجذب الضوء لأسباب كثيرة. منها أنّ الضوء منبعث لا بذاته، وهو بالتّالي أكثر عجزاً عن أن يجذب كائناً آخر إليه؟

– إذا كانت الفراشات تعشق الضوء، وتجذبه، فلماذا يحرقها؟

– لشدّة عدم تصديقه بزحمة جمالها عليه؟ فكثيراً ما يقتل الحبّ الآخرين.

– المشكلة أنّ الضوء قادر على الحرق، فمن يحرقه؟

– روح الفراشة هي من يحرق الضوء، فلا طاقة كطاقة الرّوح، الضوء يحرق المادي، ويعجز أمام المعنوي.

– لهذا تبقى الفوانيس في الشوارع كئيبة، ونورها باهت؟

– إنّ احتراق الضوء بها دليل على خفوته رغم شدّته، وجمالها وقوتها على وفرة ضعفها! وهذا ما يربط بينها وبين المرأة في جمال الخلق وتميز الحضور.

– بعض الكائنات قوتها في ضعفها، ومن تلك الكائنات بعض النّساء أيضاً.

– إنّنا نرتقي معارجنا سوية إلى سماوات ذاهلة بالبياض، توارد الخواطر دليل على قوة الوجود.

– فلنبقَ في الحدّ الفاصل ما بين الحلم والحقيقة.

– كثيرٌ من الأشياء الجميلة هي انتظار مؤجل ربّما! ماذا تسمعين؟

– عبد الوهاب يغني:

وإذا مثّلتُه في خاطري صفّق القلب إليه وهفا [5]

– أما أنا فأقول:

يكتفي قلبي إذا ما ضمّه ليته يدري بما قلبي اكتفى[6]

–....

– أهو الصّمت أم السّكوت؟

– بل أعجبني بيت الشعر وحضوره بهذه السرعة، لكن ما الفرق بين السكوت والصمت؟

– يكون السكوت في حال أنّنا لم نجد ما نردُّ به من الكلام، أمّا الصّمت فيكون لدهشة معينة ربّما، فتنعقد آصرة الكلام، أيّ هو السّكوت مع استطاعة الكلام، لذلك هو أجمل.

– قل لي، ما هو الفرق بين «علاقة الورد بالكلمات؟ وعلاقة الرّوح بالنبض؟».

– علاقة الورد بالكلمات علاقة تبادلية، لأنّ الكلمة تحيط بصفات الوردة وملامحها، لكنّ الوردة لا تحيط بالكلمة، ولكنّها بين الرّوح والنبض تأخذ معنى أكثر عمقاً، فالنبض شهقة الرّوح! وللروح فتنتها الأخرى الّتي تجعلنا محلّقين، ليس كما النوارس فحسب، بل كما

(5) القصيدة / علّموه كيف يجفو فجفا/ أحمد شوقي.

(6)

الفراشات تارة، وتارة كما ندائف الغيوم البيض في وجه السّماء، حتّى لنتحسسنا، فنجدنا سماويين بعد أنْ كنّا أرضيين، ويكفي إذن، بعد كلّ هذا، سببٌ أن نتعلّق بالحياة حبّاً ورغبة، وسعة رؤية، وامتداد رؤيا.

– أعطيتني جرعة حلم، وامتدت رؤاي صوب أفق بعيد، لا شكّ أنّ ندائف الغيوم هذه، صورة ماضٍ يقنص الطفولة، ويعيد خلقها من جديد، تدخلني معبد الصّمت والتّأمل.

– حري بروحك أنْ لا تصمت، فهي الجميلة دائماً.

– حتّى الكلمات تحتاج ما يكمّلها! فلا تبدو بهية إلاّ حين ترتطمُ بضوء حروفك.

– أنا بعضُ نثارٍ من ضوء، تمتدُّ به كفُ نجمة، أو أنامل قنديل، لامسَ زاوية من زوايا روحي، فأضاءت عتمتها.

– أقفُ صامتة بين يدي حروفكَ، أرشفُ جمالها، ولا أرتوي، أحاولُ أنْ أحلّق بها وفيها، وأعجز عن التّعبير عمّا أريد!

– بعد كلّ الذي اتّسعت به روحكِ من مدى، تعجزين عمّا تريدين الإفصاح عنه؟

– كلّما توغلتُ في معرفتكَ أكثر، صرتُ أكثر خشيةً من فقدك، وكلّما قرأتكَ أكثر، صرتُ على حافة قلق، ألاّ أصل إليك «دقيقة عبارتي فلا تصححها»

– حين تمتلكُ الكلمات سحر الرّوح من الخطل الكبير أنْ نقوم بتصحيحها، لأنّ للجمال سطوته الّتي لا تدانى.

***

كأنّي استعضت بوجوده عن كلّ شيء، حتّى امتلأتُ بأحاسيس غريبة عني، صرت أهذي بما أسميته عشقاً، حتّى أنّي صرت أتساءل عمّا إذا كنت قد أيقنت بوجوده كحقيقة لا تقبل الجدل، ولا تحتمل الغياب

والفقـد! أيعقـل أن يكون وجوده فوق قانون الاحتمالات؟ تملؤني رغبة في البوح لشـخص ما، هل أكتب لغفران؟ فتحت البريد لأجد رسـالتين إحداهمـا منهـا! والأخرى منه.. ارتعشـت أصابعي وأنا أحاول السـيطرة على نبضي الهارب من جسـدي، والتشـبث بهدوء كاذب، جعلني أفتح رسالتها أولاً!.. وقرأت حروفها بلهفة.

«بعيـدةٌ تلـكَ المسـافةُ بينـي .. وبيني، وعميقةٌ أغـوارُ الأكفّ حينَ تخترقها أصابعه!

أيّ احتضاراتٍ نعيشها ونحنُ في حالةِ التحامٍ مروعة؟

وأيّ أفـكار تتلبّسـنا لحظـة ولوجنـا عتبـةَ الفرح، لتلجـمَ خطواتنا، وترجم أحلامنا بألف سؤال ..؟

تشبهُ الفرح تلكَ الأمسيات.. لكنّها رماديّة اللون ..

وتصرُّ فيروز على احتجازي قريباً من نافذتك..

أنـا خوفـي أبقـى حبـك بالأيام اللي جاية، واتهرّب من نسـيانك ما اتطلّـع بمرايـة / حبسـي أنت، أنت حبسـي/ وحريتي أنـت.. وأنت اللي بكرهه، واللي بحبه أنت[7]!

مساؤك فرح»

عزيزتي هاجر

هـل تعلميـن؟ حيـن فتحـت بريـدي، وقـرأتُ رسـالتك، شـعرت بالسّرور. ربّما لأنّي انتظرت رسالتك.. هي الحاجة إلى صداقة استثنائية لا تتكرّر، ولا تفرغ من محتواها. صداقة تشبه قهوة نرتشفها على مهل، ونحيي عبرها تاريخ الذاكرة بكلّ تفاصيل المرّة الأولى، والوردة الأولى والدّمعة الأولى..

(7) جوزف حرب/ زياد الرحباني

صباحـاً، اسـتيقظت علـى هـزة أرضيـة، وكلام النّـاس عـن الحرّ، والضغـط اليومـي، والعبـارات الّتـي يقولونهـا دوما للشـعور بأقلّ وحدة ممكنة. قد نقول الكلام نفسـه بطريقة أخرى، بإحسـاسٍ آخر أكثر عزلة عن الآخرين، حين فجأة نكتشف خارطة الوحدة فينا، وإزاء الآخرين.

صباحاً، خرجت من البيت مع شقيقتي. كنتُ بحاجة إلى التحجج بأشـياء تبعدني عن إحساسـي الرهيب بالوحدة. هل لنا أن نفسّـر ماهية الوحـدة، حيـن فجأة تنتصب قبالتنا؟ فجأة... حين أفرح أجهش بالبكاء، وحيـن أحـزن، أبتلـع لسـاني وأصمـت.! كمن يكتشـف أنّه أضـاع لغته الأصليـة، ومدينـة كان يعتقـد أنّـه وجدهـا أخيـراً. مـع شـقيقتي، متأبطة ذراعها، كنت أمشي. كانت هي تتكلّم، وكنت صامتة. أنظر إلى الأشياء كأنّي لا أعرفها، كأنّها لا تعرفني.. أنا سـيّدة المسـافة، بين حلم وحلم يولد التّساؤل، وتعجز الفرحة عن تكرار نفسها، حين نحتاج إلى تكرارها ولو خطأ!

وها رسالتك أمامي.. حين أجلس هكذا، لكتابة رسالة طيبة، يخيّل إليّ أنّني كتبتها قبل ألف عام، لعينين أعرفهما من قبل. هذا الإحسـاس الأجمـل الـذي فـي قمة فوضـاي، وفراغي وأحزاني الصغيـرة والكبيرة، أجدني أستعذبه، ربّما لأنّ الفكرة أحياناً تفجّرها مجرد رسالة أو كلمة، أو... تلويحة عن بعد.

وها أنا أجلس قبالتك. أجذب المقعد، وأجلس إلى جانبك، يسرّني أن أرتشف قهوتي الصباحية على ما ستقولينه لي. على ما سأسمعه منك. وعلى ما سـنقوله، كيتيمتين بحاجة إلى أن تكون إحداهما أبا للأخرى، أو أمًّا لها..

أحبُّ أن تكلميني عنك أكثر وأكثر وأكثر، عن الإنسانة، عن المدينة التي ولدت فيها، والأسرة التي ترعرعت فيها. عن حزنك الإنساني الذي

أعرف أنّه يشبه حزني. عن ذلك الإحساس باليتم الذي نشعر به جميعنا ونتوق إلى كسره بصدق أكثر، وباللقاء كما الآن، مع أشخاص نعرف أنّنا التقينا بهم قبل ألف عام..

أنا، تزوجت منذ فترة.. أعيش حياتي الزوجية كمن يكتشف قارة جديدة... أشعر بتعب غريب بين الكتابة والترجمة، والبحث عن غفران ضاعت مني منذ ألف عام. هي معضلة تبدأ بـ يحكى أنّ وتنتهي إلى... انتظار مزمن. لكنّ رسالتك سرّتني، وسرّني أنّك بخير. أتمنّاك دوماً الصديقة الرّائعة الدّافئة الّتي أحبُّ سؤالها عني وإخلاصها الرّاقي، وخوفها عليّ. أحياناً أشعر أنّك تلقين عليّ القبض، لتعيدينني إلى فضاء يشبه توقنا التّاريخي إلى شمس مدهشة.. فلا تتركيني أبتعد. لا تتركيني أضيع منك أبداً.

كوني بخير.. منتظرة أن تحكي لي وأسمع منك..

غفران

.....

...كنت أخشى أن تصدمني حروفه، فقلبي لم يعد يتحمّل المزيد من الذبحات.. لذا مرّت نظراتي بسرعة على الحروف لأمتص أيّ احتمال لكارثة يستشعرها قلبي، وكأنّها حقيقة! ثمّ أعدت القراءة بحواسي كلّها..

تبهجين مسائي بفتنتك، فأتأمل صورتك المرسلة عبر النافذة، وتفتقدني الكلمات. تحضرين كقمر، فتنكسف النّجوم، تقولين «ألا تتعب من الجلوس كلّ هذا الوقت أمام شاشة الكمبيوتر؟» كنتُ أتحدّث معك من دون صورة، ولا أتحرّك، فكيف أفعل وأنتِ مشرقةٌ بكلّ هذا الجمال؟ «سحرٌ بعينيك إن قال وإن سكتا/ بهما قتلتِني وما عرفت متى؟» تنبت الكلمات بين يديك سنابل قمح، ويزهر النّدى ورداً. صرت أغبط

الكرز لأنّه يشبه شفتيك، كأنّ عنقك أيقونة سومرية، وخديك أوراقي البيض، أكتب فيهما أسفار عشقي بشفتين أحرقهما الوجد. تجرحين النّسيم بابتسامتك الساحرة، ويتوضأ الفجر بضوء جبينك! متوجةٌ بعتمة شعرك، وكأنّك دعد! تقصّرين المسافات، فتحيلينها من زمنيتها إلى ضوئيتها، فأشعر أنّي محمول إليك بكِ. في أناملكِ يضحك ربيع غض، يشتعل ببياض الزنبق والياسمين. تسيرين نحو النّجوم بضوئك، فألمّ ما تناثر منكِ حين تلامسني ثرياتك لأضيء بعضي! أشمُّ زهرةً فتضوع منكِ عطراً. أرى خطوط يديك، فأستدلُّ على متاهتي في راحتيك، بعد أن استدللتُ بكِ عليك. من أيّ سماوات نزلت عشتار إلى عالمي هذا، ولم تترفق بمخلوق أرضي؟ الآن عرفتُ سر بياض الياسمين. لا بدّ أنّكِ مررت فوق جذوره يوماً، فاستمدّ من بشرتك البياض، ومن لمستك تجسّد زهراً! لست أراكِ، إنّما أتحسسكِ، فتقوم رؤيتي فتنة في الكلمات!

كوني بالقرب، كي يزهر الكون ياسميناً.

حسن..

...

لم أتردد هذه المرّة في الردّ على رسالته مباشرة.. كتبتُ له:

مساؤك طيب ونَد وعنبر.

صديقي..

كلّما اقترب الفجر، ولسعتني النّسمات الباردة، اشتدّ شوق الياسمين للضوء، وتضوّع الفل بكلِّ ألقه في عروقي..

ها أنا أراك هناك، جالساً على حافة نجمة، تجذبني من طرف وشاحي، فأحلّق بجناحي نورس نسيهما عند الجسر مفرودين، ودخل الحلم!

مازلت أسابق النّسيم البارد، لأرتاح على وجنتيك، أمسّ بأنامل الشوق راحتيك، وأترك على جبينك قبلة النّدى...

أجدني قريباً من نافذتك، فيجفل القلب، وتتردد الخطى.

يا لقلبي، كيف تحوّل من زماني إلى دهري في ثوان، وكيف تشكّل بهيئة نرجسة تفتّحت في غفلةٍ من الشتاء على حافة نبع مهجور؟

يا لقلبي، أصبح وردةً من ضوء، نامت على خدك مع تسلّل أوّل أشعة للشّمس من نافذتك البعيدة.

فهل تراك ستلمح في المرآة توهجه؟ وهل ستحس أناملك ـ وهي تمسح بماء الكلونيا ذقنك ـ أنّ روحي هي الّتي منحت بشرتك نعومتها، وطيبها؟

***

هل سقط شيء في القلب، وأنا أحدّق بحروفكَ الخضراء المنهمرة مطراً في نافذة المحادثة؟ «مساؤكِ ورد... مازال جبين الليل يتوضأ بابتسامة فجر، يصحو عند نافذةٍ تزينين فضاءها بالياسمين. كوني كنجمة السّماء تقترب بضوئها، كلّما تكاثفت جيوش العتمة. مثلك لا يليق بها الغياب، فعسى أن تكوني بخير».

اللحظة الّتي انهمر فيها مطركَ، صفعتْ نافذتي ريحٌ عنيفة، تغلغلت عميقاً في الرّوح، فارتجف جسدي منذراً بهزيمة ثالثة. لم أسأل نفسي عن التّوقيت الخاطئ للعاصفة، مع أنّه السّؤال الأهم، الذي لا يعنيني أن أجيب عنه، فثمّة أسئلة معنية بتحديد نهايات مفجعة، لأحلام يفاجئنا حضورها، في الوقت الذي نكون قد أغلقنا فيه نوافذ الأمنيات المستحيلة!. لماذا عليّ أن أحتمل ارتعاش القلب المفاجئ لوقع كلماتك المربكة؟ لمَ لا أستطيع ضبط انفعالي والنّظر إلى رسالتك على أنّها قصيدة انفلتت من عقال مشاعر آنية فرضتها

لحظـة الكتابـة؟ لكنّـك تعنينـي بـكلّ كلمة وكلّ حرف، فكيف سـأغلقُ أبوابَ القلب دونك؟ ألم تقل لي إنّ الحياة لديك سلسلة من تأجيلات مؤقتة، وإنّي أعطيك انطباعاً قوياً من القوة والاتّزان، بحيث إذا أسررتَ إليّ، واعترفت بنقاط ضعفك كلّها، تشعر بأنّك أقوى؟. ها أنت تنسف المسـافات، وتعبر الجسـور، ثمّ فجأة تقيم المتاريس في وجه كلماتي، وتتـرك الحيـرة تنهشـني، فـلا أسـتطيع تحديد ما تريد! مـع هذا لم أعد أستطيع إغلاق نافذتي في وجهك، أدمنتُ حضورك اليومي، وصار من أولويات حياتي أن أحاورك، وأسـتمع لنبض كلماتك في قلبي. تدخل من دون استئذان، تبادرني بمساء لا يشبه سواك.

– مساؤك عطر.

– ومسـاؤك. اسـمع معـي فيـروز «حبيـبٌ تمـادى فـي الصدود كأنّـه/ غريبٌ يبادلني السّـلام تكلّفا/ أسـائله لطفاً، فيـزداد منعةً، ويغرب من وجهي نَفُوراً معنفا/ لكنّه حالاً يعود ببسـمة، فأنسـى بها كلَّ الذي مرّ آنفا/ .

– هذا لأنّها تقول: «فبعثنا النسمات تغريه بشهي الوعد[8]» أليس كذلك؟.

– على الرغم من أنّك أضحكتني، إلاّ أنّ البيت يصلح موضوع لوحة، تعرف كم يطلق هذا البيت المخيلة.

– لا تسـتطيع لوحـة أن تعبّـر عن بيت شـعر. قـال بارمنيدس: «الشعر رسم ناطق، والرسم شعر أخرس».

– دائماً تتحيز للكلمة، لكنّ الفنانين الصينيين، كانوا يستخدمون ما يرونه، ليرسموا مالا يرونه، وهذا يمنح اللوحة أفقاً آخر، يحتاج لقراءة

(8) زكي ناصيف

مختلفة، كي تدخل عالمها. وذلك أصعب من فهم قصيدة.

– أحبكِ وأنتِ تدافعين عن نفسك بهذا الحماس، ولكن... املئي الفراغ!

– ما سقط في الفراغ تدركه الروح. لكنّي على يقين أنّنا نستطيع تجاوز كلّ شيء، مادمنا نرغب في ذلك.

– رغباتنا وحدها لا تصنع أقدارنا، كما لا تصنعها إرادة السّماء وحدها، هناك علاقات مريبة بين الطرفين، تتضافر لتصنع قدرنا! أخشى أنّكِ اتّخذتِ قراراً خاطئاً.

– ربّما، اتّخذت القرار الخاطئ مرتين قبل الآن.

– أشعر بالضيق من تذكرك للأمر.

– الرجال الغيورون والمتكبرون أكثر خوفاً في داخلهم، فلديهم الكثير ليخسرونه!.

– ليس هذا، بل أنا أفكّر بما مرّ من العمر. أنا أحسده على الزمن، الأيام التي عاشها معكِ بتفاصيلها ونمنماتها، المشاعر والأحاسيس التي منحتِه إياها، ملامسته لك، كلامه، كم من الأشياء التي تقف حاجزاً بيني وبينك، ويملكها هو!

– وهل عاش معي حقّاً؟ لا أظنّ أنّ المسألة تقاس بالزمن ذاك والتّفاصيل تلك، بل بما منحتُه أنا من روحي التي كنتَ تسكنها.

– وكيف؟ ونحن لم نلتقِ إلاّ من مدّة بسيطة؟

– كيف؟ ألم تقل لي «إنّ القلوبَ لأجنادٌ مجندة / لله في الأرض بالأهواء تعترف/ فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ/ وما تنافر فهو مختلف[9]» ولولا قناعتي بحبكَ ما استطعت الاستمرار في الحياة. لا

(9) أبو نؤاس

تـدرك مـدى القـوة الرّوحية الّتي منحني إياها ذاك الإحسـاس، حتّى أنّي عشقت انتظاري لك، لم يفاجئني ظهورك، بل امتلكت اليقين أنّك جئت في التّوقيت المناسب.

يا للسماء! هاهي النافذة تغرق في العتمة، لا قمر، ولا نجمة! أهي الكهرباء ثانية؟

***

مـا أجمـل الليـل! حيـن يكون متنفسـاً لفتنتك، ومـا أجملَ الفجر، حين يكون نبضاً لروحك، وما أجمل الصّبح حين تملأ العصافيرُ أرجاءه بزقزقة الشّـكر لأناملكَ الّتي تنثرُ الحَب، والحُبّ والدّفء، وعطرَ الورد في زوايا روحي. ما أجمل أن تقف يومياً عند الجسر، لتصافح النوارس، وتعـدّ أصابعـك بعـد ذلك! هل ما زالتْ بعدد أنجم الله في سـماواتها؟ عندمـا غسـل النّـدى وجه الصّبـاح، وهجمت «جحافـل» العصافير على نافذتـي، كنـت أختنـق بعبيـر نبضك. هـذا الصّباح كان له طعـم الحياة! اشـتهاك الليـل قبـل أن يطلـع الصبـاح، وغمرني بـدفء الكلمات، كنتَ موجـوداً فـي نبضهـا، نقشـتك علـى رُقُم القلـب، كتبتك، ولـم أمحُ، ثمّ كتبتك، وتركت لهذياني أن يحلّق في آفاق الجنون. لم أقل: ليته معي. لأنّكَ كنت!

فـي العـادة أصل قبلك، وأنتظـر... نتماهى أنا وروحي، نحاول أن نبقى في مسـافة الحلم، لكنّي اليوم وجدتك، أنتَ والنوارس، تتسـابقان في التّحليق!.

– أحلّق مع نوارس النّهر، كلّ يوم أتوقف لمشاهدتها، وأنا أعبر الجسر إلى بغداد.

– قريباً من الماء؟ أم عالياً في السّماء؟

– من يسمُ لا ينحدر سيدتي.

– وسيدتك هذه الّتي تخاطبها نورس حائر بين زرقتين؟

– أؤمن أنّ ثمّة نوارس تخلق فضاءاتها، أنت تحلّقين دائماً، لابدَّ للتحليق من عمقٍ أساساً، أيّ أنّك محلّقة قبل معرفتي.

– أحس بنبضكَ قريباً.

– لأنّه نبض القصيدة.

– أأقرؤها؟

– ما من قصيدة كتبت إلاّ لتقرأ؟ الاختلاف فقط في طريقة وفهم القراءة.

– أنا لا أقرأ الحروف، ولا أقرأ بعينيّ.

– مع أنّ الحروف بوابات للدّخول، إلاّ أنّ القراءة أَولى أن تكون بشكل مغاير للحروف.

– غلبني الشّاعر، يكفيه إشعاله القلب بالنّبض، والرّوح بالوجد، والمخيلة بالكلمة، ويكفيه أنّ روحي تعلّقت بكلّ ما يقول!

– إذن هو لم يغلبكِ إنّما أنتِ من يغلبه! فمن يملكُ كلَّ هذا الذي قلتهِ لابدَّ أن يكون سابقاً لا مسبوقاً.

– تعال نتفق أنّه لا غالب بيننا ولا مغلوب .

– لاحظي أنّي قلت سابق ومسبوق، ولم أقل غالب ومغلوب، لأنّ السّبق فيه روح المباراة بينما الغلب فيه روح القهر.

–....

–.....

– هل ترى كيف صمتنا؟

– إنّه ضجيج صاخب كما قلت لكِ.

– لا أريدك أنْ تركن إلى الضجيج والصّخب، مع هذا لا أحبّ

أنْ أثرثر أثناء صمتك!

– حيـن يكـون الـكلام ذا معنـى دال، يخرج عن دائرة الثرثرة، ولكلامك معنى وغاية.

***

ها قد عدت إلى بيروت.

سـمكةٌ كنعانيـةٌ، أنتظـر المراكـب التي لا تأتي أبداً، أشـعل لأجلها الشـموع، وأرسـل عبر الماء رسـائلي، كاشـفة سـوءة القلب، وارتعاش الرّوح، لريح تحمل في طيّاتها نزفها، أنثر التّراب على زبد البحر، لكنّ غضبـة المـوج، تمحـو ملامحه عن جبين الماء المشـتعل بقيظ الظهيرة. أعود لأحثو التّراب على وجه الماء، علّي أرى ملامحه، أو أستبين خفقة روحه الغائبة، لكنّي لا أرى إلاّ القوارب المتشـحة بالسّـواد، ترسـو عند خطّ الأفق، رافعة أشرعة الحداد، فيهذي المدى من الفقد، ناسجاً أكفاناً أخرى من الزبد لتراب رفض الماء أن يمتزج بروحه ليتشكّل طيناً!. مع هذا مازلت أنتظر أن يخرج إليّ من ثنايا الماء، مرتدياً ابتسـامته الدّافئة، ساكباً أنفاسه في جسدي. لكن هيهات، لا السفن تطلع من أفق المخيلة بخبر يهزّني، والشواطئ لا تني تترنّح تحت وطأة المدّ... وروحي تدمن عالماً افتراضياً، تصنعه الكلمات. أزيّن نافذتي بالزهور الافتراضية، أصابع تحتضن الياسـمين، وتنثره في أفق أزرق، جوري يلامس خدَّ الشّـروق، ونرجس يسبح مع السوسن في ماء الرغبة!

– لا أعرف أيُّهما أجمل الزهرة أم أصابعك؟

– روحك الأجمل.

– ولكنّي تيقنت أنّ الزهرة بعضُ جمال أصابعك!

– أشعر بالبرد.

– هل الجوّ بارد عندك؟

– نعم. أطرافي مثلجة، بس قلبي نار، أنا بطبيعتي أعاني من البرد حين أكتب.

– أولى بقلبك أن تستعر ناره، ويكثر أواره.

– هو برد وحي الكتابة!

– ربّما وحي الشّعر غير وحي الكتابة، فهو لا يُبَرّد، أو كما قال رؤبة بن العجاج:

جئت وكلّ شاعر شيطانه/ أنثى وشيطاني ذكر!

– خلص، سلّمت أسلحتي كلّها، لا قدرة لي على مناقشتك.

– المحارب لا يسلّم سلاحه، وإن كان يستريح ليرمم جراحه.

– تضحك؟

– ولمَ لا أضحك؟ اضحكي أنت أيضاً.

– أتلوّن بالضحك أحياناً، كي لا يتعرّى القلب أمام الآخرين.

– الضحك تعبيرٌ عن عجز الرّوح في الكلام، أو هو مسايرة لها، يمنح المادّة حيوية أكبر، ويمنح النّفس إحساساً بالغبطة، وحيث أنّ الجسم ـ وهو مادّة ـ فقد يصل الأمر به حدّ شفاء بعض أمراضه من خلال انعكاسه في قوة الرّوح.

– لا أظنّك تريد أن تقهرني؟

– نعم، لأنّي لا أحبُّ أن أقهر الورد!

– أنت هكذا دائماً تستفزني، ثمّ ترضيني بكلمة، وأنا لا يرضيني سوى الورد والكلمات!

– ما أيسر، وما أصعب ما يرضيك إذن؟

– ستقطف لي ياسمينة حين نلتقي، ولو من سور حديقة، لن أرضى بأقلَّ من ذلك.

– بل من سور الرّوح أقطفها، لكي يبتهج فيها المعنى، لم يتعوّد المحارب أن يكون أعزل من الورد بعد أن ألقى سلاحه، فما أجمل أنْ يُستبدل السّلاح بالورد، بل الأصح أنْ يُستبدل الورد بالسّلاح.

– لماذا؟

– لاشيء سوى التّركيب اللغوي، لأنّ المتروك يلحق بالباء.

– آتيك محمّلة بروح الورد. وتبهجني تلك الوردة الّتي أتيت بها خصيصاً لي.

– ومتى لم يكن الورد للورد؟

– منذ الأزل الورد للورد، سـأحضنها قريباً من قلبي، سأشـمُّها بعمق، وأنتشي بها.

سأهديكِ ما عشتُ
زهرا..
إلى أن أجاوز في الحدّ
حدّا..
وأثقل قلباً لديك
معنّى..
فأنتِ أرقُّ منَ الزّهر
طبعاً وأندى..
فلستُ أخافُ عليكِ..
من الورد شوكاً..
ولكنْ..
أخاف من الوردِ

يجرحُ.. وردا..![10]

***

نهضت من النوم مبللة بالدهشة، وكأنّ الماء مازال يسيل من أصابعي، وقدماي رطبتان، وكأنّهما لم تغادرا دجلة بعد! رأيتني على ضفته أصيل يوم صيفي حار.. أغمس قدميّ بمائه، وأملأ راحتي لأشرب! فجأة سمعت صوتاً من عمق الماء يخاطبني.. للوهلة الأولى جفلت، وسحبت قدميّ بسرعة الخوف والحذر اللذان وخزاني في القلب.. ثمّ هدأت حين وعيت النبرة الهادئة للموج، التي حدّثتني بكلمات عميقة، تردد صداها في روحي.. كان يحكي لي عن بغداد.. عن الحسن.. عني.. وعن هؤلاء البشر الذين مرّوا من هنا، ولم يتركوا وراءهم سوى الدمار! استيقظت وفكرة واحدة تسيطر عليّ، سأكتب ما قاله.. فتحت ملفاً، وكتبت (هل كنتُ مرتبكاً إلى درجة لم أعرف التّوقيت الصحيح لبداية القصف؟ ما أنا على يقين منه أنّ ذكرى المجازر لم تفارقني، مع أنّي لم أعد أهتم بملامح هؤلاء الذين ينسفون كلّ شيء يصادفونه، فقط لأنّهم يرون في الجمال عدواً أزلياً لحواسهم المبرمجة على القتل!)

وتوقفت أصابعي فجأة على لوحة المفاتيح.. لم أعد أذكر شيئاً من حديثنا.. تحوّلت ذاكرتي إلى شاشة بيضاء تماماً، نهضتُ لأصنع فنجان قهوة يعيد إليّ نشاط ذاكرتي، وعلى الرغم من ارتباكي نجحت للمرّة الأولى في المحافظة على موقد الغاز نظيفاً، وشربتُ القهوة وهي ساخنة! مع هذا لم أفلح في تذكّر ما رأيته في الحلم، ولم أتذكّر ما رواه لي دجلة!. لكنّ الفكرة تبلورت فجأة في ذهني، لماذا لا نتشارك ثلاثتنا في كتابة الرواية؟ أنا والحسن وغفران، لنتحدّث كلٌ من موقعه عمّا يجري في بلاده.. لماذا لا يكتب الحسن هذا الجزء الخاص ببغداد؟

---

(10)

وتكتب غفران جزءاً يخص الجزائر وهي تعيش وسط الزلازل، زلازل الإرهاب المستمر والتسلط بجميع أطيافه! كأنّي كنت على يقين من موافقة الطرفين، فقد تحدّثنا قبل الآن بشأن نص مشترك.. فتحت بريدي لأجد رسالة منها تقول:

«يقولون في ساعة الفراق، ما لم تنطق به ألسنتهم على مدى سنواتٍ من العشق والانصهار!..

دائماً يحكمنا رُعب الرحيل، ونخافُ من ألمِ ابتعادِهم، أكثر من خوفنا عليهم وهم معنا، فنحاولُ التمسّكَ بأطراف أصابعهم، وتذكيرهم بكلِّ مامرّ بيننا من أيامٍ وذكرياتٍ وتفاصيل، جعلت كلاً منا بعضاً من الآخر ..هي اللحظاتُ الحنونة، حينَ تمرّ على حافةِ هاويةِ الأطلال، وترسُمُ ملامحَ من سراب، تتوارى خلفَ قسوةِ يوميات تطحنُ الروح بانتظار .. أمل..

وتبكيني أم كلثوم..

يافؤادي لاتسَل أينَ الهوى.. كان صرحاً من خيالٍ فهوى

أيامك أمل» ..

صديقتي...

الصمت يقبض بأصابعه الشرسة على حنجرتي، ويخنقني...

ماذا لو صرختُ طالبة النجدة؟ هل سيصل صوتي إليكِ عبر هذا الفضاء الافتراضي، ناسفاً المسافات والأزمنة، لتمدي يدك إليّ ـ كما دائماً ـ وتنتشلين بقاياي من الغرق؟

لم أتردد يوماً في اتّخاذ قرار يخص حياتي، كما أنا اليوم. فقد انهار البناء فجأة، وغمرني بالتّراب! ووفّر عليّ مشقة البحث عن قبر، ونهاية ملائمة لعمارة قامت على أنقاض بناء منهار، هل يمكن لبيت أن يصمد

أمام الطوفان من دون أساسات تقام على أرض صلبة؟

لم أسأله شيئاً، اكتفيت برفع رأسي لأشاهد هيئته الصامتة، وكان عليّ فقط أن أقاوم رغبتي في فتح حوار أو طرح سؤال عمّا جرى. ظننت أنّي امرأة قابلة للفرح، حين ارتبطت به، لم أعِ أنّ تاريخ الحزن والخيبة المتأصلين في جذوري، لا يمكن أن يُلغيا بقرار، أو رغبة عابرة في الاستقرار. تعاقبني الأيام على نسياني بصحو دائم، ترتعد ذاكرتي منه نافضة بردها في دمي، مصرة أن تبقيني على حافة الهاوية، يمنعني الخوف من القفز داخلها، ويردعني الحذر عن التراجع إلى الخلف! سوياً نجلس على الكنبة نفسها مقابل التلفاز، نجلس بين خيارين، أن نلج بوابة الرعب، متسمرين أمام المشاهد المكررة للعنف، القتل، الانفجارات، الأشلاء، لتغمرنا الدّماء! أو أن نجمد أمام مشاهد خلاعية لقنوات لا يهمها سوى عرض سلع اللحم! في كلا الخيارين اللحم معرّض للانتهاك!

أتمنّى أن يقول أيّ شيء يخرجنا من حالة الجمود تلك، أتفاءل حين تصطدم أصابعنا وهي تتناول حبّات الذرة من الصحن المهمل على الطاولة أمامنا، إلاّ أنّني سرعان ما أحصد السراب.

أقلّب القنوات بآلية، بحثاً عن زمن جميل في فيلم بالأسود والأبيض! علّه يمدُّ بيننا جسراً من مشاعر ضائعة. يخطفه مني ليبحث عن خبر عاجل في قناة الجزيرة! هل أصبحت إحدى هواياتنا أن نعدّ القتلى في العراق؟ ثمّ نحصي العدد في غزة، لنعرّج على أفغانستان، ولا نكتفي بتلك الوجبة من الأشلاء التي نحتار كيف سندفنها في ذاكرتنا التي ضاقت بالقبور، فنعود لنكمل جولتنا بمشاهدة الاتّجاه المعاكس!

وحين يشعر بالتخمة من وجبة الجدل تلك، ننهض لننام بآلية رجل منوم مغناطيسياً وامرأة تسير في الحلم. لماذا علينا أن نعيش ذاكرة أجداد

لم يخلّفوا لنا سوى تفاصيل زمان ومكان مليئة بالانكسارات، تجسدت في راهن محبط! لماذا نحمل إلى غرفة نومنا كلّ ذلك الإرث من الخيبات؟ لنَعُدَّ أحلامنا المرتقبة كنوع من هدهدة، تحثنا على السقوط سريعاً في هاوية النوم! لكن هل العدّ الصحيح تكفيه ساعات قليلة؟ ينبلج بعدها الصبح، ليخبرنا أنّ الوقت حان للنهوض إلى العمل!

هيا ابتسمي، مضطرة لمطالبتك دائماً بالأمل مصحوباً بابتسامة، فالابتسام ـ كما يقولون ـ يشفي الروح من أوجاعها!

ابقي بخير صديقتي.

غفران..

...

كتبت لها مباشرة «اظهري على الماسنجر هذا المساء، أريد الحديث معك في أمر مهم».

وشاية الورد

كان يقيني في مكانه، اعتمدنا ساعة معينة كلّ يوم، نلتقي فيها على نوافذنا الافتراضية، لنؤرخ لحياتنا التي تقاطعت خيوطها، وتداخلت بما حملناه لبعضنا من مشاعر دافئة. بدأ الحسن يروي وأنا أنسخ ما يقول في ملف خاص:

(في طفولتي البعيدة، أخبرتني أمُّي، وأنا أبكي لسقوط سني، بأنّ جنية الماء ستصنع منه لؤلؤة، وتترك لي تحت وسادتي نقوداً إن أنا رميته في النّهر!. حين صحوت في الصّباح، ووجدت تحت وسادتي النّقود، طرت فرحاً، لكنّي تردّدت في قبول هدية الجنية، رغبتي في الحصول على اللؤلؤة كانت أشدّ.

حلمت مرّة أنّ اللؤلؤة ابتلعتها سمكة، اصطدتها، وفتحتُ بطنها، فوجدتها لامعة، برّاقة كقوس قزح. لم أكن وقتها أعرف أنّ اللآلئ تصنعها المحارة من حبّة رمل! تكرّر الحلم مراراً، حتّى أنّني حاولتُ أن أبقى تحت الماء مدّة طويلة لأحصل عليها! فتواجهني عينا سمكة غريبة، تبسمان بإلفة، وتدعواننني لأقترب أكثر. وبشكل خاطف، ألمح شفتيها، تفترّان عن ضحكة، تسّاقط لؤلؤاً، وفي غمرة ذهولي، تختفي السمكة!. أشتهي أن أتبعها، لكنّ اختناقاً يتشبث برقبتي، دافعاً بي إلى سطح الماء. تخيّلت مرّة أنّها انزلقت من بين يديّ، وأنا أشدُّ نعمت إلى صدري، وأقبّلها، في ذلك اليوم ضاعت مني إلى الأبد. وعلى الرغم من امتلاكي قلب نورس، إلاّ أنّي كنت عاجزَ الجناحين، لم أستطع يوماً أن أطير فوق الماء، لأراقبها، وهي تسبح بحريّة، منتظراً فرصة لألتقطها بمنقاري، وأطير نحو السّماء. فكّرت مراراً بتلك الأجنحة الّتي تمنحني

الحريّـة المطلقـة في ارتياد آفـاق لن أصلها بخيالي، لكن هيهات، غواية المـاء أقـوى، نقطـة ضعفي الّتي لا أسـتطيع منها فكاكاً. اليوم، وأنا أنظر عبـر النّافـذة الافتراضيـة، أشـعر أنّني أقتـرب من تحقيق الحلـم، فها أنا أرى الأسـماك الملونـة، تقتـرب مـن شـبكة صيـاد نائـم في قاربـه، وأنا أطير بجناحي نورس، وأقترب من الشباك، أختار أشدّها لمعاناً وإغواء، ألتقطهـا بمنقـاري، أرميهـا بيـن جذوع النّخل، أُخْرِجُ سـكيني الصّغيرة ـ كمـا فـي الحلـم ـ أشـقّ جوفها، فلا أجد لؤلؤتـي المفقودة. لكنّ الخيبة لا يمكنهـا أن تُخمـد غريـزة الجوع، ألتهم سـمكتي كمـا تفعل النوارس بكبرياء، وأطير محلّقاً فوق الجسر.

كنت أعتقد أنّ السّير في الليل على شاطئ دجلة، وتأمل ليل بغداد، وأنا أعاني الوحدة، وأرى نفسي نورساً أسيراً، لا فكاك لي من قيد الماء، يعنـي استشـراء الفوضـى في أعماقي، وتتبدّى لي تلـك الحقيقة، وكأنّها يقينٌ لن أتجاوزه يوماً، لكنّي حين أبتعد مسافةً عن نفسي، وأتركها هناك عند الجسر، باحثاً عن حقيقة أعماقي وتجلياتها، أجدها في أشكالٍ غير متوقعة، مثل تصرفاتي الأخيرة مع سوسـن! كثيراً ما هربت من مواجهة نفسي بحقيقة أعماقي الّتي أسعى إلى استكشافها، وأتوقف عند اللحظة الّتـي تبهرني شمسـها السّـاطعة بقـوة حضورها. الحقيقة المحبوسـة في صـدري، حقيقـة البـرود والغلظـة واللامبـالاة بمشـاعر الآخريـن، رغم تأكيدي الدّائم لنفسي أنّي شاعر بمرتبة نبي!

هل يبيح لي كوني فناناً، أن أطلق العنان لنزواتي ومزاجي ليتحكّم بتلك الأرواح الهائمة في فضاء نافذتي؟ برّرت شـغفي ذاك، ببحثي عن امرأة تحرّك شـيطان الشّـعر لديّ، ولمَ لا أحظى بها، وأنا أسـعى لأكون شاعراً مختلفاً؟ فحبيبتي يجب أن تقع في غرام كلماتي قبل أن تقع في غرامي؟ ربّما لأنّ ذلك أسهل بالنسبة لي، فأن أكون مقنعاً بالكلمة، أسهل

من أن أكون مقنعاً بالشكل. شعرتُ ببعض الارتياح لما توصل إليه ذهني من خطط، موّهت نواياي المؤجلة. فها أنا على مشارف اللحظة الفاصلة بين العتمة والضوء، سأكتب سِفري الأجمل، وأحلّق بجناحي مجدي في أفق لا حدّ لاتّساعه! ولن يطول بي الأمر حتّى أتجاوز أدونيس بمراحل، ربّما لأنّي أكتب ذاتي، وأفرغ عليها مني، أحبّها، وأرتبط معها بحبل سري! باختصار أنا من تكتبني القصيدة! ضمنياً، أعتبر نفسي أفضل من أدونيس، لكنّي ولأجل أن أبدو متواضعاً في عيون معارفي، أهز رأسي بأناة، وأنا أقيّم شعر أدونيس، مبدياً بعض التّسامح في إظهاره أعلى مرتبة مني، وإن كان مرجل الغيظ الكامن في أعماقي، يفور بانتظار لحظة انفلاتي من صحبة أصدقائي، لأتوارى في عتمة الشارع، متوجهاً صوب الجسر، لأصرخ بأعلى صوتي: «أيّتها النوارس، اتبعيني، سأقودك يوماً إلى الضوء». وعلى ضوء الفوانيس الشاحبة عند الجسر، أنحرف يسار الطريق، لأغيب في الشارع الفرعي.)

عند هذا الحدّ لم أستطع البقاء صامتة قاطعته بقولي:

- مَنْ سوسن؟

- امرأة مرّت في حياتي.

- لا أشكّ أنّها امرأة! لكنّي أردت توصيفاً أدق.

- والله أنتِ اخترعت قصة الرواية لتتجسسي على أسراري. على أيّ حال، اتركيني اليوم أتحدّث عمّا يخطر في بالي من دون توجيه منك.

- حسناً، تفضل.

(بعد أن أنفضُ بعض القلق عن جسدي بوقوفي تحت الدش. ينتعش جسدي من مضاجعة الماء البارد، وتنطلق روحي من عقالها،

وتهيم عبر الفضاء الافتراضي، هرباً من الملل، والنزعة المادية المبتذلة، الصراع الطائفي، الصراع السياسي، والحرب بكلّ أشكالها، أبحث عن وجه امرأة من ماء وضوء. أفتح بريدي، تواجهني كلماتها الحادة في الصفحة المفتوحة لريح ارتياب غامض. أضغط بعصبية على الفأرة، وأمسح ما كتبته. ليس من عادتي أن أحذف أيّ رسالة تصلني، بل أنا حريص على الاحتفاظ بكلّ تلك العلاقات الحارّة على شكل كلمات، وأباهي نفسي بالكم الهائل من المحادثات في ملفاتي، وبين حين وآخر يحلو لي مقارنة تلك الأجوبة ببعضها، لاعتقادي أنّ الكلمات دليلٌ دامغٌ على شخصية كلِّ واحدة. السّؤال نفسه أكرّره، وتنهمر الأجوبة كقوس قزح، فأشعر بالبلبل والدّهشة! بقيت مؤرقاً لأيام بعد حذفي رسالتها في فورة غضبي، كنت أتوقع أن أجدها تذوب كعادتها بين الكلمات، وتتلاشى كقطعة سكر في فنجان الشاي الصباحي، لكنّي رأيت امرأة تنتفض غضباً لشيء لا أفهمه، تتلوّن بالغيرة والشكّ، وتحاصرني بمزيد من الرغبة في تقييد حركتي. وتذكيرها لي بما يحدث على أرض الوطن من مجازر وانتهاكات!

على الرغم من تاريخي الطويل في معاشرة الأخبار المفجعة، والسّيئة، إلاّ أنّي لا أحبُّها، لأنّي أظنُّ أنّ قسوتي على نفسي كافية لكي لا أتحمّل مساعدة الآخرين في تقديم وجبة من الألم! وهذه سفسطة ألجأ إليها لأصم أذنيّ عن النّقد. دائماً أترك مسافة بيني وبين الأشياء بضبط عواطفي. لجأت إليها حين عبّرت سوسن عن رأيها فيّ كعاشق، ورجل لا يتحمّل مسؤولية كلمة قالها. أنا أكره مظاهر العنف والهيجان والثورة والآراء الصريحة، والحقيقة العارية في البيت! تركتها تعبّر عن غضبها، ووجهي يحتفظ بملامحه الحيادية، ساعتها كان عليّ أن أنسحب، لأنّ الحبّ، بدأ ينطفئ، ويتلاشى، لكنّي لم أفصح عمّا بداخلي.

هل تظنُّ نفسها قد امتلكتني بجسدها؟ من تكون هي؟ بجرة فأرة يمكنني مسحها تماماً من حياتي، فقد أصبح وجودها يزعجني. هل ندمت لأنّي تزوجتها؟ لكنّ زواجي بها كان مشروطاً، صحيح أنّي وعدتها بعودة قريبة إلى دمشق، لنعيد أيام النشوة التي عشناها في إجازتي السابقة، لكن هذا لا يعني استمرار زواجنا! تراها لم تفهم بنود العقد؟ أم أنّها تعلّقت بي بشكل جدي كزوج تطمح لإكمال حياتها معه؟ النساء يحببن التملك بالإضافة لكونهن نرجسيات، وهذا أكثر ما أكرهه في المرأة، أن تعكّر حياتي بنواحها وحزنها وشكواها. لا أنكر أنّي في بداية تعارفنا مددت جسراً من الكلمات المشجعة إلى قلبها، كي أعينها على اتّخاذ قرارها بالانفصال عن زوج أهانها بزواجه من صديقتها، وبتحقيرها لأنّها لم تنجب له أطفالاً. لكنّ ذلك كان منزّهاً عن أيّ غاية شخصية، بل أردته لأجلها، لأجل سلامها النفسي، ومصالحتها مع ذاتها، وقد اعترفت هي بذلك، وقبلت بَوحي ونبوءتي كأمر واقع لا فرار منه. وهاهي الآن تريد تحميلي مسؤولية قلقها واحتراقها ووحدتها، وكلّ آلامها، وتهدد بالانتحار! كم هنّ النساء غبيات، ولا يصلحن لتحمّل نتيجة تصرفاتهن! هل تريدني أن أتحمّل فجيعة قتلها لنفسها؟ لن أفعل...

الطعنة الحقيقية تلقّيتها من حنين. كانت تتجاوز كلماتي، ولا تقول رأيها؟ لماذا توافق على أقوالي بكلمات مبتسرة من دون أن تفصح عن الحقيقة؟ كأنّنا متشابهان! كثيراً ما رفضت هذه الفكرة، أن يشبهني أحدٌ ما، لكنّها تفعل. أنا على يقين أنّني ما أزال لغزاً بالنسبة لنفسي، فكيف سأكون بالنّسبة للآخرين؟ مع هذا أرفض معاملة الآخرين على أنّهم غامضون، لاعتقادي أنّني أعرف كلّ شيء عن محدّثي. أمّا فشلي في الحبّ، فلأنّي لم ألتقِ بالمرأة المناسبة طيلة حياتي، وما زال بحثي عنها قائماً. ومادمت لم أجدها طيلة تلك السّنوات في الحيز المكاني الذي

أعيش فيه، ربّما أجدها في الفضاء الافتراضي الواسع. أسافر عبر الزمان والمكان يومياً، وأنا جالس خلف الشاشة، أكتشف مدناً حلمت بها، ولا أقترب من تلك المدن! أبحث عن أنثى في صورة كلمات، وما أكثرهن في الفضاء الافتراضي!. وكما وقعت في حب زليخة امرأة العزيز، وأحلام مستغانمي، أردت أن تصل إليّ حبيبتي الموعودة عن طريق شعري. أن تقع في غرام كلماتي، فهل تفعل «فتنة» ذلك؟ آمل أنّها ستفعل، بعد أن قالت لي: «إنّ الإنسان في أواخر أيامه يبدو في شخصيته المثالية، فالوجه الذي نولد به، يحلُّ محلّه بالتّدريج الوجه المرغوب، الوجه الذي يعبّر عن أحلامنا الخفية!». [11]فهل الوجه الذي أراه في المرآة هو وجه أحلامي؟ الوجه الممتلئ بي وحدي، الوجه الطافح بالتّوثب والرّغبة؟ تراها تستطيع رؤيتي كما أنا في هذه اللحظة؟ لا أعرف أين غاب شيطان الشّعر؟ وخلّف وراءه القحط. هل صحيح أنّ الإبداع مرتبطٌ بالألم؟ هل يجب أن أعيش حياة الحصار والخوف؟ ألا يمكن أن يكون هناك شعر نشوة؟ أو حتّى شعرٌ تبعثه نشوة اللعب بالكرة، أو السّير ليلاً على ضفة النّهر كشكل من أشكال النّشوة؟)

قاطعتُه قائلة:

– هل فتنة أيضاً امرأة؟

وضع لي وجوهاً ضاحكة في نافذة المحادثة. وكتب:

– هي امرأة على سبيل الرواية! استعارت اسماً من صفاتها... لا تبحثي عن حقائق فيما أرويه، بل خذي كلامي على أنّه صالح للاستخدام الروائي.. أليس هذا ما تريدينه؟

– نعم، هو ما أريد، أكمل.

(11) بودلير

(فـي الحلـم أرى نفسـي أحـاول الطيـران، أرتفع كثيراً تـاركاً باقي الطيور تبحث عن الطعام قرب السـفن، لم تعد الأسـماك تشـكّل غواية بالنسبة لي، بات همي أن لا أترك أثراً حين أهبط إلى الماء، فأمسه مسّاً رفيقاً ناعماً، لا يكاد النّاظر إليه يلمح أيّ تغيرٍ في صفحته.

ذكّرني الحلم بواقع عشته في الحرب الأولى، خوفي على أحمد، أم خوفـي مـن البقـاء وحيداً جعلني أقدم علـى عبور النّهر خلفه؟ انهمر الرصاص فجأة من الضفة المقابلة، وصوبت أضواءٌ كاشـفة فوق النّهر، لم أستطع أن أدرك إن كان المصدر زوارق مختفية وسط العتمة، أم من الضفة؟ الخوف كلُّ ما شعرت به، ومنعني من التّفكير السليم. كان عليّ أن أخفي رأسي لدقائق، وأنا أغطس في الماء البارد، شعرت بثقل معدني في أعضائي، يشـدّني إلى الأسـفل، استسـلمت لإحساسـي بعدم جدوى المقاومـة، واسـترخيت تـاركاً للمـاء مهمـة ابتلاعـي، تلك الحشـرجات المـرّة، والمـاء يتسـرّب إلى ضلوعي، خلقت رغبـة أخيرة في مقاومة ما يحـدث، حرّكـتُ ذراعـيّ بقـوة، حرّكـت سـاقيّ، وأيقنت أنّ حـرارةً ما، تتسلّق عضلاتي، وتساعدني على دفع جسدي إلى الأعلى. ثانية، غلبني يقينـي بأنّنـي نـورس، وأنّ النورس فكرة مطلقـة عن الحرية[12]، وبما أنّ جسدي ليس سوى فكرتي عنه، لم يعد باستطاعتي أن أوقف رغبته في امتلاك حريته بعيداً عن أسر الماء. شعرت أنّ جسدي ليس دماً ولحماً فقط، بل فكرة كاملة للحرية، ورغبة غير محدودة للتحليق الدّائم.

لم يمر وقت طويل، حتّى شعرت بلسعات غامضة لكائنات تتحرّك فـوق جسـدي، ممـا أكّـد لي أنّ التّـراب يحتضنني بعيداً عـن النّهر، فقد مضت الشّمس في نهشها لعينيّ، حاولت فتحهما، فمنعتني بسلطة ضوئها.

(12) النورس جوناثان ليفنسـكتون/ تأليف ريتشـارد باخ/ ترجمة عزة كبة / بغداد 1986 / الطبعة الأولى.

حرّكت جسدي، فاستجابت ساقاي ببطء. حين تمكّنت أخيراً من رؤية ما يحيط بي، استفاق ذهني من غفلته، ووعيت بمزيد من الألم، أنّني وحيدٌ في هذا الخلاء الغامض. حاولت الوقوف متغاضياً عن ارتعاش ساقيّ، فقدت توازني، ودارت الدّنيا بي، ورمتني أرضاً. زحفت صوب النّهر، مددت يديّ أستجدي عذوبة الماء، بضع قطرات تطفئ الحريق الذي يلتهم جلدي. بلّلت شفتيّ، وأغمضت عينيّ. حاولت أن أمتلك صفاء ذهني، لأحدد بالضبط، إلى أيّ جهة سأسير؟ فقدت كلَّ اتّصالٍ لحواسي بالمكان! فتحت سراديب ذاكرتي، توغلت عميقاً في دروبها، أيمكنني أن أعرف بالتّحديد في أيّ منطقة أنا؟ هل لفظني النّهر بعيداً عن الحدود؟ المكان يقول إنّني سبحت بعيداً عن رفاقي، لا يوجد أمامي سوى رمال حارقة، وبضع أشجار تظلِّل الماء بفيء بخيل، أين أنا؟ أأتجه شرقاً؟ أم غرباً؟ ما أذكره بدقة أنّ الشمس كانت في مواجهتنا حين توقفت النيران عن التهام أجسادهم! أحمد أصرّ في تلك اللحظات «أتريد أن يفتك بنا الجوع، ويبيدنا، بعد أن فشلوا هم في قتلنا؟ يجب أن أعبر النّهر، انظر هناك».

هل كانت تلك الوجبة من الخضروات أمام المنزل على الضفة المقابلة، تستحق أن يغامر أحمد بروحه لأجلها؟ ابتسمتُ بسخرية، من يدري؟ تعددت الأسباب والموت واحد. أدرك أحمد أنّ النّهاية واحدة في كلّ الحالات، فاختار أن يموت وهو يطلب الحياة! فلم لا أقتدي به؟ لعلّني إن اتّجهت شرقاً، أجد من ينجدني من الموت جوعاً! بيتٌ منعزل، لا يعرف أصحابه من أكون. هل عليّ أن أتخلّص من هويتي؟ لم يكن هيناً أن أرمي ثيابي العسكرية، وأسير كمن فقد عقله، لكنّ الخوف والحذر يشهران أسلحتهما الممكنة في مواجهة مصير ما زال مجهولاً حتّى لحظة اتّخاذ القرار. تخليّ عن الخوذة، ترك رأسي عرضة لغضب

السماء، فضحكت شمسها بشماتة من سذاجتي، وانصياعي لفكرة حمقاء. لم أبالِ لشماتتها، تابعت سيري رامياً إياها وراء ظهري، متجاهلاً تلك الآلام المبرّحة التي قلّصت معدتي حدّ تشويش الرؤية أمامي. خاتلني السّراب راسماً غابات من النّخيل عند خطّ الأفق، فانتعشت مخيلتي بصور منازل مختفية بين الأشجار، يسرع سكّانها الطيبون إلى نجدتي، يقدّمون لي الطعام، وأفترش أرضية باردة، وأنام! كأنّني في حلم...! دفعت ساقيّ للانطلاق بسرعة، ووجدت نفسي ـ والمساء يرخي أشرعته الرطبة ـ قد وصلت الموقع! حيث كانوا، في المكان الذي انطلق منه أحمد إلى الضفة المقابلة ليُحضر خضاراً وبطيخاً، يطفئ به الحرّ والجوع! رائحة منتنة انتشرت في الجوّ، لم أدركها في غمرة فرحي بمعرفتي الجهة! الساتر الرملي، الخندق، جثثهم المنتشرة في المكان، بعضها نهشته الوحوش، وبعضها غطّته عاصفة رملية، أو ربّما الانفجارات قامت بمهمة الدفن! هبطتُ بسرعة داخل الخندق، استلقيت بهدوء، وأغمضت عينيّ مستسلماً لفكرة صعقتني حين لامست ذهني، ثمّ خضعت لغوايتها. لقد جئنا معاً، جمعنا مصير واحد، ولابدّ سألحقهم قبل دخول الليل!

انتصف الليل، وأنا راقد في الخندق، أفتح عينيّ، لأحدّق في السّماء. كنت أؤمن بأنّ منعة قلاعي مرتبطة بصمود تلك النّجوم في سمائي، كلّما نظرت إليها ليلاً، داخلني شعور بالاطمئنان، وابتسمت راضياً عن النّفس، فهي منذ الأزل، ترابط عند نافذتي المشرعة لنسيم المساء، لم تخذلني يوماً. لا أعرف بالضبط لمَ تتعلّقُ نظراتي دائماً بـ»الزهرة»! تبدو أكثر ألقاً من صويحباتها، هو إيمان خفي بتلك القوى الجبارة، غالباً لا أعترف به. لم تكن لي علاقة بثقافة الكهنة ومعتقداتهم، ولم أهتم يوماً بذلك التّاريخ الموغل في قدمه وعمقه، ولا حتّى بتلك

الأساطير التي صنعت ثقافة مميزة لعراقي، لكنّني اليوم أشعر برغبة حقيقية لأن أؤمن بما اعتقدته غيبيات فارغة، وخرافات لا معنى لها، فها أنا ألمس بحواسي كلّها مواقع النّجوم الكئيبة في ليلٍ عجّ غباره عالياً، واشتدّ قيظه، قبل أوان دخول الصّيف! وخزني قلبي، تذكّرت أمّي، أبي، أخوتي، ونعمت! أحسست بألم مكان القلب. همسٌ جاءني من مكان ما، صوتها! أقسم أنّي سمعت نبرات صوتها الخافتة، تناديني «تعال يا حسن، لماذا تبتعد عني؟ إلى متى سأكتب لك ولا ترد؟ أتعلم؟ لن يصلك مني رسائل بعد اليوم». هل رحلت نعمت؟ ماذا حدث؟ نهضت من رقدتي وقلبي يخفق بشدّة. لا أعرف لماذا سيطر عليّ هذا الهاجس المفزع، على الرغم من أنّ النّجوم السّبع مازالت راسخة في مكانها، تطلُّ ضاحكة من عليائها، وكأنّها لا ترى ما يحدث! أصابع من فولاذ قبضت على قلبي، لماذا أذكرها الآن؟ وأنا على يقين أنّها لم تُخلص في حبِّها لحسين، لم تمضِ أيام على استشهاده، حتّى رأيتها مصادفة، تقف قرب النّهر مع أحمد. أذكر كيف كان يختفي في ركن بعيد، ليقرأ رسائلها، كيف كنت أنظر إليه بعد ذلك، يقترب مني متردداً، عيناه تفصحان عن رغبة في الحديث، لكنّه يبقى صامتاً، يحتفظ بغصة في حلقه، ويمضي. لم أكن أهتم لنعمت، هذا ما صرّحت به لنفسي وللآخرين مراراً، حسين، وأحمد من بعده! فلماذا تقتحم مخيلتي الآن، وكأنّها كانت منذ البداية تسكن القلب؟ لم تكن عيناي مغمضتين، لم يكن حلماً، حين رأيتها تُغرق نفسها في دجلة، لا، ليس حلماً، بل يكاد قلبي ينط من ضلوعي صارخاً بها أن تتوقف، وترجع. قلبي رأى قبل عيني، همسَ صوتها في أعماقي: «لا تصدق ما تراه عيناك، فما تراه العين محدد، انظر بعقلك، واكتشف بنفسك ما تعرفه، وسوف تهتدي إلى الحقيقة.» هل أؤمن أنّي أحبُّها؟ كيف لي أن أمتلك إيمانها حين

دفعت جسدها بقوة القهر حتّى القاع، وخرجت إلى السّطح سمكة ملوّنة برماد الفراق؟ نعمت تبتسم في غبش الليل، تناديني، أنْ تعال. جسدي يستسلم للألم، والخدر يمضي بعيداً في أعضائي. تعصف بي الذكريات الموغلة في الوجع، حسين، نعمت، أحمد، خالي، عباس...)

***

بيروت هل ذرفت عيناكِ دمعة؟

إلاّ ترشّفها فؤادي المغـــــرم.[13]..

كانت فيروز تسكب ذلك العشق شلالاً من عبير في صوتها الإلهي النبرة، حين لفت انتباهي خبرٌ عاجل على قناة الجزيرة، جعلني أنهض من جسدي متعثرة بارتباكي، ويدي ترتعش وهي تضغط جهاز التحكم ليصبح الصوت أعلى.. قصفٌ إسرائيلي جنوب لبنان.. المقاومة تتصدّى للهجوم الإسرائيلي.. حربٌ أخرى! لم أكن متفاجئة من الحرب بحدّ ذاتها، فمنذ البارحة، كان قلبي يحدّثني أنّ أسر الجنديين الإسرائيليين لن يمر على خير! بالإضافة إلى تشاؤمي من الرقم 13، لم أحبّ يوماً هذا الرقم على الرغم من أنّه يوم مولدي! البارحة فقط، كدت أصاب بعدوى الفرح الذي أصاب الناس جميعاً بعد المؤتمر الصحفي الذي عقده نصر الله، وبثته قناة الجزيرة.. لكن، هيهات للفرح أن يخترق قلبي المثقل بالشكوك والحذر، وروحي التي تستشف الكوارث قبل وقوعها!..

يبدو أنّ الحرب أصبحت قدري، بيني وبينها ألفة تقترب من الحميمية، فبيروت 75، منحتني تذكرة إقامة في الملاجئ! أذكر كيف أفقنا في الخامسة صباحاً مذعورين على خبط عنيف على الباب، ظهر أبي وكأنّ شيئاً روّعه، فشعّث هيئته، وملأها غباراً، أعطى أوامره ـ التي

(13) الأخطل الصغير/ الأخوين رحباني

بقيت غامضة لدقائق ـ إلينا، لم يكن ذهني قد صحا من غبش النوم، وعيناي انفتحتا ببطء رافض للاستسلام لفكرة مغادرة الفراش.. كلّ ما في ذاك الصباح الباكر ينبئ عن خمول، سيطر حتّى على روحي. لكنّ يد أبي القوية، التي جرّتني من الفراش، آمرة إياي اللحاق بأمّي إلى الملجأ، نبّهتني لخطورة ما يجري، وفتحت أذني على صوت رشقات رصاص قريبة من المبنى! نزلت الدرج الضيق، وأنا أتعثر بظلال العتمة وقلقي. في الشارع كان زوجي يحمل سلاحه الثقيل، ويصدر أوامره لمجموعة من الشباب ترابط في مدخل الحي!.

حتّى اللحظة التي أرحت فيها جسدي على أرضية السرداب الباردة، لم أكن قد استوعبت بعد ما يجري! في أقلّ من ساعة انجلى الموقف، وعرفت أنّنا أصبحنا داخل حرب أهلية شرسة، وأنّ قدري قد ارتبط بقدر هؤلاء الذين يشاركونني المكان..

كان القصف العنيف الذي تعرضت له الشيّاح، يخفّ تدريجياً قبيل الفجر، ليشتدّ مع الساعات الأولى للصباح.. في وقت الهدوء ذاك كان سكّان الملجأ يخلدون للراحة كما تفعل الأطراف المتقاتلة! لكنّي كنت أصحو تماماً في تلك الساعات، أراقب الناس من حولي، مع شعور بالخزي يجرحني، ويمنعني حيناً من متابعة التحديق في الوجوه المقهورة المتعبة، ولا يخلو الأمر من مشاركة بعض الصغار لي في الاستيقاظ، كنت أفضّل النوم، وسط صحو الناس، ربّما لإحساسي بالأمان أكثر!

بعد ثلاثة أيام كان أبي يزور الملجأ ليطمئن علينا، لكنّ أمّي لم تسرّها الزيارة، بل على العكس، نبشت كلّ أحقادها الدفينة، وثاراتها البائتة، وانتفضت بوجه أبي متهمة إياه بأنّه السبب في كلِّ ما يجري لها من تشرد وعذاب، واضطرار للنوم مثل المتسولين في ملجأ مليء بحثالة الناس! لا أنكر أنّني وجدت لأمّي عذراً في غضبها، لكنّي خجلت من

صراحتها الوقحة التي جعلت عيون الناس من حولنا تسلقنا بنظرات مستنكرة، على الرغم من أنّهم تصنعوا الانشغال في البداية في شؤون لا معنى لها كي لا يبدو عليهم أنّهم يسمعون شيئا!

يوسف الوحيد الذي رمقني بنظرة تعاطف، فقد شعر بحرجي، خاصة عندما بدأت أحشائي تؤلمني، ورحت أتلوى على الأرضية، ثمّ انتبذت زاوية، وتقيأت..

علّقت عجوزٌ على لهفة الناس من حولي ببرود «لعلّها حامل»! أمّي أصيبت بصعقة أخرستها تماماً.. أبي قال بهدوء «سأرسل من ينقلكن فجراً إلى طرابلس» ثمّ التفت إليّ، وقال «اعتني بنفسك». وغادر الملجأ.

كما وعد أبي أمّن لنا الحماية الكافية حتّى غادرنا الشيّاح، ولم أرَ زوجي وقتها! وبقيت نظرات يوسف الحانية معلقة بوجهي ـ وهو يودّعني ـ سنوات طويلة.. حتّى أنّي احتفظت بتفاصيل جسده، حركاته، نطقه للحروف، عنايته بأمّه العجوز.. وصارت الأيام في الملجأ من أجمل الذكريات التي بقيت في ذاكرتي، محتفظة بألقها! بروائحها، بتفاصيلها الحميمة، وربّما بتفاصيلَ لم تحدث، أضافها الزمن ليعتّق الرائحة، ويزيد حميمية اللحظات. أتساءل كلّما مرّ بخاطري عن تلك اللحظة التي خلّدتها ذاكرتي وحروفي، ماذا لو تقدّم يوسف مني، وقال «أحبّك»؟. ماذا لو قلت له وقتها، إنّي منذورة لحبّه بقية عمري؟ بل عمري الذي مضى والآتي! أيّ حياةٍ كنت سأعيش؟ أين؟ ومع من؟ وإلى أين كان سيتجه مصيري؟.. ماذا لو..؟

هاهي الحرب من جديد، توقظ فيّ الحنين لتلك اللحظات، وتشعرني بمدى حاجتي لمن أحبّهم.. هي حاجة استثنائية للاحتماء بمن نحبّ في ساعات الخطر.. لذا أبحث في ذاكرة هاتفي الجوال عن رسائل من أشخاص أتمنّى لو يرسلوها!.. وأبحث في البريد كلّ

ساعة عن رسائل تعيد إليّ ثقتي بأنّ على «الأرض ما يستحق أن يعاش». هاهي غفران تستجيب لندائي، فتدخل البهجة إلى لحظاتي الكئيبة برسالتها..

الجزائر/ أكتوبر / 2006 /

«وعلى درب آخر يسير الشوق موازياً للشوك.. يتسامران مبدّدين خوفهما المترصّد في أعماقهما بكلمات جوفاء لا معنى لها، ويمحيان العتم الذي أغرق الدّرب، بأصوات شاحبة..

كلاهما يخشى الآخر، كلاهما يغمره الحقد على قدره، فالشوق يدمي القلوب.. والشوك يدمي الأصابع..

وتزيد أم كلثوم من ارتباكي «والشوق آه من الشوق وعمايله»

مساؤك جلّنار»

عزيزتي..

تطلبين مني أن أبوح لكِ بمشاكلي دائماً. والله أشعر بثقلي، ويزعجني إحساسي ذاك. لكنّي لا أستطيع أن أرد لك طلباً، كما أنّي أرتاح حين أخبرك.

لكن طمئنيني أولاً، هل أنت بخير؟ ماذا يجري؟ أشاهد التلفاز بشكل عابر، الأخبار تخزني في القلب، هل أصبح العالم كلّه على كف عفريت؟ لا جديد لديّ، فالأيام تأبى أن تمنحني الفرح، وكأنّني امرأة منذورة للحزن!

يعود إليّ محمّلاً بنكباته، ونكساته، آملاً أن يجد عندي الحل، وحجارة الكلمات لم تعد تفلح في سدّ الثغور المفتوحة على الهاوية! كيف أعينه بيدٍ عاجزة، وقلب يفتقد الأمان؟ لا أملك سوى الاستماع بصمت لتذمره من مديره الذي فضّل عليه شخصاً أقلّ كفاءة وخبرة،

ولـم يكتـفِ بذلـك، بـل لمّح له بكلمـات موارية، أنّـه إرهابي متطرف، حين طالب بحقّه في الترقية، رمى رصاص كلماته بوجهه، وتركه يقتات أعصابه المنهارة.

أصبّـر نفسـي بأنّهـا لعنـة الـزواج الأزليـة، عليّ أن أعتاد الشـكوى والملل، والحياد إلى درجة الموت. لن يمل من تكرار تذمره وشكواه، لن يمل من الاعتراض على ما يسمع من أخبار، لن يمل من النظر إليّ علـى أنّـي المتهمـة الوحيـدة بكلّ مـا يحدث! ولن يمل مـن التنقل بين محطات التلفاز التي تمنحه المزيد من جثث القتلى، والصراعات حول الحكم، و...

أشعر بصداع رهيب، لكنّه لا ينتبه، يتابع خطاب الرئيس في نشرة الثامنة، ويعلّق قائلاً:

رئيسكم متطرف أيضاً! يتحدى أمريكا، ويقول: إنّها لن تنجح في استعبادكم، وإنّ محاولة الغرب الدخول من جهة النساء، مفاده أنّ النساء ضلع أعوج!

يغـرق فـي الضحـك، وكأنّه نسـي كلّ مشـاكله، يضحك سـاخراً من وضعنا الأمني والسياسـي، متناسـياً أنّه قبل لحظات كان يتألم لما يحدث لحزب «هنية». لكنّه محق، لو كان لرئيسنا ولد، لغيّر الدستور، كما فعل غيره، وورّثه الحكم. وجعل الموتى يصوتون له قبل الأحياء! فحقوق الموتى في هذا الوطن لن تتوقف عند اسـم تحمله شـاهدة! ليكـن، فنحـن نحمل ملامح وطن مسـلوب فـي كلّ الأحوال، منقوش على جبهتينا، نحمله بعد أن خسرناه، أو خسرنا، ليس ثمّة فرق. فقد خسـرنا كلَّ شـيء، على الرغم من تشـبثنا بوجودنا ووجوده، كتشـبث غريق بقشـه، يأمل أن تخرجه من عاصفة عنيفة، سـليم الجسـد! لكن ما شأن الروح؟

كوني بخير، لا تتأخري في الكتابة إليّ.. أرجو ألا تبقي في بيروت هذه الأيام..

غفران..

...

***

كنت أقرأ في كتاب كونديرا حين أضاء النافذة في الموعد المتفق عليه. كتبت له:

يقول كونديرا في «خيانة الوصايا[14]»: في فترةٍ ما، انقسم العالم إلى قسمين «تقدمي ورجعي» ومجرد قولنا رجعي، يعني إتاحة الفرصة لقيام محاكم التفتيش.

ردّ:

– نعم أذكر قوله هذا، أعتقد أنّي قرأته في كتاب يحمل عنوانا مختلفاً، ربّما هو الكتاب نفسه، لكن المترجم أعطاه اسماً مختلفاً «الوصايا المغدورة»[15]

حسناً عزيزتي، سأحدّثك اليوم عن محاكم التفتيش البعثية.. سأحكي لكِ عن حسين صديق طفولتي.

(أثار وصول السّيارة زوبعة من الغبار والدّموع، وعلا همس النّسوة، وتنهداتهن، لحظات، وسقط مُستقبلاً الأرض بوجهه. نزلتْ وراءه أحذيتهم تختال بجبروتها، وسوّرته بنادقهم، فكتمت النّسوة صراخهن.

لم أجرؤ في تلك اللحظة أن أنطق بحرف. تأملتُ وجهه طويلاً،

(14) ترجمة / لؤي عبد الإله

(15) ترجمة معن عاقل.

ذقنه النّابتة بعشوائية، جسده النّحيل المنهك، وتينك العينين اللتين تدوران في محجريهما بلا هدف! لم أعد على يقين أنّه حسين!على الرغم من أنّ صياحهم يصمّ أذنيّ، اسمه يطرق سمعي، ويخزني بحدّ سكين مثلومة، أحسّ صدى الصّوت في دماغي، يعقبه الفراغ «المجرم حسين الذي هدّد أمن الدّولة واستقرارها! الخائن الذي فرّ من الدّفاع عن شرفه وشرف أرضه!» أسمع أصواتهم ترتطم بالفراغ الهائل في دماغي ثانية، أحسّ بطعم الدّم الحارّ النّافر من شفتي، وأنا أعض عليها حدّ الحقد الذي لم يعرف طريقه إلى القلب يوماً. أحسّه، أكاد ألمسه، تماماً كما ألمس قطرات الدّم، وأفركها بأصابعي. توقف إحساسي بالألم، كما توقف إحساسي بالأشياء من حولي. صمت رهيب عبّأ المكان بالتّرقب والانتظار، وحده هسيس الدّمع، كان ينفر من الصدور، ويملأ الفضاء!

في تلك اللحظة رأيته يركض خلفي، في البساتين المحيطة بالكاظمية جهة الشرق، كنا نتسابق صوب النّهر، ذلك المساء كانت جدتي عائدة من الحجاز، وقد وعدته أن أعيره مظلتي الملوّنة الّتي أحضرتها لي، إنْ هو استطاع الوصول قبلي إلى النّهر، مع إدراكي أنّه سيخسر، فلم يكن أحد يستطيع أن يسبقني، حتّى أنّ الأولاد شبّهوني بالسّهم! حينها رقَّ قلبي له، فأبطأت الخطى، والتفت إليه، فرأيته يخبّ على الدّرب، ويتعثر بذيل دشداشته، ويقف لاهثاً، ويزفر بقوة. أخذتني الشفقة به، فوقفت متصنعاً التّعب. يومها شعرت أنّ حسين يكاد يبكي قهراً. توقفت قرب نخلة، وقلت في نفسي، سأترك له فرصة ليغلبني! أغوتني النّخلة بارتفاعها، فتسلّقتها ـ كعادتي ـ من دون آلة، لم أكن أهتم حتّى بتلك الخدوش الدّامية الّتي تتركها أحياناً على أصابعي. حضنها أنساني حسين، نسمات المساء وشمس الأصيل، والأفق الممتد فوق النّهر، تلك اللوحة الإلهية المرسومة بمنتهى الدّقة، جعلتني أقول

للشمس الغائصة في حضن الأفق: تمهلي، لا تذهبي، يا الله كيف أدرك هذا الجمال؟ كيف أحتفظ بهذا المشهد أبداً؟» أيقظني صوت حسين من تأملاتي، صاح:

– انزل يا حسن، لماذا تختبئ فوق؟ ألن تفي بالوعد؟

أغاظني حسين، لأنّه أطاح بروعة الصّورة من مخيلتي، وجعلني أفيق على وعد بالهزيمة لم أعتده!

كيف وأنا السّهم الذي يقطع البساتين كالنّسيم؟ ويرتمي بحضن دجلة كنورس دوّخه العشق!

نزلت بسرعة، قفزت بجانبه مثيراً زوبعة من الغبار، تراجع حسين فزعاً، وقبل أن أقبض عليه من كتفيه، قال بصوت مخنوق «كنت أمزح معك». أفلتّه، وضحكت من أعماقي، وركضنا قاطعين المسافة المتبقية حتّى النّهر. هذه المرّة، مشيت بهدوء، وتركت حسين يحاذيني، أردت أن أمنحه الثقة بكلامي، لا أدري ما الذي جعلني أترفّق به إلى هذا الحدّ، أحسست ساعتها بشيء فتح فجوة في القلب، أوجعني أن أرى صديقي فزِعاً مني. وأنا الذي أكاد لرقة إحساسي أحلّق مع النوارس البيضاء بعيداً وراء دجلة.

وصلنا النّهر خلال دقائق، الصّبية كانوا يتجمّعون هناك في البقعة الواطئة، يرتدون ملابسهم. عندما اقتربنا، صاحوا بمرح «تأخرتما، الماء بارد» لم أهتم، نظرت إلى بقعة محددة في النّهر، كانت نعمت هناك، غير عابئة بهرج الصبية ولا حلول المساء، خلعت ملابسي الرياضية بسرعة، ورميت نفسي في الماء. لم أكن أعرف السّبب الذي يجعلني أحبّ مشاكستها باستمرار، وعلى الرغم من أنّها كانت تواجه الصبية بعنف لا ينسجم مع سنها وحجمها، إلاّ أنّها كانت تبتسم لمشاكستي، وتكتفي برشقي بالماء، أو تبتعد عميقاً في النّهر!

اقتربت من مكانها، وصحت «نعمت» كان هدفي أن تفزع، لكنّ نعمت ابتعدت، وكأنّها لم تسمع ندائي، فتبعتها مصمماً على قهرها هذه المرّة، غطست تحت الماء، واقتربت منها، شددتها من قدميها، فانزلقت قريباً مني كسمكة طريّة، لم أفهم في تلك اللحظة ما حصل!.

ثانيةً تجرّأتْ نظراتي، واستقرّت على وجه حسين، حاولت أن أستحضر ملامح وجهه المكتنزة بالمرح، رسمت فوق الشكل البائس للوجه الذي أراه ملامح زمن مضى، ورأيته ينظر إليّ بعتب خفي! لم أكن فطناً إلى درجة أفهم معها، لماذا خاصمني حسين زمناً طويلا بعد حادثة النّهر تلك!

لأنّي لم أفكّر أنّ نعمت، تلك السّمكة السّمراء، بعينيها الواسعتين وشعرها الأسود الطويل، وقامتها الناحلة المتوسطة الطول، شكّلت في مخيلة حسين مستقبلاً، يرتسم فيه درب صاعد نحو تكوين أسرة! ولم أعرف جديته تلك في نظرته إليها، إلاّ بعد سنوات، حين صرنا على مقاعد الجامعة، حينها ضحكت ملء الرّوح وهو يخبرني بحذر عن لقاءاتهما العابرة في الطريق المؤدي إلى بيتنا! قال بنبرة عتب:

– بقيت زمناً، أخشى الاقتراب منها، وأظن أنّك تحبّها!

قلت باستغراب:

– أنا؟

ردّ بحذر:

– نعم، منذ حادثة النّهر!

حادثة النّهر! لكن ما حدث لم يكن بتلك الأهمية، فقد كنا مجرد طفلين! فتح حسين بحديثه أبواب الشّك على مصراعيها، هل حكت نعمت شيئاً عمّا حصل؟ ما الذي حصل بالضبط؟ صرتُ أتجنب المرور

قدّام بيتهم، وأغض بصري حين أراها مصادفة في الشارع. صحيح أنّ حادثة النّهر، أقامت في مخيلتي زمناً، وأسّست لحلم جميل، لكنّي لم أنظر إلى نعمت على أنّها أكثر من طفلة مشاكسة وعنيدة، تحبّ أن تقود الصبيان، لأنّها تتفوّق عليهم في السّباحة، حتّى أسرعهم كان يتخاذل أمام مقدرتها على البقاء تحت الماء عدّة دقائق. غالباً كنا نحبس أنفاسنا، ونحن نحسب الوقت، قبل خروجها من الماء، فكم مرّة تصورنا أنّ نعمت لن تخرج أبداً، وأنّ جنيات الماء اختطفنها، لكنّها كانت تفاجئنا بضحكة، وهي تشقّ الماء برأسها بعنف، وتتابع السّباحة إلى الشاطئ.

صرخةٌ رهيبة شقّت السّكون المهيمن على المحلة، رفَعَتْ معها وتيرة الدّمع المنسكب من أعين النّساء المرتجفات في الزاوية هناك، بعيداً عن العمود الّذي أوثقوه إليه.

في تلك اللحظة، رأيت أبا حسين، شعرت أنّ دهراً مرّ منذ رأيته آخر مرّة.

وجهه والإسفلت، يجرجر سنين القهر، ولوعة أب مجبر على رؤية وحيده أمام عينيه، وهو ينطفئ، ويتلاشى، عقاباً له على خيانته للوطن. كيف له أن يستوعب معنى الخيانة العظمى؟ كيف له أن يدرك أنّ الأحلام الجميلة يجب أن تقتل، إن لم تَصبّ في مصلحة الوطن، ما الوطن إن لم يكن حسين؟ الذي ربّاه في حجره شهوراً وسنين، وحين نما الزغب فوق شفته، أرادوا خطفه، من أين يأتي بأجنحةٍ ليطير؟

التفت جهة الجدار، لم أستطع متابعة النّظر إليهم، وهم يسحلونه أرضاً، ويجبرونه على الوقوف أمام ابنه، شدّه أحد الرفاق من لحيته البيضاء، ليرفع رأسه الذي أثقله الألم، فتدلّى على صدره ثانية. صفعه آخر، ليحدّق بجوارحه كلّها في المشهد «يجب أن تتبرأ منه» صرخ ثالث، وهو يدفعه إلى الأمام بعقب بندقيته. صوت قادم من الجحيم «تهيّأ»،

ارتجف قلبي، وهم يرفعون بنادقهم، ويستعدون. أردت النظر في عينيه، لكن كيف أخترق العصابة المشدودة عليهما؟ أردت أن ألمس جبهته، أن أقبّل خده، سنواتنا معاً، أحلامنا.. لم أستطع السّيطرة على رعشة يديّ، وقلبي تتصاعد دقاته موجات من الدّم تنفر من عروق أصابعي ووجهي، شيءٌ واحد كنتُ أراه بعين بصيرتي، عينا حسين تحدّقان في الأفق، نظراته الزائغة، تخطفان اشتعاله، فتبدوان في حمرتهما جمرتان اتّقدتا باليأس، والألم، وانطفأتا، وهما تحتفظان بجمود كراهية لن تزول!.

«نار» لم أستوعب الكلمة مباشرة، لم أستوعب كيف أطلقوا على جسده وابل رصاصهم؟ وكيف اختلج جسده النّحيف؟ وصرخ شادّاً وثاقه، تطاير الغبار من السّاتر التّرابي وراءه، دفعه الهواء السّاخن في عينيه. ورأيت جسده يندفع إلى الأمام، والدّم ينفر من فجوات كبرت حتّى غامت الرؤية، وهو يخطو إلى الأمام خطوتين، يترنّح، ويتكوّم عند قدميّ!

غادروا بسرعة، وتركوه يعانق حفنة تراب انهارت مع جسده، وتسابقت النّسوة إليه. هل شهدت يوماً إعدام ماضيك أمام عينيكِ؟ هكذا كان..

ابتعدتُ من السّاحة. هبّت الريح الشرقية، من ناحية الخليج والأهوار، قوية دافئة ورطبة، التقت بالرياح الشمالية الغربية الباردة، فسقطت أمطارها، وسدّت السّماء عاصفة رملية مكتسحة جذوع النخل، وهدرت مياه النّهر بغضب، وشحبت وجوه الجسور، وخلال دقائق، لم يبقَ بشر في الشوارع. كنست العاصفة كلّ ما وجدته في طريقها من أشياء صغيرة، وذرّتها بعيداً بحرفة حصّاد على بيدر حنطة. دفعتني الريح صوب بيتي، أغلقت باب غرفتي، وارتميت على سريري. تراءى لي حسين بجانبي! عاتبته هامساً «لماذا يا حسين؟ لماذا فعلت ذلك؟» ابتسم

حسين بإلفة، وحكّ رأسه قليلاً، وهو يقول: «وماذا فعلت، معظم الشباب يفعلـون ذلـك، هل تعتبرني مـزوراً؟ قمت فقط بتغيير تاريخ ميلادي في البطاقة المدنية». قلت له: هل يعقل أن تغامر برأسـك إذن؟ ردّ بذهول «لم أتخيّل للحظة مصيري هذا». قلت بعتب، والدّمع ينفر من عينيّ: «بل حذرتك يا حسين، هل نسيت؟ كم قلت لك إنّهم لن يرحموك؟». قلت لي: «القانون يعاقب على التزوير بالحبس، والسّجن أرحم من الذهاب إلـى حـرب لا جـدوى منها، ألا ترى ماذا يفعـل المجندون هناك؟ إنّهم يُقتلـون كالذبـاب، ألا تـرى أنّهـم مجرد أرقام، لا أريد أن أصبح رقماً يا حسـن، لا، لـن أكـون»، «قلت لك: العين لا تقـاوم المخرز» قلت: «أن تعيـش دون بصـر أفضـل مـن أن تفقـد بصيرتك». «قلـت لك: ليس من الحكمـة أن تصبـح أعمـى»! فكان ردّك الصمت المطبق. وعرفت أنّه لا شيء يمكن أن يثنيك عن قرارك.

وكأنّ حديـث القلـب والـرّوح، كان مجـرد نبـوءة، ليـوم تعجّـل الحضور!. لم يمضِ على تغييره لتاريخ الميلاد في بطاقته المدنية سوى أيام، أيام فقط، أدخلت البهجة إلى قلبه الذي لم يبرح طفولته يوماً، أيام كان يقبـض فيهـا علـى بطاقته كالقابض على جمر حرق القلب، وشـوى الرّوح، وأثار اللهيب شهيتهم للقتل، قضى بعدها أياماً عصيبة في السّجن بانتظـار رصاصـة الرحمـة! قال لـي حين زرته في السـجن، إنّه يتخيّلني دائمـاً قـرب تلـك الكوة الصّغيرة المحاطة بالقضبـان الصّدئة، يراني من مسافة قريبة، لا يفصل بيننا سوى عجزنا عن كسر القضبان. يتقدّم، ويمدُّ أصابعه خلال القضبان، أتلقف يده النّحيلة، وأتساءل: «كيف تحوّلت إلى أصابع من شمع؟ أين تلك الكف المكتنزة، الّتي كنت أشعر بثقلها حين تسـتقرُّ علـى كتفي بمودّة؟» صرختُ فـي الغرفة المغلقة بملء جوارحي «أين أنت يا حسين؟» صرخة أطاحت بالصمت، فزّرت جلدي، وخرجت

لترتطم بالجدران! صرخة أخرى، وصدى البكاء في أحشائي، ينهشني ببطء، فأرى نفسي أتمدّد فوق غيمة، وأغيب عن الوعي!.)

***

أحترف الحزن والانتظار، أرتقب الآتي ولا يأتي، تبددت زنابق الوقتِ..

عشرون عاماً وأنا أحترف الحزن والانتظار..

عبرتُ من بوابة الدموع إلى صقيع الشمس والبرد، لا أهل لي..

في خيمتي وحدي، عشرون عاماً، وأنا يسكنني الحنين والرجوع.. كبرت في الخارج، بنيت أهلاً آخرين، كالشجر استنبتهم.. فوقفوا أمامي، صار لهم ظلّ على الأرض، ومن جديد ضربتنا موجة البغض، وها أنا أستوطن الفراغ! شُرّدت عن أهلي مرتين، سكنت في الغياب مرتين، أرضي ببالي، وأنا أحترف الحزن والانتظار[16]**!.**

ترتبط أغنية فيروز هذه بذكرى لا تفارقني، ربّما لأنّني أحببت عمتي، وكنت أشبهها في الكثير من ملامحي الشخصية والروحية، كانت دائماً تضربني على كتفي بمودّة وهي تقول «لا أريدك أن تشبهينني، ليت مصيرك يختلف» كانت تتنهّد، وتسرح نظراتها في البعيد، وظلّ دمعة عالقة في أهدابها، تكاد تنفر لتغرق وجنتيها الجافتين بفيض روحها الحنونة.. لكنّ أصابعها تمتدُّ فجأة لتمسحها بقسوة، وتأمرني بمغادرة المكان، أو تطلب أن أصنع لها فنجان قهوة! لم أكن أدرك وقتها أنّها تخشى أن تبدو ضعيفة أمامي، كي لا تورثني صفاتها!.. عندما تجاوزت سن المراهقة، صرت أندس قربها في لحظات تأملها، وأرفض أن أغادر المكان، وأتباطأ في الذهاب إلى المطبخ، حتّى انفجرت يوماً بالبكاء..

(16) الأخوين رحباني

بكت بقوة، جعلت جسدها يهتز، ولم تمسح دموعها، تركَتْها تجفّ لوحدها! لكنّي لم أجرؤ على لمس حزنها بكلمة، أو همسة، تجمّدت مكاني، وكأنّي غير موجودة! قالت لي بعد مرور ساعة على ذلك الوضع الغريب: «أترين قرص الشمس؟ عندما كنت أراه من شرفة بيتنا عند المغيب، تغمرني السعادة، لأنّي كنت أنتظر صباحاً أجمل، سيمرُّ فيه أمام شرفتي، ويختلس النظر إليّ، وكأنّه يفعل ذلك من دون قصد!.. لم يكلّمني يوماً، لم يلمس يدي! قرأ فاتحتي مع جدك، واختفى فجأة عندما اجتاحت العصابات المسلحة يافا.. ثمّ غادرنا إلى بيروت، يومها بكيت حتّى جفّت دموعي، وعاهدته على الانتظار مع أنّي أجهل مصيره!. سمعتُ أنّه سافر إلى أمريكا، جاء من يخبرني أنّه رآه هناك! فسكن الأمل قلبي من جديد.. عشرون عاماً وأنا أحترف الحزن والانتظار.. آه يا ابنة أخي.. آه يا هجرة..» سألتها: «ألهذه الدرجة تحبينه يا عمتي؟ ألا يحتمل أن يكون قد نسيك، وتزوج؟» نظرت إليّ نظرة لم أفهمها، وقالت بقسوة: «أنت لا تفهمين، الحق عليّ لأنّي تكلّمت أمام غبية مثلك، قومي اصنعي قهوة». وعلى الرغم من ابتسامها في وجهي بعد أيام، إلاّ أنّ عمتي لم تعد تبوح أمامي بشيء منذ ذلك اليوم، بل كانت لا تردُّ على أسئلتي، وتتهمني بأنّي حشرية! كم أشتاقها الآن! وكم أشتاق أن تحكي لي أسرار قلبها الذي بقي مقفلاً على حبيب لم يتغيّر! احترقت في انتظاره، وبقيت طيلة عمرها وفية له!.

أذكرها الآن، مشوارنا اليومي صوب البحر! مراقبتنا لقرص الشمس، والسفن التي تلوح عند خطّ الأفق.. صمتها الممزوج بروح التعبد عند غياب الشمس.. ورفضها مغادرة الملجأ في الشيّاح. عمتي كانت مؤمنة بأنّ الإنسان يعيش حياةً واحدة، ويموت ميتة واحدة، وبما أنّ كلّ شيء مقدر ومكتوب، فلماذا تهرب منه؟ نعم ما الدّاعي للهرب؟

أتساءل على الرغم من أنّي لا أفكّر بطريقة عمتي، ولا أملك استسلامها، ولا أستطيع أن أحترف الانتظار مثلها، فبضع ساعات أقضيها مقابل الشاشة قد تصيبني بالملل، وتبعث فيّ إحساساً بالإحباط، أداريه بقراءة كتاب يبعدني عن التفكير به، هاهو أخيراً!

- صباحك ياسمين.

- وصباحك..

- الحمد لله أنّك بخير، أطلتِ الغياب، شغلتِ بالي..

- لا ينشغل بالك، أنا بخير، هي المرّة الثالثة التي أعيش فيها داخل الحرب.. تعرف ظروف الكهرباء.

- مثلي، قلت في هذا / كلّما نظرتُ/ إليّ/ عابراً ثلاث حروب.../ تبسمتُ/ من غفلةٍ/ للحروب!/ [17]

- والله تضحكني هذه المصادفة.. المهم، سنتابع الحديث في الرواية، قبل أن تغدر بنا الكهرباء.

- حسناً...

(أيقظني الواقع القاسي لحياة الجنود من ذهولي الذي لازمني زمناً بعد مقتل حسين، وانغمست كلياً بتلك الرتابة القاتلة، متحايلاً على تمردي الخفي بضبط النّفس. رياضة روحية إجبارية، علّمتني حياة المعسكر إياها، كما علّمتني الصّمت، وتنفيذ الأوامر من دون اعتراض، وتقبّل الطعام الرديء، والمعاملة اللاإنسانية، لكنّي لم أستطع احتمال الفقد، وحده كان يحفر القلب بسكينه الصدئة، ويدميه! وبدأ القلق ينخر ضلوعي، ويخرجني عن صمتي.

لم يكن قلقي بشأن الأيام الرتيبة المملة، ولا بشأن المدّة التي

(17)

سـأقضيها بعيداً عن أهلي، أمر واحد أقضّ مضجعي، ومنعني من النّوم طويلاً، الوقت يمرّ، وابن خالي عباس لم يرجع للمعسكر. لم يكن سهلاً فـي وضعـي أن أسـأل، ولـم تكن هناك أيّ اتّصـالات، مع أنّ ابن خالي من محافظة ميسـان! فوجئت بعد زمن برؤيته في سـاحة المعسـكر. كان الوقت عصراً، ضممت جسده الناحل إليّ بلهفة، وسألته عن سر غيابه. انتحى بي جانباً، وهمس: «أولاً أريد أن أعزيك بخالك، لقد مات أبي». كدت أن أصرخ، لولا سرعة عباس في كتم صرختي بكفّه: «اهدأ، أتريد لفت أنظارهم إلينا؟». سـألته: «كيف؟» قال: «قتلوه، ألم تصلكم أخبار انتفاضة محافظات الجنوب؟». ومن أين تصلنا الأخبار؟ سـألته مخترقاً الصمت الذي حلّ بيننا زمناً: «وأنت؟ أين كنت؟». قال وابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه: ألا يبدو عليّ أنّي كنت «في الرضوانية[18]»؟. قفزت مـن مكانـي وكأنّ أفعـى لدغتني، حدّقت فيه طويـلاً، احتضنته، وبكيت، «إذن، فقـد عـدت مـن الموت! وهبـت لك حياة جديدة، لا أصدق أنّك معـي». ضحـك عبـاس مـن خلال دموعـه، وضربني على كتفـي، مبعداً إياي عنه. ربّما كان وقع المفاجأة أكبر من استيعابي. أحتاج زمناً إضافياً لأسـتوعب الرابـط بيـن رأس عباس المحلوق، وهيئته الناحلة! شـعرت بحمقي وأنا أحدّق بحاجبيه المحلوقين! كيف لم أنتبه لكلّ تلك القرائن التي تشـير إلى وجوده في الرضوانية؟ قلت بسـخرية: لعلّها كانت نزهة لطيفـة هـذه المـرّة؟ ردّ عبـاس بالموافقة: لا شـكّ فـي ذلك، هي أفضل بكثير من نزهتي السابقة إلى مقر اللجنة الأولمبية[19].

تركت عباس في السّـاحة، وتوجّهت إلى سـور المعسـكر، رفعت رأسي إلى السّماء، بحثاً عن النوارس، الأفق الخالي ضحك مني بشماتة،

(18) سجن الرضوانية

(19) استخدمه عدي كسجن للرياضيين، يحوي أدوات تعذيب مبتكرة

انكفأت على نفسي، وانسحبت إلى الداخل، ولأنّي مورق بالكلمات، ومليء بهسهسة اللغة، سحبت أوراقي من حقيبتي، وأمسكت قلمي، فغطّى صوت كلماتي على صوت الانفجارات، وزرعت ألغام عشقي في نبضها، حتّى أدركني الصّباح. حينها اختمرت تلك الفكرة المجنونة في رأسي، وكنت مستعداً لتنفيذها. أهو قتلٌ للوقت، أم رغبة حقيقية في تجاوز الواقع المعيش؟ هل أستطيع أن أقفز فوق تفكيري المنطقي لأغدو مجرد مشعوذ أتلاعب بهؤلاء المساكين الذين استسلموا طواعية أو رغم أنوفهم لما يطلبه الآخرون من دون مناقشة؟ لم يطل بي الأمر حتّى استطعت إقناع الجنود البسطاء أنّني أستطيع معرفة الغيب، ببنائي علاقة خاصة بين الكون وكوني. تلك التّمائم الغريبة التي كتبتها، كانت مقنعة تماماً، هاأنا أتجاوز بشعري كلّ ما أتى به رواد الحداثة، هل بإمكانهم تحويل الشّعر إلى تميمة تعيد الغائب، وتحضّر الأرواح، وتشفي أمراض الحبّ الخائب؟ مارست كلّ أشكال جنوني، مستمتعاً إلى أبعد حدّ بذلك الإيمان الذي أتركه في قلوب أتباعي. أقرأ الطالع، أتحدّث إلى الأرواح، وبما أنّ كثرة المعرفة لا توفر الفهم كما يقول هيراقليطس، فقد صدّق هؤلاء أنّني أمتلك قدرات روحية عجيبة، وأنّ حاستي السّادسة لا تخطئ أبداً. كدت أصدّق نفسي بأنّي ساحر حقيقي، وأنّ الشّعر لا يعدو عن كونه تميمة، تشفي من أوجاع الرّوح والجسد، لولا أنّ الأحداث من حولي بسخونتها، تصرّ على أن تضع أمام عينيّ ما يحدث في الرضوانية، وما يحدث في السّجون، والأماكن المحظورة من بغداد، لتطعنني بواقع لا بدّ أن أعترف أنّني لست خارجه! هاهو عباس بصمته الثقيل أكبر دليل على أنّني داخل اللعبة، وأنّني لن أستطيع التملص من انتسابي للموقع المريب نفسه الذي ينتمي إليه ابن خالي، الذي لا تستطيع قوة في الأرض إخراجه من نوبة الذهول التي تستغرقه

في المساءات وهو يراقب أفول الشمس، وكأنّه يتوقع عدم شروقها ثانية! ربّما لأنّه امتلك اليقين بعد خروجه حياً من سجن الرضوانية، أنّهم قادرون على منع الشمس من الشروق ثانية، إن أرادوا ذلك!)

حديث الحسن جعلني أنظر إلى وحدة الشعب العربي الروحية، أينما اتّجهت ترى الاضطهاد والظلم والقمع، فمتى.. متى ستحصل هذه الشعوب على حريتها بإرادتها هي، «بيدها لا بيد عمرو»!؟

قطع عليّ صوت فيروز ـ القادم من شُبّاك مفتوح على الأفق الأزرق للمتوسط ـ تساؤلاتي العقيمة تلك..

«لبيروت من قلبي سلام لبيروت.. وقُبلٌ للبحر والبيوت... لصخرةٍ كأنّها وجه بحّار قديمِ

هي من روح الشعب خمرٌ، هي من عرقه خبز وياسمين، فكيف صار طعمها طعم نار ودخانِ؟

لبيروت مجدٌ من رماد، من دمٍ لولدٍ حُمل فوق يدها، أطفأت مدينتي قنديلها، أغلقت بابها، أصبحتٍ في المساء وحدها وليلُ...

أنتِ لي، آه عانقيني، رايتي وحجرُ الغد، وموج سفر، أزهرتْ جراحُ شعبي، أزهرت دمعةُ الأمهات.. أنت بيروت لي... آه عانقيني[20]...»

عشرات المرّات أعاد ذاك الواقف في الشبّاك المقابل لشرفتي سماع الأغنية، وصوت فيروز يمطر حنيناً في داخلي، يستفز الدّمع، ويغسل تلك الآلام التي طحنت جسدي وعظامي، وروحي..

كان عليّ أن أذهب مشياً لمسافات طويلة كلّ يوم، لأحصل على حاجياتي اليومية، أقابل في طريقي النازحين من الجنوب، أجلس بينهم على الأرصفة وفي الحدائق، ثمّ أعود حاملة قلقي، والمزيد من القصص

(20) جوزيف حرب/ يواخين رودريغو

المحزنة... متى سينتهي كلّ هذا؟ وتعود بيروت لي كما كانت، أعانقها بفرح، وأغتسل بزرقة سمائها وبحرها!

***

ـ كيف روحك؟

– اللحظة؟ تشعر بالبرد!

– إذن أعيريني بعض هذا البرد، فإنّ الطقسَ حارٌ عندي.

– لـو أنّـك تتلقـفُ روحـي عنـد نافذتـكَ لاعتـدلَ الجوّ عندي وعندك!

– معكِ حق، فالأرواح الّتي يعتدل بها الجوّ نادرة كالقداسة.

– أصابعي مثلجة بجد.

– أضيق بحرارة الجوّ.

– يا للمفارقة!

– بل قولي يا للحكمة! لأنّ النّقائض تجتمع فينا بقدر ما نجتمع نحنُ فيها!

– بل لأنّنا نستطيع أن نعطينا ما ينقصنا.

– ذلـك سـعي لمحاولـة الاكتمـال، وهـو أمـرٌ لا يندرج ضمن دائرة الحكمة.

– المجنون لا تهمه الحكمة!

– لأنّ الحكمة لا كينونة فتدرك، ولا صفةٌ فتتّخذ، ولا مجهولٌ فيعرف!

– ومع هذا، في كلامك رائحة استفزاز، تضرب على وترٍ من أوتار القلب، نَغَمُه أشبه بالأنين.

– إذن فضربُ الأنغام ليسَ كضرب الحسام!

- كلامكَ يجرح ويداوي!

- يقول الشريف الرضي قولاً رائعاً في هذا:

سـهمٌ أصاب ورامیه بذي سـلمٍ مـن بالعراق فما أخطأتِ مرماكِ

أنـتِ العـذابُ لقلبي والنّعيم له فمـا أمـرّكِ فـي قلبـي وأحـلاكِ

ـ إذن هذه الليلة سننجرف وراء حكايتنا! والرواية؟

- نعم، الرواية.. كما تريدين.

- ماذا قصدت بالنقطتين؟ هل أخمّن أنّك أردت «إلى الجحيم» أم «سنكملها» أم «الأمر لله»؟.

ضحك طويلاً، وكتب لي:

- بل الأمرُ لكِ... سأحدّثك اليوم عن عباس.

(تـراءت لعبـاس تلـك الذكـرى، وكأنّها واقع يعيشـه هذه اللحظة، هاهـم يسـتدعونه علـى عجـل، يرتدي ملابسـه بارتباك، يقبّـل يد والده، ويمضـي بإحسـاس مـن وقـع في فخ لا فكاك منـه. ليس من عادتهم أن يرسـلوا فـي طلبـه بهـذا القدر مـن التهذيب، تجاربه السـابقة مع أخطائه القاتلـة «مـن وجهـة نظرهـم» تقول إنّ هناك في الأمر التباسـاً، لعلّهم لا يريدون معاقبته هذه المرّة! قد يفاجئونه بطرده من الفريق فقط. لم يرتح لهذا الاستنتاج، فما يعرفه عنهم، لا يمكن أن يمنحه الإحساس بالارتياح. ربّمـا لأنّ تاريـخ الخـوف الممتد إلى طفولته البعيدة، ما زال يتربص به، يبرز له في لحظات نشوته العابرة بنصر لا يحمل سمة الفرح، لأنّه مقترن دائماً بخيبة لاحقة. وكلّما استطاع تجاهل إحساسه المر بقسوة حدث ما، اسـتطاع حدث آخر أن يخطف منه أمانه المؤقت، ورميه في أتون قلق جديد. تخترق صورَه المشوشة ملامحُ زوجة أبيه، فيضع أصابعه في أذنيه ليمنع صوتها الشـرس من التغلغل إلى روحه، وإيقاظ الذكرى المؤلمة

لأوّل عقاب تلقّاه منها. تعوّد في ذلك الزمن على شعوره بالوحدة والفقد بعد أن غادرت أمّه العالم إلى عالم أجمل، واستسلم لإحساس خادع بالرضا بقضاء الله وقدره، لكنّ أباه نسف أمانه المزعوم بزواجه من امرأة أخرى، أخبروه أنّها ستكون أمّه الثانية، ومع كثرة التسميات لم يستطع أن يتقبّل فكرة استبدال أخرى بأمّه، وإن كانت أجمل امرأة في الأرض! ونما بينهما شعور من النفور، سريعاً ما تحوّل إلى كراهية عميقة. كانت تتصيّد أخطاءه لتهمس بها لوالده، فيقوم بعقابه نيابة عنها. بدأ في تلك اللحظة يبتعد عن عالمهما، وتمضية وقته في البريّة قريباً من النّهر، مع صديقة التقطها مصادفة، وأصبحت رفيقته الدّائمة، يسرق لها الطعام من البيت، ويخبئها جيداً قبل عودته إلى المنزل مساء. لم يطل الأمر حتّى اكتشفت زوجة أبيه أنّه يخفي الطعام في ملابسه، ويغادر البيت. وعرفت أنّه يأخذه لشخص ما، لكنّها لم تتوقع أن يكون ذلك الشخص سلحفاة كبيرة، يخفيها في بيت طيني مهدّم قريباً من بيتهم! ولشدّة خيبتها من نوعية الجرم الذي أسرفت في تخيّله. حملت السلحفاة، وضربتها بالحائط، ولم يرتوِ غليلها، فتناولت حجراً كبيراً، وضربتها به. حاول أن يبعدها عنها بصراخه وبكائه وتوسلاته التي ذهبت أدراج الرّياح. بعد أن شتمته، وهددته، ومضت. حمل السلحفاة بهدوء، ووسّدها الحشائش، وجلس ينتظر أن تمدّ رأسها ثانية، ليتأكد أنّها على قيد الحياة! لكنّ السّلحفاة لم تستجب لتوسلاته، ولم يظهر رأسها من بيتها العظمي. غادر المكان بعد أن غطّاها بالمزيد من الحشائش، ولم يغمض له جفن تلك الليلة. وفي الصّباح قرّر عدم الذهاب إلى المدرسة، وحملها إلى طبيب قريب من حيّهم! فوجئ بسخرية الطبيب منه على الرغم من النقود التي أخرجها من جيبه ليدفعها ثمن العلاج. ربّت كتفه، ونصحه برميها والذهاب إلى البيت. لكنّه لم ييأس، عاد ثانية إلى البيت المهجور، وضعها هناك،

وأحضر لها ماءً وطعاماً. ولم يمضِ وقتٌ طويل، حتّى رأى رأسها يمتدّ بحذر خارج غلافها العظمي. حينها حلّق من دون جناحين، طارت روحه فرحاً، لكنّه أخفى الأمر عن كلّ معارفه. خاف أن يسرقها أحدهم منه، وعلى الرغم من حرصه الشديد، عاد في أحد الأيام من مدرسته ليجدها قد اختفت! ولم تسفر محاولاته في البحث عن نتيجة، لكنّه ظلّ متعلقاً بأمل العثور عليها يوماً. وتفتق ذهنه في ذلك الوقت عن فكرة أسعدته، لكنّه لم يعرف كيف ينفّذها. تمنّى لو استطاع حماية جسده من الضرب بالطريقة ذاتها التي حمت السلحفاة بها نفسها من الموت، وتخيّل مراراً أنّ جسده محمي برداء عظمي. يمنع عنه ضربات رفاقه، وعصا زوجة أبيه، ويصدُّ عنه ألم الإصابة التي تحدثها أحجار الطريق حين يتعثر بها أثناء هربه من المدرسة. متعته الوحيدة كانت في الذهاب إلى المدرسة الثانوية ومراقبة الأولاد الكبار وهم يلعبون الكرة!. كثيراً ما تخيّل نفسه بينهم، وحلم أن يصبح نجماً مشهوراً. رافقه ذلك الحلم حتّى تخطّى عتبة المدرسة الإعدادية، فتحوّل إلى حقيقة! حينها أصبح كابتن فريق كرة القدم للناشئين. وكانت تلك الخطوة الأولى في طريقه المزروع بالأشواك. اكتشف دفعة واحدة أنّ الأحلام ستبقى رهينة روحه، وأنّ الواقع الذي فَرَضَ عليه أن يتابع رحلته ضمن حقل الألغام، لن يترك له فسحة الاستمتاع بنشوة وصوله إلى المرتبة التي يطمح إليها. بدأ الحلم بالانكسار عند عتبة الثانوية حين اكتشفوا في ساحة الملعب صواريخ معدة للإطلاق، فاستدعي إلى الفرقة الحزبية، وتمّ احتجازه يوماً كاملاً مع رؤساء الفرق التي تلعب في السّاحة. يومها كان محظوظاً، فقد أطلق سراحه بواسطة أحد أقاربه العاملين في الحزب. اعتزل في البيت، ولم يعد يجرؤ على النزول إلى السّاحة، بعد أن اعتقل ثلاثة من زملائه بتهمة الانتساب إلى حزب الدعوة. وتمّ إعدامهم! حرص على البقاء وحيداً

خلف باب مقفل لأيام طويلة، تخيفه كلّ حركة يسرّبها سكون الليل، ويتخيّل أنّهم قادمون لاعتقاله! وحين تسرقه إغفاءةٌ عنوةً من تخيلاته، يجد نفسه معلقاً على عمود نور، يتأرجح جسده وسط ريح مخيفة، تصفر بعنف، والغربان السّود تنقر جسده، فتنبثق دماؤه بقوة، توقظه ثانية، وتأخذه إلى الحمّام، ليفرغ مثانته، ويرتجف تحت وقع الماء البارد فوق رأسه. لم تدم تلك الحالة طويلاً، فقد بدأ الاختناق يأخذ بتلابيبه كلّما أغلق الباب، واستلقى في فراشه، يشعر بحاجته للصراخ عالياً، واحتضان تلك الريح بين ذراعيه، والتّصالح مع الغربان السود، فيخرج إلى النّهر، يركض على شاطئه مسافات طويلة حتّى يهدّه التّعب، فيستلقي عاريا على ضفته، يعجن الطين، ويمرّغ به جسده، ويعرّضه ساعات للشمس، حتّى يشعر بالتّصلب في أعضائه المشدودة داخل القالب الطيني المشوي في حرّ الظهيرة! معتقداً أنّه سيمتلك بذلك قوة تقاوم آلامه مهما اشتدت! فكّر في استبدال الطين بمادة البنج، وبحث جدياً عن عشبته على طول الضفة، من دون جدوى. فاستبدل تلك الفكرة بالغوص في النّهر زمناً طويلاً علّ الماء يمنحه القدرة على عدم الإحساس بالألم! تدريجياً صار يشعر بخفة جسده، وتمرّن على فصل إحساسه بجسده عنه، بالتركيز الشديد في فكرة بعيدة جداً عن واقعه المعيش. وكانت تلك خطوة جيدة ساعدته على تحمّل الوضع القاسي في الجبهة حين استدعي إلى البصرة أثناء الحرب الأولى، حيث بقي ثلاثة أشهر. واستمرّ تدريبه أثناء الدراسة في الجامعة المستنصرية على السلاح داخل الحرم الجامعي. حادثة واحدة تؤطر صورة ذلك الزمن، أحمد بملابسه المدنية في قاعة الجاحظ، يحضر مادة الثقافة القومية، تغاضى عن الأمر، وكأنّه لم يره. حين انتهت المحاضرة، انتحى به جانباً، وسأله: «لماذا أنت هنا؟ ألا يجب أن تكون في كليتك؟» . فقد تقدما

إلى الكلية العسكرية معاً، ومع أنّه كان الأوّل في اختبار الجري، والأوّل في اللياقة البدنية، ولكن طلبه رفض، وقُبل أحمد، ومن يومها لم يعد يراه إلاّ مصادفة! أخبره هامساً بأنّه ضابط أمن في الكلية، وأوصاه أن لا يخبر أحداً. وهكذا انكشفت أمامه شبكة الأمن الموجودة في الكلية مع رئيسها المباشر، وأراحه أنّ أحمد حافظ على الصداقة، ورفعها فوق الواجب! وقبل تخرجه بأشهر جاءه العرض الأكثر إغراءً، والأقرب لتحقيق حلمه بالنجومية، والظهور كلاعب على مستوى عالمي، فرصة لا يمكن أن تتكرّر، ستنقله إلى اللعب في مباريات دولية. ومن دون تردد قبل الانضمام إلى «نادي الرشيد». هذه المرّة نسي تاريخه الحافل بالخيبات، وتصوّر أنّه سيتخلص من أزماته كلّها، ويبدأ صفحة جديدة، بيضاء تماماً، بلا ذاكرة. لكنّ التّاريخ أبى إلاّ أن يذكّره بأنّ كلّ فرحة يعقبها ألم كبير. لم يكن السبب في خسارة فريقه لتلك المباراة، مع هذا وجد نفسه مع أعضاء الفريق في منطقة طربيل الحدودية، حيث تمّ نقلهم إلى إحدى المزارع، وهناك أمروهم من طلوع الشمس حتّى غروبها، بالعمل في مساحة شاسعة، لا ترى العين على مدّ النظر سوى اللهيب المعشي للعينين، وبقايا زرع أصفر وحشائش يابسة، تقطّع لحم الكفين كحدّ سكين! كان عليه أن يقلّب التّربة، يزيح الصخور، يقتلع الأعشاب الجافة والأشواك، يحملها على كتفه إلى الطرف الآخر، وألا يتوقف، حتّى لمجرد مسح العرق المتساقط من جبهته، أو لعق الدّماء من كفيه، أو التقاط أنفاسه المتلاحقة، فالسوط الذي يساق به الحمار المرافق للمراقب يطاله في لحظات، في أيّ مكان من جسده بعشوائية متعمدة، فيكون عليه وقتها أن يعفّر جسده بالتّراب لوقف النزف، ومتابعة العمل!

نظر إلى البعيد، وأيقن أنّه بحاجة لاستحضار قواه الذهنية ليقاوم

العطش والجفاف، فلا ماء يعجن به التّراب ليشكّله دِرعاً فوق جسده، يحميه من حرارة قاتلة، وألم ممض. ولم تفلح محاولاته في حفر التربة والمكوث في حفرة يتنسم منها رطوبة الأرض! الملجأ الوحيد الرطب هو إسطبل الأبقار، حيث ترتمي الأجساد ليلاً، وتذهب خلال دقائق إلى دنيا النوم. لم يكن لينام بتلك السهولة، التّعب يحفز جسده للمزيد من المقاومة، والشقوق المؤلمة في كفيه وقدميه، تستنفر حواسه كلّها لتبقى مستيقظة. ساعده يقينه على تجاهل أوجاعهما وهو ينظر إلى سماكة الجلد، ويتصوّر أنّه يتحوّل إلى درع عظمي! قبل أن ينتهي شهر العقوبة، كان ينظر إلى التراكمات من الجلد الميت في كفيه، على أنّها نقطة لصالح فكرته عن الانفصال النهائي عن آلام جسده. وها هي الحرب تنقذه من أقسى تجربة عاشها بعد مباراته الأخيرة مع المنتخب الوطني، لم يكن يومها بكامل استعداده للمباراة، بعد نزلة برد شديدة، اجتاحت صدره، وأقعدته أياماً في الفراش. ومع هذا لم يجرؤ على الاعتذار عن اللعب، نزل إلى الملعب، والدوّار ينبئه أنّ العقوبة ستكون مختلفة هذه المرّة، إن لم يكن أداؤه بالمستوى المطلوب. سريعاً ما تحققت النبوءة، وطار الهدف الذي سيحقق للفريق الفوز من بين يديه، ووقع أرضاً في الملعب! وبعد يومين من المباراة، استدعي إلى مبنى اللجنة الأولمبية العراقية. لم يهجس بأسوأ مما حدث، فقد أثبتوا له ـ حين سمع صوت غطاء التابوت الحجري مدوياً في القاعة الكبيرة، وهم يغلقونه عليه ـ أنّ مخيلته فقيرة جداً، ولا يمكنها اللحاق أبداً بأساليب تعذيبهم المبتكرة، وعليه لن يستطيع جسده المدرّب على احتمال الألم أن يقاوم الاختناق إلا لفترة محدودة، وإن تغلّب على ألم المسامير التي راحت تنغرز في لحمه بشهوة سكين جزّار، تلج في جسده بمهارة ودربة، فتسيل الدّماء، تملأ كفيه السميكين، لتشعره أنّ ما يجري لا يمكن أن يخطر ببال

كوابيسه، وأنّ ذهنه مهما حلّق في آفاق بعيدة، لن يلغي إحساسه بالألم! مع هذا حاصر ألمه، وحصر تفكيره في تنفسه، فكان يكتمه لحظات، ثمّ يستنشق بعض الهواء بمقدار... لم يكن من السهل أن يتابع تلك العملية التي تدرّب عليها تحت الماء لأكثر من دقائق معدودة! وحين بدأ يشعر بأنّ الأشواك تمزق صدره، وتلاشى ألم المسامير نهائياً، دوى ضجيج آخر، أصمّ أذنيه، واندفع الهواء، والضوء داخل التابوت، ودخل في غيبوبة طويلة!

لأجل ذلك، لم يكن لسجنه هذه المرّة في «الرضوانية» أيّ تأثير على معنوياته، بل وجده أقلّ شأناً من كلّ العقوبات التي مورست على جسده خلال حياته!).

***

حين عدت إلى بيروت عام 77، كانت عمتي تسكن في شبه بيت مؤلف من غرفتين تابعتين لحديقة إحدى البنايات مع أبي.. عرفت حينها أنّها خرست تماماً، بل ربّما أصيبت بالصمم، فقد كانت لا تلتفت لمصدر الصوت، ولا تحدّث أحداً.. مع هذا ابتسمت حين رأتني، وهزّتها الدموع المحبوسة في مقلتيها، عرفت من أبي أنّها كانت الناجية الوحيدة في الملجأ! وأنّهم وجدوها في حالة يرثى لها تحت الركام بعد قصف المكان بصورايخ دمرته، وقتلت من فيه!.. روّعني الحديث، لم أجرؤ أن أسأل عمتي عن يوسف.. لم أجرؤ أن أسأل أبي، لكنّه أخبرني أنّ البعض غامر بروحه، وغادر الملجأ، لكنّه لا يعرف من بقي منهم على قيد الحياة!. ثمّ نظر صوب عمتي نظرة متواطئة، هزت عمتي على إثرها رأسها بأسى، وتناولت ابنتي مني، وابتسمت.. أبي تجلّد، وغالب دمعة غافلته ـ هكذا تهيأ لي ـ ونهض مغادراً المكان! عرفت فيما بعد، أنّه لم يشأ أن يقول لي وقتها، إنّ ابنتي ستتربى يتيمة الأب!

سعى أبي لتدبير عمل لي مدرّسة لمادة الرسم في إحدى المدارس في بيروت، واستأجر لي غرفة في البداية عند أرملة عجوز، ثمّ انتقلنا للعيش معاً، مما أفرح عمتي، لأنّها وجدت تسلية لها في تربية ابنتي والعناية بها! كنت أشعر أنّ روحها ارتدت إلى جسدها في تلك الفترة. لكنّ لغة الحوار بيني وبين عمتي كانت مفقودة بسبب خرسها، كما كانت مفقودة مع أبي بسبب اختلافنا في الرأي دائماً.. كان ينتقد أناقتي بقسوة، وينتقد ملابسي، وتسريحة شعري، ويستنفر كأنّه في معركة إن لمح أصباغاً على وجهي! لكنّ الحرب عادت لتفصل بيننا، هذه المرة بشكل نهائي! أصرّ والدي أن نغادر بيروت أنا وابنتي وعمتي إلى دمشق، قبيل الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في آب 1982 بأيام.. لم أستطع الاعتراض حين نظرت في وجه ابنتي الغض، لكنّ عمتي رفضت بكلّ قوتها، حتّى أنّها دفعت أبي عنها، ودخلت غرفتها، وقفلت بابها بالمفتاح!.. كانت آخر مرّة أراها فيها.. عرفت بعد ذلك أنّها ماتت تحت ركام منزلنا هناك! أمّا أبي فقد غادر إلى تونس مع عرفات وقواته.. وهكذا طويت صفحة عائلتي بأكملها.. تزوجت أمّي وهاجرت إلى أمريكا مع زوجها.. واستقرّت حياتي في دمشق أرملة شابة تربي ابنتها الوحيدة، من عملها، ونشاطها كرسامة.. كنت أملك طموحاً أكبر من مجرد معارض عابرة في دمشق، ومن وظيفتي وبيتي وحياتي البسيطة! لكنّ ابنتي كانت عقبة دائماً في وجه طموحاتي، لم أكن أستطيع اتّخاذ قرار الهجرة لأجلها، أردتها أن تتعلّم، وتعيش في وسط عربي تشعر فيه بالأمان. هل أهرب من الواقع المحبط حولي بذكريات أشدُّ إحباطاً؟

توتري جعلني ألتمس الأخبار في مواقع الانترنت. فتحت بريدي، ففاجأني أنّ غفران قد كتبت لي!

....

(«حكايانا معهُم .. أشبهُ بأمسيةِ شتاء على قاربٍ مثقوب..

موجةٌ تحلّقُ بمشاعرنا نحوَ فضاء الرفض.. وهمسةٌ تودي بنا إلى قاعِ التشتت.. ونعود نرتّق ماتمزّق بلحظة صدق...

لستُ أدري لمَ نبتلعُ ألسنتنا؟ كلّما شارفت على الجهر في وجوههم، بأنّهم ماعادوا قادرين على استمالتنا، وبأنّ الزيف قد غطّى أهدابهم، ونبت تحت ألسنتهم، حتّى كاد أن يغمرهم... وقبل أن نستجمع قوانا بلحظات لنصرخ «كفى» يغمرنا الماء المتسرب من ثقب كان بإمكاننا أن نسدّه بغطاء زجاجة كانت بداية غرقنا..

أم كلثوم تشجيني هذه الليلة .. كان لك معايا أجمل حكاية في العمر كلّه... سنين ومرّت زي الثواني بحبك أنت.. وإن كنت أقدر أحب تاني أحبك أنت..!

مساؤك فل وياسمين...»

أيّتها الرائعة الحنون.

ألم أخبرك قبل الآن أنّه فلسطيني؟ كنت أظنّ أنّك حدست أنّنا أنا وأنت أقارب بالمصاهرة! ابتسمي أولاً، قبل أن أحكي لك..

لم أكد أرفع رأسي المثقل بصور المجازر، ونبض كلمات نازفة، عن أوراقي المسودة برماد الحرائق، لأريح عينيّ برؤية لوحة خضراء، وضعتها على الجدار المقابل لي؛ حتّى صدم نظري لونٌ بني قاتم، سدّ فتحة باب الغرفة التي أعمل فيها. لم أعرف للوهلة الأولى أنّه لون بدلة على جسد إنسان! حتّى تحرّك بحيوية، وتقدّم مني معرّفاً بنفسه، ماداً يده لمصافحتي. أُخذت على حين غرة، لامستْ كفي كفَّه، وتعلقتْ عيناي بتفاصيل ملامحه السمراء الجذابة، وكان يمتلك من البديهة ما جعله يلتقط تلك النظرات، ويحوّلها إلى كلمات إعجاب، تدفقت من

شفتيه بلا توقف. ثمّ جلس على الكرسي المقابل لي، واقترب برأسه هامساً: «أعتقد أنّها لن تكون المرّة الأخيرة التي نرى فيها بعضنا». وتركني أتخبط بفوضى مشاعري، وخرج! واكتشفت أنّي لم أتذكّر حتّى اسمه! وأنّ ما تركه لي بضع كلمات مشوشة عن إعلان لشركة يعمل فيها، تريد نشره في الجريدة التي أعمل فيها، وعلى الرغم من أنّه لا علاقة لي بقسم الإعلان، قصدني! ربّما هي أقدارنا التي هيئت له اختيار الغرفة الخطأ، لنبني على أخطائنا معاً قصّة حبّ عنيف، شهدتها الشوارع والحدائق والغرف الصغيرة المغلقة! أخبرتك يوماً أنّي كنتُ في إجازة من العمل بسبب وضع ساقي بالجبس! ربّما لم أخبرك وقتها، أنّ السبب كان الزلزال الذي هدم بيتنا، بيت العائلة، وجعلنا نلجأ إلى بيت أختي المقيمة في باريس. ومالم أقله حينها، أنّه كان يزورني حاملاً الورد، والأمنيات.. حتّى شعرت أنّ أجمل ما في الدّنيا أن يهدم الزلزال بيتك، لتجد قلباً شاسعاً بحجم وطن لتقيم فيه! لكنّ الوطن الأكبر أبى أن يمنحني تلك الفرحة لمدّة أطول، إذ استدعاني رئيس التّحرير طالباً مني الالتحاق بالعمل، أو تقديم استقالتي، لأنّ المكان الذي أشغله بحاجة لرجل يتحمّل مسؤولية الركض وراء الحدث! مُعرِّضا بذلك بساقي وأنوثتي. لم يكن حصولي على العمل الذي أقوم به في قسم الحوادث بتلك السهولة! لقد أثبتُّ جدارة على مدى عامين بملاحقة الحدث معرّضة نفسي لخطر الاغتيال على حافة طريق، أو الذبح في مجاهل جبل، أو حتّى في شارع مزدحم.! مع هذا لم أكن لأتخلّى عن موقعي لأحد، لو لم يجبرني الجبس على ذلك.

وجدت نفسي فجأة بلا بيت، بلا عمل، بلا وطن! حتّى ذاك الذي فاض ورداً وندى!

لم ألبث أن صحوت فجأة على اختلاف رؤيتنا للحياة، واهتماماتنا،

فقط كنا نشترك بالانتماء إلى أوطان مسلوبة بشكل أو بآخر، نعاني الظلم ذاته، والنفي والاضطهاد. كان مندفعاً لاتّخاذ خطوة الزواج، وكنت أميل إلى الموافقة، في الوقت الذي تلقيت فيه اتّصالاً من أختي تقول فيه: إنّ زوجها استطاع أن يؤمّن لي عملاً يتناسب ومؤهلاتي في دار نشر فرنسية. لا أخفيك أنّي طرت فرحاً بتلك الفرصة، وتدفق الحلم جارفاً من طريقه كلّ الحصى الصغيرة. صرت أراه من زاوية أخرى، كفة الحلم بالعمل والاستقرار وترجمة روايتي وطباعتها، رجحت. رأيتني أخرج من وطن يجلس على حافة بركان، كثيراً ما غمرتني حممه، ورمتني بعيداً من دون مأوى. مع هذا ودّعته بغصة والتفاتة، حاولت فيها، أن أختزن في ذاكرتي كلّ تفاصيله وأشيائه الحميمة.

لم تطل إقامتي في باريس. لأنّي عدت أفكّر بطريقة الفقير الذي لا يتخلّى عن ثوبه البالي، وإن وضعوا بين يديه كنوز الدّنيا. هي الإلفة، العشق، الحماقة؟ سمِّه ما شئتِ، ليست التّسمية مهمة، المهم أنّي منذ البداية شعرت أنّ العمل ليس مناسباً لي، ولا يحقق طموحي، وأنّي أقضي ساعات طويلة أفكّر بالعودة، ولم أكن بحاجة سوى إلى هاتف عابر منه كي أعود!

عدت محمّلة بشوق إلى استقرار من نوع آخر! لم أعد أهتم أن أكون إنسانة منتجة مستقلة مادياً. مم يشكو حال أمهاتنا؟ ألم يكنّ سيدات مستقلات على الرغم من أنهنّ لم يعملن خارج البيت يوماً؟

هكذا تزوجت!

إنّه أمر يدعو إلى الشفقة، كلّما نظرت إلى حجم الخسائر التي وقعت لقلبي منذ طرق بابه أوّل عابر سبيل، لم تمهله الحياة ليرشف من مائه سوى جرعة، لا تروي ظمأ عاشق. شربها دفعة واحدة، كما

جاءه الموت في أوّل الطريق دفعة واحدة! كنّا على أهبة الحبّ، ننسج الدرب بخيوط صبرنا، ونخيطه بأمل تمنحه لنا ثقتنا بمقدرتنا الشخصية على تجاوز العقبات، التي يضعها جزارو الوطن في طريقنا. حين تمزّق الحلم فجأة على يد إرهابي، طعن الحلم في الظهر، وتركه ينزف على قارعة طريق مفخخ بالجثث المتعفنة، أثناء تصويره لمجزرة طازجة! كان يصور الوطن الممزق، وضحاياه البسطاء، وأكتب! سلاحنا كاميرا وقلم، وصفحات جريدة تتعرض للزلازل السياسية كلّ فترة، فتغلق، ليعود صاحبها لمراضاة الحكومة بتغيير طاقمها العامل، والتطبيل للوجوه المتخمة بدماء الأبرياء. أشعر أنّي أثقلت عليك...

منك المغفرة، والعفو...

وحيّاك الله، وحماكِ دائماً.

غفران.

***

ـ هاأنتِ تضيئين النافذة، وقلبي...

– سأرسل لكَ الملف لتقرأه كما صغتُه..

– هاتِ.

– أليست بحاجة إلى ياء المؤنثة المخاطبة؟

– الياء تكون لمن لديهن نقصٌ في الأنوثة، تحسسي حضورك، فإنّك تملئين المكان سيدتي، أكتب الحروف، وأتأملك، فيجلّلها جمال وجهك. فأردد في نفسي: «يزيدك وجهه حسناً – إذا ما زدته نظراً[21]» أعيريني أناملك ليلتي هذه، فإنّ الله سيكتب شاعراً في لوحه المحفوظ اليوم.

(21) أبو نؤاس

«فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسودّ
ضدان لما استجمعا حسُناً والضد يظهر حسنه الضد[22]»

ـ أردتُ أن تراني كما أنا، فلا يأخذنك الخيال بعيداً.

– فإذا بك تشعلين الليل، حين أردت أن تطفئي المساء!

– ....

– كم أحبّ الصمت الآن وأنا معك!

– يكفي، لا أريد أن أخوض البحر أكثر.

– لا فرق حين يبلّلنا ماء البحر، فهو واحد عند الشاطئ وفي المنتصف.

– إذن سيان، فقد تبلّلت بماء البحر.

– ولكنّ الماء حين يبلّل الرّوح، ليس كما يبلّل الجسد، فما الجسد إلاّ انعكاس للرّوح! ستظلُّ روحي موصولة بك، سلام لي بروحك، فإنّك سلام بروحي... كيف أمضي، وأترك هذا الجمال كلّه بربك؟ يالله ما أجمل ابتسامتك! لخاطر الله.

– ألا يكفي؟ قم إلى النّوم، أخشى عليك من الأرق.

– **تخشى عليّ من الأرق**

لا تدري سحرٌ قد سبق

بيضاء فتنة وجهها حرفٌ بما شاء نطق

غرقتْ بها كلماته والليل فيها ما غرق

ضوءٌ وتدري ضوؤها فيه الكلام قد احترق

ردّي على كلماته تالله ما فيه رمق[23].

---

(22) اليتيمة/ يُرجّح أنّها لدوقلة المنبجي، والله أعلم، فقد كثرت الروايات حولها، ونسبت لأكثر من شاعر!.

(23)

– ردّ أنت على ما جاء في الملف إن كنت تقترح تعديلاً ما... هل ترغب أن نتابع الحديث الليلة، أم أنّك ستنتظر حتّى تقرأ ما سبق؟

– لا، بل سأتحدّث، أنت أدرى بالتعديلات اللازمة، سأكمل حديثي عن فترة الحرب الثانية التي قضيتها في محافظة ميسان، في الخطوط الخلفية.

(توجهنا إلى «الكوت» [24]حيث معسكر التّدريب، في منطقة لا يحيط بها شيء، كان ذلك قبل بدء الحرب، وبعد اغتيال حسين بفترة قصيرة، مازال جرح القلب ساخناً، كلّما سمعت صوت أحمد يناديني، ينتفض جسدي من الألم، ويبرز وجه نعمت من صفحة الذاكرة، ليحرّضني على كراهية كلّ ما يحيط بي! خيّل إليّ أنّي رأيته هذا الصّباح، يُخرج من حقيبته رسالة ملونة، يقرأ، ويتنهّد. حين غادرت البيت إلى سدّة النّهر ليلة أمس، خيّل إليّ أنّي رأيته ثانية، لا أعرف الدّافع الحقيقي الذي جعلني أتبعه، وعلى الرغم من أنّ العتمة ابتلعته، لكنّي أحسست بارتجاف الدّمع في عينيه مترافقاً مع صوته المرتعش المترنّم بوجع «يا ناي مثلك قلبي مجروح، ومرادفة الطعنات فيّ». كثيراً ما تساءلت: ما الطعنة التي تلقّاها أحمد؟ حين عدت من الحرب، فكّرت في لقاء نعمت، رغبة طائشة كانت تدفعني لاقتراف إثم لقائها بحجة معرفة الحقيقة، لكنّي تراجعت عن حماقتي في آخر لحظة. عدت إلى البيت، استقبلني صادق بقلق: «أين كنت؟ شغلت بالي». لم أستطع أن أقول إنّي ذهبت للقاء أحمد، خشيت سخرية صادق، أو عدم فهمه!. في الصّباح أتت الأوامر بالانسحاب إلى موقع آخر. التهمت الشائعة أعصاب الجنود، «بدأت الحرب». طيلة الوقت في معسكر التّدريب،

(24) منطقة تبعد عن بغداد 180 كيلو متر

كنـت أعيـش موتـاً مؤجـلاً، أتحايل عليه بحياة في عالم آخر، أنسـحب إلى كتبي، أقرأ، لأغتال الوقت، والذاكرة، والتّوقعات التي يعيش عليها الآخـرون. وصلنـا منطقـة في طور البناء، هياكل لبيوت لم يتم إكمالها، للحظـات طعنتنـي الصـورة التي تراها العين، وتلـك الصّورة التي رأتها الـرّوح. بنـاء لـم يكتمـل، وآخـر انهـار تحـت القصـف، كلّهـا هياكل! ونحـن؟ سـنغدو مجـرد هيـاكل، قد تبقـى هكذا في منطقـة معزولة في الخـلاء، تعبـث بهـا الريـح، وأيدي الغربـاء!. تناثر الجنـود في البيوت، جيـش يشـعر بالهزيمـة قبل حدوثهـا! نظرت حولي، دجلـة يفصلنا عن مركز مدينة الكوت، ونحن مضطّرون لعبور النّهر كلّ مسـاء للتسـوق، لذا اتّخذت قراراً وسـط الفوضى التي تعمُّ المعسـكر. اسـتأجرت غرفة فـي عمـارة قريبـة من مركز المدينة مع بعض الرفاق، نقضي فيها الليل، ونغادر في الصباح إلى المعسـكر. عشـنا على حافة الانتظار، فلا شـيء يحـدث هنـا، ولا أحـد يتذكّر وجودنا. تسـليتي الوحيـدة، الجلوس كلّ مسـاء عند السـدّ، أراقب تدفق الماء، وحركة الأسـماك، تدفعني شـهوة غامضـة للارتمـاء في حضـن الماء، والتّخلص من ذلك الانتظار الممل لضربـة القـدر الأخيـرة. لم يسـعفني الوقت لاتّخاذ تلـك الخطوة، فقد بدأ الهجوم بالطيران، وفجأة وجدت نفسـي مع أصحابي، نتدحرج من الطابـق الثالـث للعمـارة هربـاً من الانهيـار القادم، ونحـن نتعثر ببعضنا وسـط الظـلام المطبـق بعد انقطـاع الكهرباء. حين تنفسـنا الصعداء في الشـارع، وركضنـا نطلـب الجسـر للعودة، سـبقتنا الطائـرات، وضربت سـدّة[25] الماء ـ رفيقتي خلال الأشـهر الماضية ـ والجسـر الذي يربط الكوت بمدينة الناصرية. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ونحن نركض وسط لهاثنا المحموم في البحث عن زورق يقلنا عبر النّهر إلى

(25) شيّدها الإنكليز أيام احتلالهم للعراق

المعسكر. وصلنا في حالة يرثى لها من الرعب والفوضى، وجاءت الأوامر سريعة بالانتقال إلى موقع آخر. في الصباح اجتمعنا في ساحة العرض للتّعداد، وفجأة سمعنا إطلاق نار من جهة باب النظام، ارتبكت حركة الجند، وفرّ القادة قبل تبيّن الأمر، فتدافع الجند صوب السّور، الذي انهار تحت أجسادهم بأكمله! وسط ذهولي، فاجأني الضحك، هاأنا أرى بعينيّ، أنّ قوة الخوف لألفي مجند، دفعت سور المعسكر أرضاً، فأين منها قوة المقاتل؟ ما آمنت به دائماً يتجلّى الآن، الإيمان بما أقاتل من أجله، فإن لم أمتلك ذلك الإيمان، فلمَ لا أفرُّ؟ جيش مهزوم من داخله، هل يبقى في المكان، ليصلى نار الطيران؟ لم أستطع يوماً أن أقتنع بأنّي أقاتل عدواً لي، الفكرة كانت مرفوضة تماماً، فأنا لا أؤمن بعدالة حربنا، وأدرك أنّي أنفّذ رغبات نظام مزاجي! لذلك كنت على استعداد لتقبّل الهزيمة، بعد أن فرّ قادة الوحدات العسكرية، وظلّ الجنود مع آليات مُدمّرة في حالة فوضى! فتفرّقوا كلٌ باتّجاه. في تلك الأثناء رجع الكثيرون ممن كانوا في الكويت مشياً على الأقدام. على أنقاض الجسر، يعبر أمامي آلاف الجنود القادمين من الناصرية، أو ميسان. فكّرت بقلق هل سأجد أهلي بانتظاري؟ طردت الخاطر المزعج على الرغم من يقيني بأنّ القصف لم يستهدف الجسور ومعسكرات الجيش فقط، ومع أنّ الاتصالات مقطوعة تماماً، ومنظر الجيش العائد ينبئ عن كارثة، إلاّ أنّي تشبثت بأمل الخروج من الجحيم الذي أعيشه، سيكون خلاصي بالتأكيد حين أصل بغداد. وإن طال انتظاري لوسيلة نقل توصلني إلى هناك. حين حلّ المساء، افترشت الأرض مع رفاقي، وأغمضت عينيّ، ما همّ! البرد، الريح، المطر، ما همّ وإن اجتمعت أبواق الطبيعة كلّها لتصفر في أذنيّ، وتسحق أعصابي؟ لم يعد مهماً ما يحدث، حتّى الانتظار، لم يعد يعنيني. سوف أنام وسط جحيمي،

وأضحك ملء روحي، وأحلّق على جناحي نورس فوق الجسر المحطّم، و... هل يعقل ذلك؟ ولمَ لا؟ فلأجرب أن أرمي نفسي في الماء! وبعد؟ صرخت بأعلى صوتي، لكنّ أحداً من هؤلاء الذين لم تعد أجسادهم تحملهم، فآثروا طين الأرض، لم يلتفت لصرختي. ولم يحرّك رأسه بحثاً عن مصدر الصوت. آذانهم كانت مبرمجة على صوت بوق واحد إن سمعوه التفتوا، بحثاً عن مكان في حافلة مهترئة، تسحب جسدها المعدني الصدئ ببطء على درب مزروعة بفخاخ المفاجآت والخوف. مع حلول الليل، سيطر عليّ هاجس يائس، بأنّي سأبقى في جحيمي إلى الأبد، ولن أجد من يحملني إلى بغداد. لكنّ حافلة مثقلة بالجنود خيّبت ظني السيئ، ووقفت حيث افترشت مجموعة من الجنود الجرحى الأرض، محتضنين أنينهم، وانكسارهم. انحشرت في بطن الحافلة، مع عشرين جندياً، لم يجدوا لهم مكاناً للجلوس، ومضت «الريم» [26]تخبّ على الدرب طالبةً بغداد.

وصلنا في الثانية عشرة ليلاً، دخان الآبار التي أحرقها العراقيون، غطّى الأفق، ووصل حتّى بغداد، أمطرت السّماء رماداً، ونحن ننزل في كراج النهضة. على الرغم من الرّيح التي تصفر في شوارع فارغة من الناس والسيارات، والأمطار التي تدفقت لتزيد اللوحة بؤساً، والأرض أفرزت روائح منتنة، والمياه القذرة تناثرت تحت وقع خطواتنا لترشق ملابسنا التي لم تعد تحمل لوناً أو هوية. لا شيء سوى الفراغ والسكون، والجنود في كلّ مكان. كراج النهضة في جانب الرصافة، وبيتي في جانب الكرخ! أحدهم اقترح الذهاب إلى كرّاج العلاوي[27]... لم يكن الحال هناك أفضل، اضطررنا للانقسام إلى مجموعات، والانتشار

(26) نوع من الحافلات.

(27) سمي كذلك بسبب وجود علوات للخضر فيه سابقاً

حسب جهات بيوتنا. العتمة المطبقة، لم تمكّننا من معرفة الجّهات على وجه الدقة، لكنّنا التمسنا الحدس ورأي الأغلبية. مررنا قرب المجلس الوطني، الفراغ المسيطر على المكان أغرانا بالضحك، ثمّ أمام جهاز المخابرات، فصاح صادق بصوت عال «ما أجمل أن تسير ولا أحد له سلطة عليك، طز في هؤلاء جميعاً» ضحك الجنود، على الرغم من ألمهم! شعرت أنّني أمتلك جناحي نورس في تلك اللحظة، امتلكت حريتي كاملة، شتمت السلطة والرئيس بملء صوتي، ولم أسمع ردّاً سوى صدى صوتي، رحت أضحك من حماقة اللحظة وجنونها! بعد ساعتين من السّير وسط ظلام شديد، وصلنا «كراج مدينة البياع» لكنّنا لم نجد أيّ سيارة هناك. رميت سلاح الجريح الذي اتكأت عليه طوال الطريق بعد أن انفصلت المجموعة، وبقيت وصادق نلتمس الطريق، معبّآن باليقين أنّنا سنصل قريباً! اشتدّت الظلمة، وأصبحت الرؤية شبه مستحيلة. الجوّ البارد، والمطر، ونحن نجوب الشوارع الخالية إلاّ من الخوف والترقب. رحنا نتسلّى بمناداة بعضنا، ولم نجد بداً من التماسك بالأيدي، والسّير ملتحمين في مواجهة خوفنا. أخيراً لمحنا ضوءاً خافتاً في البعيد، صرخ صادق: «لا شكّ أنّنا وصلنا، تلك بيوتنا». سألته بشكّ: «أمتأكدٌ أنت؟ قال صادق بارتياح: «بلى». سرنا تجاه الضوء، تارة نخرج عن حدود الشارع المبلط، فنغوص في الوحل، فنقرفص لنلمس الأرض بأيدينا، ونتأكد من حدود الشارع، لنسير عليه. طرقنا باب المنزل المضاء، وسمعنا صوت صاحبه يسأل: «من هناك؟» رددنا بلهفة: «جنودٌ تائهون». فتح الرجل الباب بعد إلحاح من زوجته، حين رأى وجهينا، وقد غطّاهما الوحل الممزوج بالدخان، ارتبك، وفكّر بإغلاق الباب. سألته متوسلاً: «فقط قل لنا يا عم، أين نحن؟» ردَّ الرجل «أنتما في منطقة قريبة من المكاسب». أحسست بطعنة الخيبة، تكاد توقف قلبي، إنّنا في أطراف

بغداد، وبيتي بجانب السيدية، وعليّ أن أمشي أربعة كيلو مترات لأصل! قلت بتوسل: «يا عم، أنا لا أعرف هذه المناطق، قل لنا فقط، في أيّ اتّجاه نسير؟ يميناً أم شمالاً؟». قال الرجل: «شمالاً». شكرناه، وتابعنا سيرنا. لا أعرف كيف استطاع جسدي حمل رأسي، فقد شعرت أنّني أتشظى إلى عشرات الرؤوس، ثقلٌ لا يطاق فوق كتفيّ، ودوار ألمّ بي، فصارت عيناي تريان البيوت بيتاً واحداً، بعد أن اتّضحت الرؤية قليلاً، الأبواب نفسها، الشوارع نفسها، التشابه يكاد يطحنني، راح جسدي يرتجف، وأنا أكتشف أنّني لا أستطيع الوصول إلى بيتي، ولا أعرف أن أميزه وسط هذا التشابه المخيف. أخيراً أنقذتني مدرسة، دلّتني على الطريق. عرفت أنّني وصلت!. ثمانية أشهر من الغياب، ثمانية دهور، ودهر من المشي القاتل، كنت بحاجة لشيء واحد، أن أستلقي في أيّ مكان، وأنام، حتّى وإن كان نوماً أبدياً. قلت لصادق: «حسناً يا صاحبي، لقد وصلت، رافقتك السلامة». وافترقنا. طرقتُ الباب، فتحت أمّي وكأنّها على موعد معي. نهضت في الخامسة صباحاً، هاتفٌ ناداها لتصلي الصبح، وقلبها يرتجف، حتّى أنّها حين سخّنت الماء، فكّرت فيّ، وقالت لنفسها: «لعلّ الحسن بحاجة للاستحمام، وهتفت «يا قلبي». وقبل أن تكمل جملتها، سمعت صوت الطرقات، تعرف ذلك الإيقاع جيداً، تعرفه بروحها، وتعرف أكثر، أنّني رددت على نداء قلبها، لم أتركها لليأس، مع هذا لم تصدق عيناها، أنّها تراني! صرخت باكية، وأغمي عليها. عرفني قلبها على الرغم من الإعياء وضياع الملامح. والدي سألني بقلق: «أنت في إجازة؟ أضحكني السّؤال، هززت رأسي، وقصدت غرفتي، صرخ فيّ: «تريد أن تنام، وأنت على هذه الحال من القذارة؟» استفقت قليلاً من ذهولي، رائحة بخور أمّي، ورائحة حنانها، ألفة افتقدتها طويلاً. دخلت الحمّام، وفتحتُ صنبور الماء، ضجيجه

وهو يرتطم بالحوض الفارغ، أشبه بطلقات مدفع تأتي من مكان بعيد، استسلمت لتدفقه فوق جسدي، تدريجياً، أحسست بالغواية من جديد، تطرد التّعب، وتنسف كلّ الذكريات المرّة، وكأنّني لم أغادر المكان الأليف، رائحة الصابون المنعشة، وعضلاتي تتمطّى بانتعاش، أثقلا روحي بمتعة فريدة. خرجتُ متثاقل الخطوات، لم أستجب لإلحاح أمّي في تناول الطعام، النّوم هو كلُّ ما أحتاج إليه. لكنّ نعمت فاجأتني قبل أن أسقط في النوم، بضحكة هزّت جسدي، وبعثتْ فيه نشوة الصحو من جديد. نعمت! أين هي الآن؟ كدت أنهض لأستفسر من والدتي عنها، لكنّي تراجعت بسرعة، أعرف في قرارة نفسي أنّ أمّي لا تطيق سيرتها منذ مصرع حسين وخطبتها لأحمد، وتقول عن وجهها إنّه شؤم على الرجال الذين يعرفونها!

بعد انتظار عدّة أيام، تمخضت الثورة الشعبية عن فشل ذريع، وتركت أصابع الخيبة، بصماتها في الرّوح من جديد، توقفت قوات شوارسكوف، [28]ولم تدخل بغداد. وكان عليّ العودة إلى المعسكر!).

***

غفوت قبل الفجر بقليل أمام جهاز الكمبيوتر، بعد أن أنهيت تدقيق ملف الرواية كاملاً، وأفقت على هزة مرعبة شعرت أنّ أركان البيت تتداعى.. لم أستوعب مباشرة أنّ القصف قد طال الضاحية أيضاً، ولم أصدق أنّ صاروخاً اخترق البناء الذي أسكنه، وعبر منه إلى الجهة الأخرى! نهضت مذعورة بعد ساعة قضيتها محبوسة في مدخل البيت، الذي تهيّأ لي أنّه أكثر أماناً من بقية الأماكن، لأتفقّد بقية البيت.. كما حدست تماماً، الصاروخ اخترق غرفة نومي ودمّر ما فيها، وعبر الجدار إلى الخارج! المطبخ كان سليم الجدران، لكنّ كلّ ما فيه من زجاج

(28) القائد الأمريكي الذي قاد عملية «عاصفة الصحراء»

تحطّم بفعل الهزة العنيفة التي تعرّض البيت لها. أدركت أنّ البقاء في البيت لم يعد آمناً، وأدركت أنّي سأفقد بيتي للمرّة الثالثة! وتفهّمت قدري الذي يرافقني في كلّ خطوة.

حشرتُ كلّ أوراقي، وملفاتي منسوخة على أقراص مدمجة في حقيبة صغيرة، ونزلت الشارع.. أوّل مشكلة واجهتني، التنقل بين البيوت المُدمّرة والشوارع الضيقة المسدودة بالركام، كان من الصعب عليّ التحرّك وسط ذلك الكم الهائل من الدمار، ولم أجد بداً من طلب المساعدة من بعض الشباب المتواجدين في المنطقة، حتى اجتزت ركام البيوت المهدّمة، ولجأت إلى حديقة، احتلّها النازحون من الجنوب.. حططت رحالي بينهم ريثما أستطيع اتّخاذ قرار في الوجهة التي أقصدها. أمامي الكثير من الخيارات أسهلها وأكثرها أماناً أن أقصد دمشق، لكنّي كنت أستبعد الخيار السهل لأجل ذلك العهد الذي قطعته على نفسي بعدم الهرب من بيروت الذبيحة للمرّة الثالثة!

اتصلتُ بصديقة لي تملك بيتاً في الجبل.. لم تتأخر، خلال ساعة كانت تتوقف أمامي بسيارتها، وتنقلني إلى بيتها. وهناك شعرت أنّي خارج الحرب! نعم، تكاد بيروت هنا، تنطق بالشعر والغناء والهدوء! ومع أنّ هذا الوضع في صالحي، إلاّ أنّه ترك غصة في حلقي، لأنّي شعرتُ أنّي لم أفِ بالعهد، وتركت بيروت وحدها تحترق!

بيت صديقتي يطلُّ على بيروت من فوق.. كنت أراها على البعد تبكي! على الرغم من الأرز، والسفوح الخضراء، والبحر. كدت أستجيب للإلحاح ابنتي في السفر إلى دمشق، في اتصالات متكررة، تقول فيها، إنّ وجودي في بيروت لا مبرر له، خاصة وأنّي لا أستطيع البقاء في بيتي! لكنّ صديقتي هي الأخرى أصرّت أن أبقى في ضيافتها حتّى أنهي روايتي، وكي أغيّر جوّ على حدّ تعبيرها. كنت مترددة، مع هذا آثرت

البقاء، فقد أغوتني ليالي الجبل الساحرة، وأغواني الهدوء المطلق، حيث تختلف النسمة وصوت العصافير، وشكل الشمس، والقمر.. كأنّ كلّ ما يخص بيروت هنا مختلف عمّا دونه، وقد تركت صديقتي كلّ شيء تحت تصرفي، البيت بمكتبته وغرفه، وعادت إلى بيروت!. وجدت نفسي وحيدة كما أرغب.. أنا ومجموعة من الكتب المغرية..

منذ زمن بعيد كنت أعتبر «قصة الحضارة» من كتبي المفضلة، والآن أجدني مدفوعة لإعادة قراءة الأجزاء التي تخص العراق، لأكون في صورة الحديث الذي يرويه، أخرجت كذلك أجزاء «ألف ليلة وليلة» لأقرأ بعض قصصها قبل النوم. ووجدت نفسي أعيش خارج زمني، وهاهو ول ديورانت يستحوذ على مشاعري بقوله:

(وهنا يثبت التّاريخ مرّة أخرى الحقيقة القائلة إنّ نِعَم الحضارة تغري بالهجوم على البلاد المتحضرة[29].)

حين أضاء النافذة بعد ساعات طويلة من انقطاع الكهرباء والهاتف بسبب القصف الذي طال محطات إرسال الهاتف. كتبت له:

– الحرب شرسة كما هي عادة حروب إسرائيل، وقد لا أتمكن ـ على الرغم من وجودي في منطقة آمنة ـ من الحديث معك يومياً، لذا سأحاول أن أنهي الرواية بأسرع ما يمكن.

– معك، لديّ دائماً الوقت الكافي لك، لا شيء يشغلني عنك.

– ما رأيك بقول ديورانت؟ ألا يصلح أن يكون مدخلاً لحديثنا اليوم؟

– أعتقد، سنرى على أيّ حال.

(على نافذتي الافتراضية ظهرت رسالة، تشير إلى طلب إضافة.

(29) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ الجزء 13 ـ ص 377

غالباً ما أتردد في قبول طلبات الصداقة، وأفضّل أن أنتقي بنفسي من أحادثهم بعد بحث في تاريخهم الشخصي. لكنّ الاسم أثار فضولي، إذ حرّك ركناً مهملاً في ذاكرتي، حرّضني على التذكر، أهي...؟ هل يعقل ذلك؟ قَبِلت الإضافة، ومشاعر متناقضة تمور في أعماقي... أبعد هذا الزمن تظهر لي كجنية من صفحات كتاب عتيق!

قالت لي بلهفة:

– مازلتُ أذكرك، أذكر ذلك الصبي الخجول الأسمر، الذي يخشى الاقتراب من النساء.

وعبّأت النافذة بالوجوه الضاحكة والساخرة! ارتبكت، لكنّي تماسكت وأنا أردّ. فهي الآن خلف شاشة كمبيوتر، ولا ترى مني إلاّ الكلمات، ولا يمكنها أن تمدّ يدها لتعبث بشعري، أو تضحك لحمرة وجهي. فلأرد عليها بمنطق الرجل الذي صرته، فأنا بشوق لأنتقم للحظات خجلي. قلت لها:

– أما زلتِ جميلة ووقحة؟.

وأرسلتُ لها المزيد من الوجوه الضاحكة وعلامات التعجب والاستفهام. قالت بهدوء:

– بل أصبحتُ عجوزاً بائسة، لا تحمل في قلبها سوى السلام للبشر، هي رسالتي التي أحاول نشرها أينما حللت.

أربكتني الإجابة، وعاودني الخجل ثانية، هذه المرّة من تورطي في ردّ أحمق. أضافت:

– لم أصدق حين وجدت اسمك أثناء بحثي في جوجل. كنت أبحث عن بغداد التي أعرفها، عن العراق، الذي عشقته كثيراً.

لم أكن بحاجة لكلماتها تلك، فأنا أعرف أكثر من غيري أنّها

كانت مجنونة بكلّ ما هو عراقي، حتّى أنّها تمنّت أن يخطفها رجل من الجنوب، لتعيش معه في أور، غير آبهة بزوجها العجوز الذي لا يرفع عينيه عن النقوش، إلا ليناقشها في عظمة التاريخ البابلي! أذكر في عيد الساكيا[30] عندما خرجت من خيمتها وهي تترنّح، وتتلعثم، وتصرخ في وجه العتمة «أنا ملكة هذه البلاد». في البداية، ظننت أنّي أشاهد مسرحية! لكنّها قصدتني، جلست بجانبي، وشدّتني إليها، أجلستني فوق ركبتها العارية، ونظرت في عمق عينيّ نظرة أجفلتني، كانت ترتجف، وهي تقول «ألا تعرف كيف تفعل ذلك؟» قبّلتني بنهم، وكنت بحاجة إلى قوة إضافية للتملص من ذراعيها، والركض في البريّة الواسعة، كرهت تلك الرائحة المنفرة في فمها، وأصابني الغثيان. لا أعرف إن كان تصرّفي ذاك منبعه الخوف أم الحماقة؟ وقتها لم أكن أعرف عن التاريخ أكثر من معلومات بسيطة في كتبي المدرسية. وقد كانت سعادتي غامرة حين قرّر والدي اصطحابي في هذه الرحلة مع البعثة الأثرية إلى الجنوب. كنت أعتقد أنّي سأرى هناك مدناً قديمة، ومثيرة، كما تخيّلتها، لم أكن أعلم أنّ ما سأراه حجارة متناثرة هنا وهناك، وحفائر، ورمال حارقة، وبضع مجانين أجانب!

كانت ميري زوجة رئيس بعثة التنقيب عن الآثار، أكثرهم جنوناً. فقد جاءت العراق وهي تحمل أحلاماً مجنونة عن حياة مليئة بسحر الأساطير والحكايات، وقد حلمت بأنكيدو، الرجل البكر، وتصورت أنّها ستروضه، وتعيش معه في الغابات. أوّل ما صدمها ظروف الحياة القاسية التي يعيشها العراقيون. لم تجد قصور هارون الرشيد بانتظارها، ولم تلتقِ رجلاً كأنكيدو، يطلع من ملحمة البشر الأولى، ليسكب في مسامعها ترانيم الأبجدية عشقاً، يحمل في طياته تفاصيل الدمعة الأولى، والرعشة

(30) عيد الجنون

الأولى. فلجأت لابتداع عالمها الخاص، بداية بأزياء تخصها، ارتدتها في الماضي سـميراميس، وأميرات ألف ليلة وليلة وجواري الرشـيد، وآلهة أور. وراحت تبحث في تفاصيل العيش، منذ برز وانيس[31] من البحر، على شاطئ كلديا، وحتّى ظهرت كائنات أخرى مماثلة مجموعها سبعة يصفها بيروسـيس[32] بالوصف الأوّل نفسـه «أسـماك بشـرية» ويربط كلٌّ منها بأحد عهود ما قبل الطوفان[33].

استطاعت أن تعيش متأرجحة ما بين الحلم والواقع طيلة سنوات عمل زوجها في الجنوب، وكانت تصرُّ على إقامة الطقوس التي عُرفت في غابر الأيام ومنها عيد الجنون، الذي كانت تتخيّل أثناءه أنّها نُصّبت ملكة، وجرى فيها دم الآلهة وعلى من حولها الانصياع لرغباتها المجنونة في أيام العيد.

كتبت لي:

– أشعلُ الشموع كلّ ليلة، وعلى ضوئها تحملني موسيقى نينوى إلى أور، وأراني أنثر على صفحة دجلة وريقات الورد، وأرسل شموعي لعلّهـا تنيـر بعضـاً من ظلمة القلوب! في الحي الذي أسـكنه، تشـاركني جاراتي إضاءة الشموع، ونجلس صامتين في قلب الليل، نرقب نوافذنا بأمل من ينتظر عودة غائب حبيب. فلا شكّ أنّ ذهاب شخص ما، يعني

(31) وهو مسـخ خارق جسـمه جسـم سـمكة، تحت رأسـه رأس آخر، له أرجل شـبيهة برجلـي الإنسـان، وكان يمضـي أيامه بين البشـر. علّمهم الكتابـة ومختلف العلوم، وتأسـيس المـدن، وتشـييد المعابـد، والقضاء والهندسـة، وكشـف لهـم عن زراعة الحبـوب وجنـي الثمـار. وعند غروب الشـمس كان وانيس يغطـس ثانية في البحر ليقضي لياليه في الماء.

(32) بيروسيس ـ كاهن ومؤرخ بابلي

(33) الرقم سـبعة في حضارة بلاد الرافدين الدلالات والرموز ـ حكمت بشـير الأسـود ـ الصفحة 65

قدوم آخر.

فجأة سألتني:

– أما زلت تعلّق تميمة من سبع عيون في رقبتك؟

كتبت لها:

– لم أعد أخشى الحسد!

قالت بثقة:

– قد تعتقد أنّها مجرد خرافات، لكنّي عشت زمناً رائعاً هناك، جعلني أؤمن أنّ النّفس كلّما صفت وارتفعت، امتلكت اليقين بمقدرة الرّوح على تجاوز العلم، ونسف الكثير من نظرياته. كنت في ذلك الوقت أدق المسامير في الجدار لتسمير الأرواح الشريرة وطردها، كما يفعل العراقيون القدماء... وصدّقني كنتُ أنعمُ بنومٍ هادئ لا يعكّر صفوه أيّ شيء. أتمنّى الآن لو تعود تلك الأيام، وأعود ثانية للعيش في العراق.

– مهما حصلنا على الأشياء تظلّ رغبة الزيادة واقعاً فينا. لذلك أنا دائماً أقيم علاقتي بالوجود من خلالي.

– أنت تشبهني.

– بل أشبه نفسي.

تدرك تماماً تلك النزعة القائمة على الإحساس بالتّفرد، الّتي يتّصف بها معظمُ العراقيين الذين قابلتهم في حياتها، لذا لم تزعجها نبرة كلماتي، بل أضحكتها تلك الذكريات الّتي اقتحمت روحها فجأة، باعثة دفء بغداد في قلبها. كانت تمتلك اليقين أنّ شفاء روحها يكمن في الاغتسال بماء دجلة سبع مرّات، ففي ذلك الزمن اعتقدت أنّ احتفاظها بمظهر الشّباب الدّائم عائد إلى غرين النّهر السّحري، الذي تتعمّد بمائه كلّ صباح! أمّا وقد عادت إلى مسقط رأسها في كندا، مخلّفة وراءها

أسفارها في مدن الشرق، وجسد زوجها المدفون في العراق، فقد غزاها العجز سريعاً، وأقعدها المرض عن الحركة، وصارت تسعى إلى التّواصل مع العالم من خلال شاشة الكمبيوتر، راضية بقدرها، مستعدة لتقبل زائرها الأخير والحتمي في أيّ لحظة يشاء!

قالت لي: «يصعب عليّ أن أسألك، كيف حال بغداد. فما أراه على الشاشة من مجازر ترتكب بحق الحضارة والنخل والبشر، يصعقني، ويكاد يوقف قلبي عن الحركة». صمتُّ طويلاً، الحسابات تختلف بين عراقي يبحث عن الحريّة، وأجنبية عاشقة، ترى ما لا يراه... فأنا أنظر إلى بغداد الخالية من الطغاة، وأعرف أنّي لا أستطيع بأيّ شكل أن أنكر أنّه لولا الأمريكان لم أمتلك حريتي. المعادلة الصعبة أخرستني تماماً، وتركت لها الفرصة لتقول «أنت منهم إذن؟ لهذا صمتَّ؟ لك حريّة المعتقد، مع هذا لا أرى ما تراه، فالأمريكان أجرموا بحقِّ التّاريخ والحضارة، ودمّروا حتّى الحلم...» ولم تكتب كلمة بعد ذلك، بل غرقت نافذتها في العتمة. فأدركتُ أنّها تعمّدت ذلك، ربّما أحسّت بالقهر من موقفي، لكنّي أرضي غروري بقولي لنفسي «لتذهب إلى الجحيم، فهي مجنونة بالأصل، لم تعش الاضطهاد الذي عشته، فماذا تعرف عن الحريّة إذن؟ الأفضل لها أن تستمر في إضاءة الشّموع!

مع هذا وخزني شيء في القلب، أعاد إليّ ذكريات الحرب الثانية بتفاصيلها المُرّة. وشاهدت على شاشة عينيّ المغمضتين، طفولتي السعيدة، المليئة ببراءة الزمن الجميل، مروراً بصباي، بشبابي... وجاءت نعمت فجأة من عمق المشهد، نظرت إليّ نظرة خلعت قلبي، فأغلقتُ الكمبيوتر، وحاولت أن أنام)...

كتبتُ له:

– إذن، فأنت تعتقد أنّ الحل هو وجود الأمريكان في العراق؟

وترفض أن يكون الحل على يد الشعب العراقي، ربّما لكونك...

– اسمحي لي هاجر، صدقيني أنا لا أنظر إلى الأمر من وجهة نظر طائفية، ولكنّي أعرف أنّ الشعب العراقي لم يكن يستطيع القضاء على نظام صدام حسين إلاّ بتدخل أمريكي.

– لكنّك لمّحت إلى خصوصية ما. أنا لا أتّهمك، بل أقرّ واقعاً ألمسه في حديثك، وفي قصائدك، ألم تقل «حبه غاية../ لم يكن حبه مرحله/ إنه وطن» كالحسين»/ كلما ضاق طوق الردى/ حوله../ كان أكبر من» حرمله».؟[34]

– نعم، لكن الواقع عزيزتي واقع عراقي، لا يخص طائفة دون أخرى، والزمن حاصرني كما يحاصر كلّ العراقيين، الذين عاشوا مأساة الحرب، وقصف بغداد...

فقد مرّت عليهم سنواتٌ طويلة، سكن الجوّ فيها، محتفظاً بدخان الآبار المحروقة، والغازات السّامة، والمقاطعة الشاملة. حتّى داخلها الموات! ولم تعد لحركة الحياة معنى، ربّما لأنّهم افتقدوا الموت بشدّة، ولم يعد هناك ما يذكّرهم بأنّهم أحياء. فأطلقوا على تلك السّنوات تسمية خادعة «إعادة الإعمار»حتّى الأسماء تنتحل خاصية المراهم المسكّنة للأوجاع، مع إدراكهم، أو يقينهم، أنّ ما يشعرون به ليس وجعاً! بل يذهب أبعد من ذلك.

لم يعد ذلك مهماً...

تدريجياً فقدوا رغبتهم في محاصرة الموت، وصاروا يترقّبون مجيئه بلهفة العطش إلى شيء يعيد النبض إلى أجسادهم الهامدة، فقد بهتت تلك اللحظات الكارثية، ولم تعد تستطيع أن تستنفر فيهم المزيد

(34)

من الحزن، أو تستفز الدّموع المتوارية خلف نظراتهم الغامضة، اللامبالية ـ غالباً ـ بما يجري في المكان والزمان حيث يقيمون. فكان! اجتاحهم الوباء ثانية، ونشر الهلع في القلوب، فنهضوا من كسلهم، لتغسيل موتاهم، ودفنهم، والبكاء عليهم بما يليق بتاريخ الفقد الطويل الذي عرفوا به. وبتراث الوجع الكامن تحت الجلد، منتظراً شكّة دبوس، لينفر الألم دماً ودموعاً، اشتاقت لطول انحباسها، الانفلات من عقالها، والانسكاب بحريّة على صفحة الرّوح. تماماً كما في كلّ وقت، نفضوا التّراب عن أحذيتهم، تربعوا فوق أحزانهم، وراحوا يكتبون من جديد تمائم للحزن، يلحّنونها، ويغنونها، ويطربون للوجع الذي تثيره النّغمات، فيشتدّ بهم الصراخ، وتمزق قلوبهم اللوعة، ويبقون في حالة هذيان بالفقد. سواد الثياب صار علماً لوجودهم، يؤكدون من خلاله أنّ الموت في كلّ مكان، وأنّه لا وقت لديهم لاستبداله بفرح مؤقت، سرعان ما يزول، ويخلّف وراءه رماداً، لذا استعدوا لملاقاة الموت، راضين بفرح مؤجل، سيأتي يوماً، حين يثأرون لأوّل شهيد زرع الحزن بذرة في أرضهم، فطرحت نخلاً، سقوه بدمعهم، فتشبث بالأرض، وطال السّماء، وجدلت الرّيح سعفه ضفائر وأكاليل لقبورهم. وفي السنة الثانية عشرة من تاريخ الحرب الأولى هاجمهم الجراد، وحاصرهم المغول ثانية.)

***

على الرغم من نفيه حسّ الطائفية في حديثه، إلاّ أنّه أكّده من حيث لا يدري! كتبت له:

– لنتفق إذن على أنّ ما قاله ديورانت: (ودخل هولاكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير عام 1258، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوماً كاملة، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها، وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب، والعلماء، والشعراء، ودمّرت

في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في جمعها قرون طوال، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران.)[35] ينطبق على الوضع الأمريكي في بغداد.

– لن أختلف معكِ في الرؤيا العامة للأمر، وإن اختلفنا في التفاصيل. ربّما قصّة نعمت، تجبرني أحياناً على التفكير بطريقتك.

– ماذا حدث لنعمت؟

– سأحكي لك...

(هكذا أخبروها، حين عادت لتفاجأ بالخواء والرماد المتناثر من بقايا البيت مساء. ولأيام عديدة كانت تنهض من كوابيسها مغسولة بالرماد، وقد طارت أوراق الجرائد، ولم يعد يستر جسدها المرمي في الخلاء سوى ملابس بالية، تنبئ عن هجر للماء والنظافة والأماكن المسقوفة! وهل يمكن أن تلتمس سقفاً من دون جدران؟ يدخل الكابوس أحلامها، ليسجّل تاريخ الواقعة، وكأنّها كانت هناك. تراهما وهما يواجهان مصيرهما برعب، لأنّهما لم يدركا أنّ أقدارهما كانت تتربص باحتمالاتٍ رسماها للنهاية التي ستأتي بعد سنوات، لتنسفها، وتخبرهما بشماتة أنّ توقعاتهما للنهاية كانت خاطئة! فمنذ ذلك الزمن الذي اعتادا فيه أن يستندا على عجزهما، ويترافقان في نزهات صباحية التماساً للكلس الذي تحتكره الشمس ـ كما أشار عليهما الطبيب ـ رسما ملامح نهايتهما الهادئة، واتفقا أن يموتا في يوم واحد، كي لا يختصمان في من سيموت قبل الآخر! كانت تهمس له: «ليتك تموت قبلي» وحين استنكر في المرّة الأولى قولها، أضافت «الموت حق، وكلّنا سنموت، لكنّي أخشى عليك ألم الفقد لو متُّ قبلك، فماذا ستفعل بعدي؟».

(35) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ الجزء 13 ـ الصفحة / 378

حينها قال: «بل ليتني أموت قبلك، أتحتكرين الألم، وتضنين به عليّ؟». لـم يحتكـر أحدهمـا الألم، تماماً كما تمنيا، فقـط اختلفت الصورة التي جـاء بهـا المـوت! لـم يعثر أحـد على جثتيهما، تبخـرا هكذا في غمضة عين، والقنابل تجتاح الملجأ[36] الآمن، رسما في الفضاء برمادهما قصة حبّ صامتة، اشتعلت أناملهما شموعاً للمزارات المقدسة، وذرّ الانفجار الرهيـب رمادهمـا في سـماء بغداد. لم يحتاجا لأمتـار القماش البيضاء، التـي أعدّتهـا أمٌّ نعمـت بكلّ عناية وحرص، واحتفظت بها في صندوقها الخشـبي، صنـدوق عرسـها وأسـرارها. طالمـا رغبـت نعمت في نبشـه ومعرفـة مـا فيـه، لكنّ نظرة أمّها الزاجرة، تردعهـا، فتبعد يدها الصغيرة، مـع إحساسـها بخيبـة، تتكـرر مع تكرار المحاولة. لم تنسَ يوماً شـغفها في ولوج الأماكن المغلقة، وفتح الأقفال، والصناديق، والغوص في مياه النّهـر. كلُّ مـا هـو مغلق كان يثير فضولها، واسـتغرابها. حتّى أنّها تمنّت لو تعرف ما وراء ذلك الصمت الذي يلف لحظات والديها المشـتركة، وعلى الرغم من تنصتها وراء الأبواب، إلاّ أنّها لم تكن تحظى بسـماع شيء، ولا حتّى همهمات غامضة، أو شخير مريب!

في الفترة الأخيرة لاحظتْ عليهما تبدلاً كاد يمحو خصوصية كلٍّ منهمـا، حتّـى أنّهمـا ينطقان أحياناً الجملة نفسـها في وقتٍ واحد! كأنّها أخـذت مـن ملامحـه! كأنّه اسـتعار ملامحها، الضحكة نفسـها، التقطيبة ذاتها، حتّى تلك البحة الخشـنة في صوتيهما! وحركات يديهما. أثارها ذلـك التشـابه حـدّ الضحـك، لم تكن تعلم أنّ الحـبّ في أحد مراحله، اندمـاجٌ كلـي، قـد يؤثـر حتّـى على الشـكل الخارجي لحبيبيـن! ما أثار استغرابها أكثر، سؤالٌ لم تجد له إجابة «أكان أبواها يحبّان بعضهما إلى هـذا الحـدّ؟ وهـي الّتي لم تسـمعهما يوماً يقولان لبعضهما كلمة حلوة!

(36) ملجأ العامرية الذي قصفته القوات الأمريكية

ما لم تدركه في تلك اللحظة أنّ للحبّ وجوهاً تختلف عمّا عاشته مع حسين، ومع الحسن ومع أحمد. تختلف عن علاقاتها كلّها، أهو السن؟ فكّرت بهذا الاحتمال على أنّه حقيقة مؤكدة، لا شكّ أنّه نضج التّجربة مع تقدّم السن بهما، هو ما جعلهما يعيشان حبّاً مختلفاً، مع أنّهما تزوجا بطريقة تقليدية كما يتزوج آلاف الناس كلّ يوم!).

***

(إنّ هؤلاء الأقوام كانوا يأكلون كلّ ما يستطيعون أكله حتّى القمل نفسه، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران والقطط، والكلاب ودم الآدميين).[37]

صحوت من حلم هزّني بعنف.. كنتُ على شاطئ دجلة، أقرأ كلمات ديورانت تلك، وكأنّي ألقي بتميمة في الماء، فينتفض الموج، ويحدّثني للمرّة الثانية، لكن هذه المرّة عن نعمت! رأيتها كما لو كنتُ صاحية، تقدّمت إليّ عبر النّهر، وقفتْ قريباً مني، من دون أن تتخطّى حدود الماء، الذي شفّ عن جسد في غاية الروعة، جسد حورية ذهبي، يعكس أشعة الشمس، ويتطاير شعرها ليخفي ملامحها الحادّة. أوّل شيء فعلته، فتحتُ الكمبيوتر، وبدأت بتدوين الحلم قبل أن يهرب من ذاكرتي.

لكنّ ذاكرتي هرّبت خارج حدودها ما قالته نعمت! لبثت دقائق أحاول محاصرة كلماتها المبعثرة في روحي، من دون جدوى. هل أخترع حديثاً أجريه على لسانها؟ أم أكتفي بما رواه دجلة؟.

(أسبوع مرّ وهي تجوب الشوارع التي فقدت ملامحها، فلم تعد تعرف أين هي، كلّ ما حولها دمار، وحرائق، ورماد، وأكوام القمامة في كلِّ مكان، وعلى الرغم من كثرتها وانتشارها حدّ تغطية الشوارع، إلاّ

(37) المبشر المسيحي: «Giovanni de piano Carpini» قصّة الحضارة، ول ديورانت، الجزء / 13/ الصفحة/ 97

أنّها لم تستطع أن تحصل منها على كسرة خبز تسدّ جوعها، أو بقايا تنفع للأكل. تدريجياً اعتادت حواسها أصوات القصف، والروائح النتنة للأماكن الخربة التي تأوي إليها ليلاً، وتلك الآثار البشعة لاجتياحهم جسدها، غطّتها الندوب والتقرحات، وآثار الجدري. حتّى أنّها بعد مرور ذلك الوقت، فقدت شهيتها للحك. لأنّها فقدت وسائل الاتّصال مع جسدها، شعرت أنّه منفصل عنها تماماً، ولم تعد تعنيها العيون التي تحدّق فيها، مع اختلاف النظرة بين شهوة وشفقة واشمئزاز، كلّ ذلك أصبح مجرد مشهد لا يخصها في شيء، ولا يحرّك داخلها أيّ رغبة في الرفض أو القبول. صارت تحلم فقط أن تملك الإيمان الكامل بالعدم، والمقدرة على تنفيذ قرارها في الاستسلام لمياه النّهر. لا تعرف لماذا كُتب عليها أن تعاني من الموت، والاغتصاب، والطرد، والفقد! هل كان الاغتصاب أشدّ فتكاً؟ أم طردها من قبل الرجل الستيني الذي رضيت أن ترتبط به بعقد غير رسمي، للحفاظ على جسدها من التلوث بمياهٍ آسنة حملها جنود الاحتلال في جيناتهم؟ لا تستطيع أن تلومه، بعد أن رآها تغتصب أمامه بوحشية، ليس مهماً إن كانت راضية أو مكرهة، التسميات لا تعني شيئاً، مادامت قد تلوثت، فلا أحد يعي أنّ لها روحاً، وأنّها تحترق، وتتألم، وتستغيث، ولا أحد يسمعها! هي على يقين أنّ الفقد هو الذي أعانها على اتّخاذ القرار الأشد خطورة في حياتها، لو كان الحسن موجوداً معها بروحه، هل ستفكر في إنهاء حياتها على هذا النحو؟ ماذا ستنتظر بعد؟ لم تشأ أن ترى المزيد، فقد اكتفت من الحياة بوجبات الألم المنتظمة التي قدّمتها لها بسخاء. بدءاً بفقد الحسن بعد أوّل لقاء لجسديهما! وانتهاءً بموت والديها. كثيراً ما سمعت صوتاً من أعماقها، يحذرها «إياكِ والاستسلام لفتنته، إياكِ ومزج ترابك بمائه! لا تنسَي، سيغويك، ويصهرك، ويحوّلك إلى طين.» لكنّها تصمّ أذنيها عن

نحيب أعماقها، وتستسلم لذراعيه، غير عابئة بجنونه، ما همّ؟ والعشق دافعها للخوض بعيداً في أعماقه. تغمض عينيها لتراه، كم مرّة سحبتها غواية مائه إلى حضن الخطيئة؟ كم مرّة أومأت بأنامل الرغبة، لتوقظ جسده من غفلته؟ على الرغم من بعد المسافة، يحضر الزمن بحرارته، فيعيد إليها ألق قبلته الأولى، وهما في أحضان النّهر! مَنْ منهما اقترف إثم الحكاية، وصوّب رمح الهجر إلى صدر صاحبه؟ مَنْ منهما بدأ تهجئة الفتنة، وصبّ زيتاً فوق نار الشهوة الأولى، فأشعل الحريق في غابات الرّوح حتّى طالت الجسد؟ تدرك أنّه بكينونته أقدر على اتّخاذ الخطوة الأولى، لكنّ التّاريخ الموغل في قدمه، ينسب لحواء بدء الغواية، مع أنّه يمتلك الماء! أحقّاً يمتلك ماءه؟

كانت الحرارة المفاجئة للصباح الباكر، تنذر بيوم قائظ لا طاقة للنوارس على احتماله. لكنّها احتمت بيقينها بأنّ أعماق النّهر الرطبة، ستحوّلها إلى سمكة ملونة، ممتلئة بالبهجة. تدرك جيداً أنّها لم تحبّ التحليق مع الطيور يوماً، وأن اعتكار وجه الصباح بالغبار، لا يعني لها شيئاً، كما لا يعنيها إن كان مشرقاً، فهي في الحالين لا ترفع رأسها إلى السّماء، بل إلى الماء نظراتها ونبضها. لم تكن نهاية الطريق تخيفها، فإذا كان الموت يكمن هناك حيث نهاية كلّ البشر متساوية، فإنّ ما يخيفها هو ألغام الطريق ذاتها. اقتربت بلهفتها من الجسر. كانت على ثقة أنّ ضفتي النّهر شحبتا حتّى تغيّر لون النّخل المنعكس على صفحة الماء، وتربّصت أشواكٌ رمادية محروقة فقدت المقدرة على الوخز، بقدميها، فالتصقت بهما. عبثاً حاولت غسل ذلك اللون البنفسجي بماء دجلة الصافي!. بكت بحرقة، وأغاظها الدّمع الوقح، بإظهاره ضعفها. أيعقل أن تثير أعصابها أمورٌ صغيرة كهذه، وهي مُقدمة على العدم؟ ربّما راودها أملٌ في البقاء لأجله، مع يقينها أنّه لا يحفل بوجودها، ولا يتذكّر من

لقائهما غير طيف لحظة نشوة عابرة. لعنت ذلك التّاريخ، حين تحقق حلمها. هل كانت مصادفة أنْ لمحته عند الجسر؟ وقف أمامها مضرّجاً بلهاثه، تأبط ذراعها، وسارا... لم يكن فوق الرمل سوى آثار قدميه! مجرد روح شعرت بنفسها، آثارها على الرمل أخذت شكل ذيل سمكة عشقت الماء، واستسلمت لغوايته. توغلا عميقاً في البستان، أغمضت عينيها على صورة طفلة مشاكسة، تصعد النّخل، وترميه بالبلح، ترتمي في حضن الماء، وتبتعد عميقاً، وحين تطلّ برأسها، ترى الدهشة الممزوجة بالقلق في عينيه. لماذا لم يقل لها «أحبّكِ» في ذلك الوقت؟ أكان صعباً عليه أن يمنحها حريّتها بتلك الكلمة؟ خلعتْ إزار النّهر، وتعرّت من قطرات مائه المضجعة في خلايا جلدها الناعم، لحظات فقط، وشعرت أنّها ترابٌ ينتظر. لم ترتعش يده، وهو يذرّيه فوق وجه مائه، فقد آمن أنّه سيجعله طيناً، مجرد طين، يفور بشهوة اللحظة، خارج الماء!...

أمّا الآن، الكهولة، والوحدة، والدمار، اغتالوا الحلم! لم تتحوّل إلى سمكة، ورفضت أن تمنح قلبها لنورس، على الرغم من التهام عشرات النوارس لجسدها!. وضعت قدمين ثابتتين داخل الماء، تركت جسدها يطفو بحريّة، حرّكت ذراعيها قليلاً، ثمّ أرختهما، تاركة لحركة الموج سحبها إلى القاع. أغمضت عينيها باستسلام، ورأته وراء الجفن، يمسك كتفيها، ويدير جسدها بقوة صوبه، هاهما وجهاً لوجه، يحدّق في عينيها، ويهمس، صوتٌ أصم وفقاعات تعلو فوق السطح، ولا تفهم من كلماته شيئاً، سوى تلك الذبذبات المتسربة من كفيه إلى خلاياها، تنفلت منه، وتنزلق بعيداً. دقائق، وتراه يتبعها، حين يحاذيها، يهمس: «أراكِ في زاوية البستان» تقول بحذر: «ماذا تريد؟». يضحك بخبث: «سأسرق المشمش». تحدّق فيه باستغراب، ترفع كتفيها بلا مبالاة، وتسرع في سيرها...)

عند هذا الحدّ شعرتُ بظلِّ دمعة تودّ الانفلات من عيني. مددت يدي إلى فنجان القهوة البارد، رشفت منه، وأنا أفتح نافذتي ألتمس حضوره. أضاء النافذة، فارتعش قلبي المثقل بهواء دجلة، وحديثه. أرسلتُ له باقة ورد وقلباً ينبض، فكتب:

– صباحك قرنفل، سيدتي... ماذا تفعلين بشاعر؟ إنّ دفئاً يسري إلى قلبي، فيلامس روحي، فتضيء به.

– وماذا فعلتُ أنا؟ ولم أنطق بكلمة بعد!

– إنّها روحك المتألقة في حضورك، تحلّق بروحي فيتطامن موج الكلمات.

ابتسمت، وسألته:

– ما اسم أمّك؟

– لمَ؟ هل ستكتبين عن أمّي أيضاً؟

قلتُ ضاحكة:

– سأكتب لكَ حجاباً للمحبة.

– آه لو تعلمين أنّ «أجمل المحبة ما كانت بلا حجاب». هل نبدأ؟

– رأيت اليوم نعمت في منامي، وقد حكت لي قصّة، هل أحكيها لكَ؟

– نعمت؟ أأنت جادّة؟

– نعم، اسمع، كانت على موعد مع من تحبّ في بستان المشمش حيث تسكن، هل تذكر ذلك؟

– ومن أين عرفتِ أين تسكن؟ وكيف لي أن أذكر ما لا أعرفه؟

– هي قالت لي.

– إنّه الجنون بعينه! هاتي حدّثيني على أيّ حال.

(لحظات، وتختفي داخل البستان، تنتظر قليلاً تحت الأشجار المثمرة، ينتفض جسدها رعباً من صورة مرسومة بعناية، حرصت أمّها أن تذكّرها بها دائماً، وهي توبخها، وتعاقبها على صحبة الفتيان. لا تعرف لماذا تخاف أمّها من صبيان الحي، وتعتقد أنّهم عفاريتٌ خبيثو النّوايا، وأنّهم يخفون تحت دشداشاتهم سكاكين حادّة، سيقطّعون بها جسدها، إن هي منحتهم فرصة الاختلاء بها، أو حتّى ملامستها. تبسّمت لخاطر مرحٍ شاكسها قليلاً «لكنّه لا يلبس دشداشة كالصبيان!». غلبها فضولها لرؤية ذلك السلاح الغامض الذي تحتار أمّها في تسميته، في كلّ مرّة تسرد عليها قصّة فتاة ذبحها أهلها، لأنّها تركت صبياً من هؤلاء العفاريت يعريها عند النّهر! تشوش ذهنها، لأنّها لم تستطع تحديد مصدر الذبح، ومن تراه يخفي السلاح؟ ففي كلّ القصص، تخطئ الفتيات، ويقوم الأهل بالذبح، إذن ما ذنب الفتية؟ وما علاقتهم بالأمر؟ ومتى يستخدمون سلاحهم؟ سألت أمّها مرّة «لماذا تلومين الصبية على ما يفعله الأهل؟ أليسوا هم من يذبحون الفتاة؟». شهقت أمّها برعب، ووصفتها بالغبية، وصفعتها بعنف، وقالت: «تذكري هذا، كي لا تخالفي أوامري». فضولها أقوى من تلك الصفعة التي زال أثرها عن وجهها. إذن ستلقاه، وستساعده في سرقة المشمش! انتظرت غياب الشّمس، واعتلت السّور. رأته قادماً من بعيد، لم يكن وحده! أحذيتهم تثير الغبار في الدرب المحيط بالسور، لكنّها استطاعت تمييزهم وسط تلك الزوبعة التي هبّت مع المساء. أحمد، وحسين! لماذا ثلاثتهم؟ لمَ لمْ يأتِ وحده؟ اغتاظت منه، وقفزت داخل البستان، وأسرعت صوب البيت. كان والدها العم حامد، جالساً يلف التبغ بهدوء وأمامه كأس الشاي الساخن، وبقايا الدّخان. رفع رأسه ببطء، ونظر إليها بارتياب. كانت هيئتها مشعثة،

ولهاثها ينبئ باضطرابها، وركضها السّريع. سألها بغضب: «أين كنتِ؟ لماذا تلهثين هكذا؟» لم تنطق، أطرقت نحو الأرض، ولم تعد تسمع من كلمات والدها الغاضبة شيئاً. فجأة توقف عن الكلام، فقد سمعا معاً صوت ارتطام، أعقبه صرخة استغاثة. نهض حامد بقامته الطويلة النحيلة، وقطّب جبينه الأسمر بحنق، وقذف شتائم بذيئة من فمه الواسع، فبانت أسنانه الصفراء المتآكلة، وأسرع صوب الصوت متعثراً بملابسه. وبقيت مسمّرة في مكانها، لم تجرؤ على اللحاق به، وهي تدرك أنّ أحدهم وقع من الشجرة، وهم يسرقون المشمش! لم تستطع النوم تلك الليلة وهي تفكّر فيما حدث له. فقد عاد والدها بعد وقت طويل، وهو يلهث من التّعب، وفي يده عصا طويلة. حدست أنّه لحق بهم مسافة طويلة، وأنّ عصاه قد طالتهم بالضرب. شعرت بالألم، وهي تفكّر بلسع العصا، التي تسلّطت عليها في الحلم، فحوّلته إلى كابوس أيقظها وهي تصرخ. شربت قليلاً من الماء، وانتظرت الصباح بلهفة، تسلّلت بهدوء خارج البستان، وانتظرت مروره في طريقه إلى المدرسة. سألته بلهفة عمّا حدث. ضحك بمرح، وقال: أكل حسين وأحمد نصيبهما من عصا والدك، أمّا أنا فقد نفدت بريشي، تعلمين لا أحد يمكنه أن يلحق بنورس، كيف وصل والدك إلى البيت؟ كاد يقع أكثر من مرّة وهو يركض خلفي». تذكّر بحسرة دموعها التي خبّأتها في الجفن حين مرض والدها، واضطر صاحب البستان للاستعانة بشاب يعتني بالأشجار، حينها تركوا البيت، وانتقلوا إلى حي آخر! تذكّر تلك الحسرة التي تشبثت بحلق والدها، وهو يتأملها، ويتمنّى لو كانت صبياً يستطيع الاعتماد عليه في عجزه ومرضه. يومها صمّمت أن تخلع ثوب أنوثتها لتقوم بعمل الصبيان، ولم تجد في فترة تحولها إلى صبي سوى المزيد من حضور أنوثتها، وتعامل النّاس معها على أنّها امرأة بدأت مفاتن جسدها تفصح عن نضجها،

وتنبـئ بكـوارث قادمة!. لـم تكن بحاجة لمن يقرأ طالعها، ويخبرها بما تخبئه لها الأيام، فالمكتوب يُعرف من العنوان كما كانت أمّها تقول. وما كُتب لها في سِفر الغيب، أفصحَ عنه حاضرُها، لذا لم يكن لديها خيار أفضل من قبول ذلك الحبّ الذي جاءها يسعى بعرض زواج، يسترها، كما قالت أمّها. ورضيت أن تتخلّى عن حلمها مقابل عدم تحولها إلى أنثى مباحة في ملابس صبي، تسـعى في السّـاحات لبيع سـلع رخيصة. لا تسـتطيع فهم إحساسـها حين جاءها نبأ استشـهاده. تبلّدت حواسـها، ضحكت، وبكت، وشعرت أنّ ما حدث إنصاف لعواطفها، مع أنّه مفجع للآخرين! وأدركت فجأة أنّها تحمل في قلبها مشاعر شريرة مدفونة تحت رقتها الظاهرة، لكنّها لم تلم نفسها على إحساسها ذاك، لاعتقادها أنّها لم تمارس سوى نوع من الصدق مع النفس! الصدق ذاك كان مقتلها، حين اعترفت للحسن أنّها لم تحبّ غيره، وأنّ حسين لم يكن سوى درجة سلّم فـي طريـق صعودهـا إلـى قلبه! لم تفكر بلمعـان عينيه في تلك اللحظة، ولم تهتم لقسـوة يده وهي تضغط جسـدها الطري، انشـغلت بأحاسيسها حـدّ الانسـلاخ عـن العالم. بعد وقت من ذلك اللقـاء، صعقتها الحقيقة التي تكشفت عن حماقتها، صار الحسن يتحاشى لقاءها، وحين أصرّت على رؤيته، بقي صامتاً. ثمّ أخبرها بكلمات قليلة، أنّه لا يفكّر بالارتباط بها، ولا يستطيع أن يفعل ذلك. حين ألحّت بدمعها على معرفة السبب، واجهها بقسوة لم تكن تتوقعها «لأجل حسين» هل اتّخذ حسين ذريعة؟ أم أنّه كان يتألم فعلاً لأجله؟ الواضح أنّه رفضها هي لكونها سلّمت له جسدها طواعية، وباقي الأسباب صارت أشدّ وضوحاً من شمس حزيران الحارقة. هل نالت ما تريده من الحياة بعد لقائهما ذاك؟ كانت تعتقد أنّ ما تريده فقط هو الحسن، أن يحبّها ولو لدقائق، أن يحتضنها كما فعل في النّهر عندما كانا طفلين، أن... فهل أنصفتها الحياة حقّاً؟ المشكلة أنّه

لا حدود لمعنى الإنصاف، لأنّ المسائل نسبية. تحسّرت على أمّها التي ظنّت يوماً بعد عقم دام سنوات عشر، أنّ الله وهبها نعمة لا تقدر بثمن، فسمّتها «نعمت الله»! تفاءلت بجمالها اللافت للنظر، ونموها السريع، وبنيتها القوية. منذ صغرها، فربّتها تربية الصبيان، وما لبثت أن ندمت حين انتبهت إلى تفتح أنوثتها!

هاهي في عمق النّهر، تتحوّل إلى سمكة ملونة، وتتخلّص من لعنة الأنوثة!.)

– اللعنة على مناماتك هاجر، هل حقّاً هذا منام؟ أم أنّك استدرجتني للحديث يوماً وأنا منوّم؟ أكاد لا أصدق أنّك تعرفين كلّ هذا، فهو أقرب لواقع عشته بتفاصيله، وأشدّ وضوحاً مما قد أرويه لكِ. والله أنا قلت لنفسي منذ البداية «بلاها ها الرواية» لأنّكِ ستشرحينني فيها، ولن تبقي قطرة دم في جسدي.

ضحكتُ، وكتبت له:

– هناك عقد بيننا، وعليك التزام شروطه.

– أيّ عقد هذا يبيح لكِ أن تنبشي تاريخي، وتعبثي به كما تشائين؟

– إنّهم ينبشون تاريخ الشعوب بأكملها، وأنت فرد، ثمّ.. أتضن بتاريخك عليّ يا بخيل؟

– حسناً سيدتي، أراكِ تفحمين الشاعر بمنطق الروائية، لا بأس. سنكمل هذه الرواية «المصيبة» ليكن وأمري لله. إلى لقاء قريب.

– إلى لقاء.

***

هل قال أحدهم: إنّ سيّد الكلمات هو سيّد المكان؟ ليس زهواً ولا لهواً. إنّه أسلوب الشّاعر في الدّفاع عن جدوى الكلمات، وعن ثبات

المكان في لغة متحركة![38]

– للصباح نكهة مختلفة حين تزينين النافذة بزهورك؟ كيف هي روحك؟

– روحي متناغمة مع قلبي، كلاهما ينبض بالحبّ.

– كم هي المسافة بين قلبك وروحك؟

– أحسّها أحياناً كالمسافة ما بين العين والجفن، رعشة، أو برق، تومض كضوء.

– أنتِ لا تعتقدين أنّ هناك مسافة، بمعنى المسافة، فالرّوح والقلب مستقبلان لشعور واحد في الوقت نفسه. لكنّي أرى وجود المسافة نابع من اختلاف الكينونة.

– بل أؤمن أنّ أحدهما يسبق الآخر برعشة فقط! فأنا أدرس خارطة جسدي، وأفكّر بعصفوري المرتجف بين ضلوعيِ، لأنّي أندفع برغبة محسوسة وإدراك واقع. أمّا أنت فتتصرف بحذر مفرط بسبب ذهنيتك الممزوجة بثقافتك.

– بل أرى من خلال قلبي وروحي وعقلي.

– ربّما هو الاختلاف بين المرأة والرجل!

– أرى الاختلاف في شدّة الزخم، وليس في شكل التّكوين، الماهية لا تختلف، إنّما حركيتها هي الّتي تختلف، فالثالوث هو ذاته، الفرق فقط في انعكاس الأفعال لا في الثوابت.

– هذا أجمل مافيّ، فالفضل يعود إليّ في نبش ثالوثك، لأصنع منه نصاً مختلفاً، تتحرّك فيه على الورق، وتمشي بين الحروف، وتمارس عشقك لأناملي.!

(38) محمود درويش/ أثر الفراشة

– تأكـدي أنّ ذلـك ليـس أجمـل ما فيكِ كمـا تدّعين. بل لأنّ الرّوح تنجذب للرّوح حين تماثلها!

– لن ننشغل بنا، سنتابع الرواية، أودُّ اليوم أن تحدّثني عن يوم عـادي تمامـاً، بتفاصيلـه الدقيقة المملة، كيف تبـدأ صباحك؟ كم ملعقة سكر تضع في فنجان الشاي؟ كم مرّة تحلق ذقنك؟

ملأ النافذة بالوجوه الضاحكة، وكتب:

– ألـم أقـل لـكِ، أنـت تجيدين التنصت على نبضي؟ حسـناً.. اسمعي.

(أستيقظ في السابعة، أستسلم لغواية الماء، أحلق ذقني، ألقي نظرة رضا على ملامحي في المرآة. أرتدي ملابسـي، أتناول فطوري، وأغلق باب الدار خلفي، وأمضي إلى العمل. حرارة الجوّ لا تطاق، لكن عليّ أن أذهب إلى العمل. في الثامنة، أصل منطقة الصالحية حيث مبنى شبكة الإعلام. من النافذة على يميني، يطالعني المنظر ذاته، مبنى وزارة العدل، شـجرة الزيتون تحت النافذة، أسـرح في تأملاتي مع فنجان قهوة بارد. ينسحب العالم بعيداً، أشعر بوحدتي بين جدران ملّت التّطلع إليّ، بعد أن حفظت تفاصيل حضوري اليومي بأكملها. لا جديد يخلق في الرّوح تغييـراً مـا. فـي الثانية والنصف، أنهي تعاملي مع قلمي والورق وشاشـة الكمبيوتـر. أعـود إلـى البيـت، مجتـازاً الشـوارع الكئيبة نفسـها، يقابلني المنظر اليومي لبقايا انفجارات، وسـيارات الإسـعاف، وأناس يسـرعون إلى غاياتهم وسط الزحام. أصل البيت، أخلع ملابسي، وأدخل الحمّام. أتنـاول الغـداء، أنام قليلاً، ثمّ أسـتيقظ على ارتعاشـة نبضـي. أفتح كتاباً للشـاعر الفرنسـي ريلكه. غداً الجمعة، للجمعة خصوصيتها، خلافاً لما اعتـاده أجـدادي القدمـاء مـن تقديـس زحل ممثـلاً بيوم السـبت، اختار أجـدادي الأقـرب إلـيّ يـوم الجمعـة، يـوم إنانـا ليكـون يوم اسـتراحة.

استراحتي تكون بذهابي إلى شارع المتنبي، لكنّ الجوّ سيمنعني من مغادرة المنزل، فالليل ينبئ بصباح قائظ. لا بأس سأبقى في البيت، وأرى أخوتي هذا الأسبوع، أو ما تبقى منهم! زينب البنت الوحيدة، وأصغر أخوتي وأحبّهم إلى قلبي ستكون هنا، وسنستعيد الكثير من الأشياء الجميلة التي عشناها في زمننا الجميل، أيام كان البيت ممتلئاً بصخبهم، وشجاراتهم، ولعبهم، وصوت أمّي يناديهم طالباً بعض الهدوء! زينب لم تكمل تعليمها، تركت المدرسة في المرحلة المتوسطة، وشجعها والداي لأنّها كانت مدلّلة، ولم يلتفت أحد لاعتراضي على ذلك القرار، كما أنّي لم أستطع إقناع زينب أنّ مستقبلها في الدّراسة. جرّبت تعليم والدتي أيضاً، فقد كانت تخطئ في لفظ الكلمات، وأحبّ مشاكستها فأقلّدها. حينها تضحك ملء روحها وتقول: «يمة آني قابل متعلمة مثلك». لكنّي أصرّ على تعليمها، فتتملّص مني بحجة أنّ لديها عمل ضروري في البيت يجب أن تنهيه قبل عودة والدي. أريدها راضية ودافئة كما هي دائماً، لذا أتركها على مضض. في صغري كانت تفتخر أنّها لم توقظني يوماً للذهاب إلى المدرسة صباحاً، فأنا أنهض لوحدي، وكأنّ جسدي مربوط مثل الساعة على توقيت الاستيقاظ. حبّي للمدرسة هو السبب، كانت تقول باعتزاز: «أنت ما شلعت قلبي مثلهم» تقصد أخوتي. اليوم أراها في حومة الحزن الدائم، تخفي دموعها عني، وتهمس بحرقة: «بعدهم أرحم من موتهم هنا أمامي». ما أزال أذكر حين استدعي خالد إلى إدارة الأمن، كاد الخوف يودي بها، ماذا لو اتهموه بأنّه من حزب الدعوة؟ لن تراه بعد ذلك أبداً. ذكرياتي تحاصرني، وتملأ فضاء الغرفة بمشاغباتي، فأركض مترنحاً ما بين باب البيت الموارب دائماً، في دعوة مغرية للعبور إلى الماضي، وضفة النّهر. وفي منتصف المسافة بينهما، يفتح الأمس ذراعيه لاحتضان جسدي، بالقوة والحميمية نفسها، حتّى ليخيّل إليّ أنّه

لا حقيقة خارج ذلك الزمن. فالأحداث تتمثل لي مصحوبة بأصوات واضحة لتلك الأيام وروائح مرافقة لأطعمة كانت أمّي تصنعها منتصف النّهار، وألوان كانت الشمس تغدقها على لوحة المساء، لتبدو في أروع حالاتها! ولأنّي أفتقد ذلك الجمال، أعود بحواسي كاملة إلى حياتي تلك، لأعيش فيها مراراً، ولا أتعب من تكرار لحظاتها، حتّى تلك التي تشعرني أحياناً بالغبن، والحماقة. على الرغم مما عُرف عني من ذكاء ونباهة، كاد عنادي وثباتي على رأيي يوقعاني في فخي الحريق والدفن حياً. كان الشتاء يطرق الأبواب بقسوة، حين وضعت أمّي المنقل المشتعل خارج البيت، حيث كنت ألعب مع رفاقي، الذين تدافعوا حوله التماساً للدفء. تفتق ذهن أحمد عن فكرة غريبة، قال ببراءة «من يستطيع أن يقفز فوق المنقل، يكون كابتن الفريق في الملعب غداً». صرخ حسين «فكرة صائبة». قال عباس بهدوء: «أنا لا أريد أن أكون كابتن الفريق، أصلاً هي فكرة حمقاء، مَنْ المجنون الذي يستطيع القفز فوق المنقل؟». أجبت بثبات ومن دون أن يرفَّ لي جفن: «أنا». توقعت أن يثنيني رفاقي عن فعل ذلك، لكن لسوء حظي، صفّق الجميع، وتعالى صراخهم، وابتعدوا مفسحين المجال لي، لأركض قافزاً فوق الهاوية الملتهبة. هكذا رأيتها! لكن لم يكن هناك مجال للتراجع عن قولي. انتظم التّصفيق، وعلا صراخ التشجيع. ووجدت نفسي أتراجع مسافة كافية للخلف، وأركض بكلّ قوتي، لأقفز متجاوزاً النار بمتر. رفاقي صاحوا بخبث: «ما صار، أعد». هذه المرّة لم أتردد، أعماني الزهو، لم أنتبه في غمرة نشوتي بالنصر إلى دشداشتي التي انفلتت عقدتها، وعلقت بطرف المنقل أثناء القفز، فانقلب المنقل عليّ، لم أعِ ما حدث في تلك اللحظة، جاء خالي مسرعاً على صوت الصراخ، خلّص ملابسي من جسدي، وحملني إلى أقرب طبيب. تلك الحادثة، لم تفقدني ثقتي

العمياء بحساباتي الدقيقة لنتائج تصرفاتي، فقد كنت على ثقة تامة بأنّ ما قاله لي أستاذ الرياضيات عن صفاء ذهني وذكائي حقيقة لا تقبل النقاش. لا يوجد بين رفاقي من يمتلك قدرتي على التحليل، والفهم السريع، ولا يوجد من يبزني في الجري حتّى عباس. لهذا وجدت نفسي أنساق وراء حماقتي متجاهلاً كلّ التّحذيرات التي سمعتها من أمّي «هو خوف الأمّهات لا أكثر!» خضت غمار اللعب بحياتي مرّة ثانية، حين قرّرت الاختباء عن رفاقي وراء جدار في الخرابة القريبة من منزلنا، على الرغم من معرفتي أنّ الجدار آيل للسقوط! وكأنّه ينتظر تلك اللحظة، لحظة لجوئي إليه، ليغمرني بفيض التّراب والحجارة. خرجتُ من تحت الانهيار بأعجوبة، فقد تنبّه رفاقي إلى غيابي، في اللحظة التي انهار فيها الجدار، فبحثوا عني هناك مستعينين بأهل الحي، وبقيتُ حياً! أمارس حياتي بالاندفاع ذاته، غير عابئ بالنتائج، لثقتي بصحة المقدمات!.

في الخامس الابتدائي، تميّزت باللغة العربية، درّسنا في تلك السنة أستاذ «بصير» ترافقه امرأة جميلة، تدخل معه الصّفّ. طلب من التلاميذ في اليوم الأوّل كتابة موضوع إنشاء في الحصة، لم أتوقع حين تمكّن مني الخيال، وسكبته على الورق أنّي سآخذ الدرجة الكاملة، وأنّ الأستاذ سيطلب مني أن أقرأ موضوعي أمام رفاقي. لكنّ سعادتي لم تكن بسبب ما حقّقته من تميّز وتصفيق، ورضا، بل من ابتسامة خصّتني بها تلك المرأة!. حتّى أنّي كنتُ أسعى دائماً للفت انتباهها إلى ذكائي وتميّزي، فأبقى متحفزاً للإجابة حين يخطئ رفاقي، ولشدّة حماسي رحتُ أجيب عنهم، مما جعل الأستاذ يصرخ بي «حسن، اخرج من الصّفّ، وتأكد أنّك ستأخذ صفراً في الامتحان الشفهي». فرددت بلا مبالاة وأنا أستعد للخروج «خذ الصفر ولا تبالي، فالصفر من شيم الرجال». حينها ضحك الأستاذ، وطلب مني الرجوع إلى مكاني، والتزام الصمت.

في السادس الابتدائي، وفي مدرسة الشباب، اكتشف مدرّسي موهبة جديدة لديّ، أضافت لي المزيد من الثقة، والتميّز عن رفاقي. كان عليّ أن أقوم بدور رجل أمّي في مسرحية سيمثلها التلاميذ في إحدى المناسبات الوطنية. ذلك الرجل يقرّر أن يتعلّم، ليحصل على وظيفة، تقيه شر الفقر، فيسجل في دروس محو الأمية. يقوم المعلم بشرح جدول الضرب. وفي محاولة يائسة من المعلم لشرح جدول الضرب، طلب من الرجل أن يقف أمامه، ويمثل له كيف يضرب رقماً بآخر. فما كان مني سوى أن قلت «بسيطة، أنت واحد، وأنا واحد، والضرب هكذا» وصفعتُ المعلم. هذا الموقف المضحك للحضور، جعلني أشعر بالفخر لإنجازي المميز، وجعل أستاذي يختارني لأداء دور آخر في تمثيلية، كنتُ فيها طفلياً. أعجبتني الشخصية لطرافتها، لكنّي بعد انقضاء زمن الطفولة لم أعد أعبأ بأمر التمثيل، بل رأيته نتاج مرحلة عمرية لا يمكن أن تؤسس لمستقبلي الذي أحلم به!

كانت أيام! أتحسر الآن عليها، بعد أن بقيتُ وحيداً مع والديّ. رحل البعض، وتزوج البعض. وسارت الحياة بعيداً عني. خاصّة بعد مغادرتنا الحي القديم، وسكننا في حي الإعلام. ومع أنّنا لم نغادر الكاظمية، لكنّ قلبي بقي معلّقاً هناك، فوق نخلة قرب النّهر، حيث فاجأني النّور لأوّل مرّة. هناك التقيتُ نبض قلبي، ورعشة يدي الأولى، وخطواتي، ومدرستي، وكلّ ما يرتبط بلذّة الاكتشاف والدّهشة. خلال دقائق أصل البستان، أحوم حول السّور، أتأكد من عدم وجود نعمت، وأركض صوب النّهر. دقائق، وأرتمي في حضنه. أشعر الآن أنّ بيني وبين النّهر حواجز من الشوارع وأسوار البيوت، وحجارتها. لا أعرف لمَ لمْ أحبّ هذا البيت بسوره الذي يفصله عن الشارع، وغرفه الواسعة، على الرغم من فرح والدي بكلّ حجر وضعه في أساس البيت، إلاّ

أنّ حنيني «لأوّل منزلٍ». كلّ تلك الأشياء الجميلة تحتفظ بها الذاكرة مرتبطة بمنزلنا القديم. حتّى تلك الأحداث المشؤومة، تحتفظ الآن بطابع الذكرى الجميلة، لارتباطها بالمكان، والطفولة. وعلى مدى سنوات طويلة، ارتبطت اللحظات الحميمة في مخيلتي بلحظة الانزلاق الإرادي تلك، واحتفظتُ بغواية الماء، مصحوبة بملمس جسد طري، هل قبّلتها؟ تساءلتُ كثيراً عن تلك اللحظة فيما بعد، استحضرتها مراراً، ولوّنتها بمشاعري، حتّى اقترنت بلحظات جنوني وتأملاتي، وصارت هاجساً لمتعة خفية، حين أشتاقها، أغوص في النّهر وحيداً، وأخرج ببهجة ناقصة! لم أعد أهتم إن كان ما حدث حقيقة، ليقيني أنّ الحقيقة في كثيرٍ مما تعنيه، تكون محاولة لجعل الأشياء الوهمية مؤكدة الوجود، واعتماداً على بعض النّظريات، بأنّ الحقيقة وسيلة من وسائل اللغة، أيقنتُ بأنّها محاولة تمنحني مجالاً واسعاً من التأويل والتّصور والإيهام أحياناً. لأنّي إنّما أبني أفكاري غالباً على ما أعتقد صحته، مما لا يكون بالضرورة واقعي الوجود. وقد سلّمت بأنّ الوهم هو إمكانية التّصديق لخلق المستحيل، فهو يمنحني القدرة على السير في سبل الخيال، لأستدل على الحقيقة، لأنّ بأضدادها تعرف الأشياء!.

الآن صرتُ أهرب من الحدود الضيقة للغرفة، للوطن، إلى فضاء مفرط في شساعته وبهائه وإن كان افتراضياً. مازلتُ أحاول خلق فضاء للتحليق، مؤمناً أنّ الفشل، لا يعني سوى أنّ لي شرف المحاولة. محافظاً على خاصية الحلم، باستحضاري أشخاصاً أحبّهم، ومحاورتهم بصوت عال، لأنّ ذلك يمنحني القدرة على التّفكير بشكل أوضح. ومن خلال حلم اليقظة ذاك، ركّبتُ مئات الأفكار، وحفظتُ الكثير من المقولات، وخلقتُ عالماً خاصاً بي، يكاد لشدّة وضوحه يحلّ مكان الواقع. فأنا أشعر بقرب هؤلاء الأشخاص، لدرجة لمسهم، والإحساس بأنفاسهم،

وسماع أصواتهم. أجمل مافي الحلم ذاك، أنّي من خلاله أسيطر على مشاعرهم وآرائهم، فهم يخضعون بالمطلق لرغباتي الشخصية، وفكرتي عنهم، فتجيء حواراتهم في منتهى الجمال والخصوصية. لكنّ ذلك أثّر بشكل عملي على حياتي العادية، فلم أستطع حتّى اللحظة أن أجعل مَنْ حولي يتكلّمون بلسان رغباتي وأفكاري مهما منحتهم من حبّ، ولم تؤثر تمائمي الشعرية فيهم. ما افتقدته في الواقع، وجدته عبر العالم الافتراضي، كان من السهل عليّ إدارة دفة الحديث مع نساء مثقفات، وجعلهن يسرن في كوكبي بالسرعة التي أريدها، وأوحي إليهن بطريقةٍ ما الجواب الذي أريده، وأنكر أنّي أردت ذلك!. بل أجعل محاورتي تعتقد أنّها هي التي تريد، وهي التي تفعل ذلك برغبتها. تطوّرت موهبتي تلك إلى حدّ ضبطِ غيرتي، لأنّي أؤمن أنّ غيرة الرجل تؤدي إلى نهاية يريدها هو. فالرجل يضع قلبه بين راحتيه، بينما المرأة تضعه تحت المطرقة! وأقنعتهن أنّ الرجل لا يمتلك المرأة، بل يسمو بها من خلالها، وفي الوقت الذي تكون الغيرة لدى المرأة دافعاً للموت أحياناً، فهي لدى الرجل دافعٌ للسموّ! وأؤكد دائماً أنّي لا أتحدّث عن السّائدين، بل عمّن يمتلكون اختلافاً في النّظرة إلى الحياة. لكن لحظة معتمة، يحدثها انقطاع مفاجئ في الكهرباء، تنقلني بعنف إلى حياة مختلفة، ليس لي يدٌ في خلقها ونظامها وبنيتها، حياة أشعر بغربتي عنها، لكنّي مجبر أن أحياها كما فرضها الآخرون! أهم الأمريكان من يتحكّم في طبيعة هذه الحياة؟ لطالما آمنت أنّ شعبنا يعيش ناتج صراع بين قوتين غاشمتين، الاحتلال والديكتاتورية. لكنّي أرجّح كفّة المحاسن لصالح الاحتلال، لأنّي أرى أنّ الدكتاتورية أوصلت النّاس إلى الموت في الحياة، واليأس من الحياة ومعها، ولم يكن أمامهم إلاّ أمريكا، فهي الوحيدة القادرة على تخليصهم من أشخاص حكموهم

بالنّار والحديد. أراضي نفسي أحياناً بهذه القناعة، مصحوبة بقولي «لا أحد يحبّ أن يكون بلده محتلاً» وأتغاضى عن مسألة الترجيح الضمني لكفّة الاحتلال، وقناعتي بأنّ الخلاص كان على يديه. لأنّي أرى أنّ كلّ طغاة العالم لم يكونوا ضدّ شعوبهم، ابتداء بهتلر مروراً بموسوليني وانتهاء بفرانكو. فلماذا كُتب عليّ أن أرضى بطاغية من أبناء وطني؟ ثمّ الأمريكان سينسحبون، لن يبقوا إلى الأبد، وستعود بغداد كما كانت على الرغم من كلّ ما فعلوه بها. أحاول جاهداً أن أبعد من مخيلتي ذكرى تلك الأيام الصعبة بداية الاحتلال، والتّفكير بإيجابيات الأمريكان، لآخذ جرعة ثقة إضافية تعينني على تجاوز ما يحدث، لكنّ الذكريات تجتاح العتمة مضيئة ذاكرتي بأحداث أمس قريب، لم أنسه بعد. فما زال الذعر يكتسح نومي لأستيقظ على كابوس القصف، تماماً كما صحوت ذلك الصّباح، ورأيت النّاس يتدافعون للهرب من العاصمة بأيّ وسيلة نقل، خوفاً من الشائعات الّتي ملأت البلد، بأنّ «الكيماوي قادم، وبأنّ النظام سيتّبع سياسة الأرض المحروقة» وكالوباء استطاعت الشائعة أن تكنس الشّوارع من الحياة! وتبعد النّاس عن مساكنهم، ملتمسين ملاجئ آمنة في مدنٍ بعيدة عن بغداد. كنتُ أرى وأسمع. لم أقتنع بوجوب ترك مكاني مادام الموت قدراً لا بدّ منه. لكنّ أمّي وأبي ألحّا عليّ، فوقفت عاجزاً أمام الدّمع الساخن في مقلة أمّي وذكرى أخوتي الذين هاجروا وتركوها وحيدة معي! هاهي تستحلفني بهم، وبقلبها الذي يخشى الفقد، والتّعذيب، أكثر مما يخشى الموت. لم يكن أمامي مفر، لم تترك لي والدتي خياراً، حين أمرت زوجتي بتحضير حاجياتها وحاجيات ابنها للسفر، وكان عليّ أن أخضع لرغبتها، وأساعدها في حمل الأغراض إلى سيارتي، والانطلاق من دون تردد أو تأجيل. كنتُ على ثقة أنّ الأمر لن يطول

كثيـراً، مـا دامت أمريكا وراءه. وبـدأ القصف، تلك اللحظات الكارثية التي وصلت فيها الطائرات، وأفرغت الدوائر الرسمية، لم يطل أمدها بالنسـبة إليّ، فقد غادرتُ بغداد إلى سـامراء مع أهلي. كما فرّ سـكّان المدينة من مجزرة مرتقبة.

بعـد أسـبوعين مـن الحرب عـدت إلى بغداد مع أسـرتي، فوجدنا أبواب البيت مشرّعة، ظنّت أمّي أنّ البيت تعرّض للسرقة، لكنّنا اكتشفنا أنّ كلّ شـيء مكانـه، وعرفنـا فيمـا بعـد أنّ أخي الذي يعمـل في وزارة الداخلية، والذي كانت وحدته خارج بغداد، عاد في غيابنا، وترك الباب مفتوحاً!).

***

ـ صباحكَ ياسمين، غيّرت الصورة في نافذتك!

– وصباحـكِ جاردينيـا، هـذه يـدي تحمل أوّل زهـرة جاردينيا تفتّحت في حديقتي قطفتها لكِ.

– إنّها يد شاعر!

– خلقت من ماء الرغبة، والعطاء.

– ماذا يمكن ليدي شاعر أن تفعلا بمن يحبّ؟

– لـن تملـكا سـوى أن تلامـس يديك، فتنطلق منهما الكلمات حمائم بيضاء، وتغفو أناملك بين راحتيّ كعصفورتين. إلاّ إذا كنتِ أنتِ القصيدة..

– إذا كانت القصيدة أنا، ماذا تفعل يدا شاعر بها؟

– ستنسـكب كماء الرب بين يدي، فأتطهّر مُباركاً بنداها، وأغدو نبياً مبللَ الرّوح والكلمات.

– ما الذي يفعله الأنبياء!

– ألا تعرفين أنّهم يكبرون برسالاتهم حين تكون قصائد مكتوبة بالضوء؟

– أربكتني...

– ألا تدركين أنّ الارتباك جمالٌ مؤكد؟ لأنّه يعني أنّ للحديث ألقاً مضيئاً في الرّوح والحضور.. وأنّه ليس أجمل من أن نرتبك في حضرة الكلمات، فما الذي يربكنا سوى الرّوح في نبضها الذي هو الكلمات، وما نحن إلاّ أرواحاً!.

– من يربكني هو أنت، لا الكلمات..

– لا أستطيع أن أمسك بوهج روحي وقلبي، فنحن على ضفة واحدة من ضفاف الضوء، أتمرأى بما يصلني من نورك، وأراني فيكِ، كما أراني من خلالك.

– وأنا أحسُّ أنّ مافيّ فيكَ.

– لأنّ الضوء يتصل بالضوء بصفة التّداخل لا بصفة الانجذاب.

– ... قلت لي إنّك تعيش من دون زوجة.. هل تحدّثني لماذا افترقتما؟

– نعم...

(الشرارة الأولى لخلافنا كانت في سامراء. أصبحتُ عاطلاً عن العمل بعد إغلاق الصحيفة التي كنتُ أعمل فيها قبل اجتياح بغداد. صرتُ أراها أكثر، أراها بشكل أوضح، وخشيتُ أن تمضي حياتي هكذا قرب امرأة لا علاقة لها بشيء. شعرتُ فجأة أنّني لم أعش حياتي كما يجب، وأنّ الحبّ هو ما أسعى إليه، وهذا ما لم أجده عند زوجتي، حتّى في لحظاتنا الحميمة! فكّرتُ بالطلاق، لكنّني لم أجرؤ على تنفيذ الفكرة أو التّصريح بها، ما دامت أمّي على قيد الحياة! فلم يكن زواجي إلاّ

إرضاءً لها، ونزولاً عند رغبتها. كنتُ أدفعها للتذمر بتصرفاتي المستفزة، وأتصيّد أخطاءها لأجد لنفسي العذر في البحث عن أمان نفسي بعيداً عنها. مع هذا لم أجد غضاضة في اللجوء إلى فراشها حين أحتاج ذلك، لأنّي أمنحها صدقة تستحقها، مادامت تقوم على خدمتي، وتساعد أمّي في أعمال البيت!.

بقيتُ عاطلاً عن العمل حتّى نهاية عام 2004، حينها وجدتُ وظيفة بسيطة، مراسل لإحدى المجلات في الخارج. وبدأتُ أخرج من عزلتي تدريجياً باقتناء كمبيوتر، مما أشعرني أنّ الحصار لا معنى له، وأنّ العالم صغير جداً. فقد انفتحت النّوافذ كلّها دفعة واحدة، لتريني العالم القصي خلال الفضاء الافتراضي، فصرتُ أتسمّر خلف الشاشة ساعات طوال، أتجوّل مستكشفاً عوالم عجيبة، دخلتها في البداية متردداً، ثمّ ما لبثتُ أن اندمجتُ في العالم من حولي، وتواصلتُ مع البشر والمواقع، ولم يعد هناك حواجز تفصلني عن أخوتي في الخارج. ورحتُ ألتهم الكم الهائل من المعلومات من دون توقف حتّى نسيتُ النّوم، والخروج، وزهدتُ فيمن حولي. لكنّ البيت أصبح هادئاً خالياً من الشجارات، فلم يعد أحد يسمع صوتي محتجاً على الطعام، أو متذمراً من أيّ تغيير في ترتيب المنزل، أو من تأخر أحد عن تلبية طلباتي. ثمّ فجأة وصلتني رسالتها، أرسلت تطلب إضافتي، فرفضتُ. كتبت إليّ تقول: «ثمّة شيء أكبر من رغبتي ورغبتك يبيح لنا ذلك». كتبتُ إليها سائلاً: «ماهو ذلك الشيء؟» ردّت: «حرفٌ صادق في رداء نبي». أعجبني قولها، قلب كياني، وأجلسني على حافة هاوية، كنتُ أنحدر إلى عمقها بسرعة رهيبة، غير آبهٍ لأيّ شيء. وهكذا اتّخذتُ قراري بالانفصال عن زوجتي من دون تريث، أو تفكير. حتّى أنّني هذه المرّة لم أتوقف كثيراً عند اعتراض أمّي، ولا عند دموعها، ومن ثمّ مقاطعتها لي، ليقيني أنّها لن تستطيع أن

تلومني أو تعنّفني، فهي تريد سعادتي أولاً، وإن طالت مقاطعتها لي.)

***

في بريدي لهذا اليوم مئات الرسائل، لكني لم أكن بمزاج يسمح لي بفتحها كلّها، اكتفيت بالأسماء المعروفة عندي.. أفرحني أن أرى اسمها يضيء بريدي... فتحت رسالتها بلهفة، وراحت عيناي تنهب السطور..

«كـ .. عادتِه حينَ يهزمهُ الشوق وتدميهِ أشواكُ الحنين، يحملُ على ظهرهِ زوادة عشقه، ويجولُ في فلكي هائماً... هي الحكايات التي تبدأ خلسةً، وتتسَلّلُ إلى وسائدنا، وفناجين قهوتنا، ووسوساتِ شياطيننا.. فتقسِمُ ظهرَ الحكمة، وتفتحُ النار في وجه الأصابع التي تُدينها ..

كـ .. عادتي حينَ يهزمني الشوق، أهيمُ في فلكه باحثةً عنهُ.. عني.. عن ذاك الطريق ..

وتصدح فيروز..

لا توديلي الزهر سلال، وبالشوق تجرّح موّال، بس اسألني كيف الحال[39] **..**

مساؤك قرنفل..»

غاليتي وحبيبة قلبي...

ها أنا من جديد أطرق أبواب قلبك، وأعرف أنّك ستشرعينها لاستقبالي.

تمنّيت أن يخرق هذه الهدنة القائمة بيننا، ويصفع ذلك البرود المحايد بجملة تفاجئنا معاً، نشعر معها أنّ الحياة ما تزال تمتلك القدرة على إدهاشنا، بمنحنا حق الاستمتاع بتفاصيلها الصّغيرة

(39) تبقى ميّل / الأخوين رحباني

الحميمة، فأحدّق في عينيه بامتنان وهو يسألني: «هل تحسنتِ قليلاً؟ أهناك ضرورة لزيارة الطبيب؟» أو يقول شيئاً مختلفاً، كأن يدعوني إلى مشوار في الشّوارع الّتي كانت تسكننا، ولم نعد نذكر ملامحها! أو الحدائق الّتي وقّعت على اتّحاد نبضينا في غمرة اعتقادنا أنّ ما نعيشه كان عشقاً جارفاً، لم يعد يستطيع انتظار تسويفاتنا، وأحلامنا الكبيرة، بل أجبرنا على احتواء المشهد بعقد وقّع عليه أهلنا، واحتفى به أصدقاؤنا، ثمّ انسحبوا، ليتركونا في مواجهة خوائنا الداخلي الذي اعتقدناه امتلاءً سينفجر بنا إن لم نرضخ لأوامره. وها نحن نشتاق ضحكاتنا المختلسة من فم اللحظة العابرة، نشتاق قهوتنا المصنوعة من كلماتنا المشتركة في إيقاع دفئها، تشابك أصابعنا التلقائي، ونحن نجتاز شارعاً في ساعة ازدحام خانق. أشتاق أن أستعيد حيوية جسدي التي فقدتها، قبل أن يسيطر الصداع على حيوية ذهني، فيشوش كلّ ما تبقى لي من وضوح الأشياء المحيطة بي.

من أين يأتي الضحك؟ ما هي الآلية التي يضحك بها الناس؟ وكيف يصلون لتلك المتعة الغريبة؟ لقد اكتشفت أنّي لا أعرف كيف أضحك، حتّى النكات تبكيني بعد ضحك متقطع، شبيه بمواء قطة تلد. لم أعد أضحك... حتّى تلك الأشياء التي كنت أراها مسلية، المسرحيات، أفلام الكرتون، خبث نقّار الخشب، ضاعت تلك العفوية التي أتعامل بها مع الأشياء اليومية في حياتي، حتّى افتقدتني بين أشيائي القديمة! أراني جاهزة للانهيار، للتغيير، لسلخ حدودي، وضم قطع أخرى إلى بلاد تبتسم لي، وهي تغرس سكينها في جسدي! لكن ما زلت أمتلك مع الفقر والتشرد والقهر، ما يسميه الساسة «شرف الوقوف». هم يضحكون علينا، ونحن نضحك بكاءً. فقد أضعنا بوصلة حواسنا، ونحن نقف عراة وجياعاً ومعزولين، قبالة قصورهم ومناصبهم وكراسيهم، ننتظر زلزالاً

آخر نرمي عليه تهمة جوعنا، وتشريدنا، ونقتنع أنّ كلّ ما يحدث بقضاء الله وقدره!

....

وبعد... كيف لا أردُّ على تحيّة تخترقُ حزني بهذا الدّفء؟ صباحاً استيقظت على سماء من المطر ومدينة تقّشعر من البرد، واكتشفت كم هي شاسعة مساحة وحدتي وخيبتي معاً. وها أجد رسالتك/ المحاولة/ في انتظاري بعبارة «و أعرف ألاّ رد» كيف تعرفين اللا رد أيّتها العزيزة؟ أنا هكذا أجيء، وأختفي، وأعود ثانية بانبهاري الأوّل نفسه أمام كلمات أصدّق أنّها تنبع من القلب لتستقرّ فيه! ولا أجد سواكِ، لأفتح أعماق كآبتي، وأدلق محتوياتها في سطور أمام ناظريك. ها قد عدت، لأقول لك ما يحدث بشكل يومي.

صرت أفتقد حتّى شكواه، واحتجاجه على مديره! يدخل حاملاً جرائده البائسة، بصمت يقف في المطبخ، أنتظر أن أسمع صوته يسألني «ماذا طبختِ اليوم؟» يواجهني الصمت. يجرُّ ساقيه بخطوات ثقيلة إلى غرفة النوم، ويغلق الباب دوني!.

أجلس كعادتي مقابل التلفاز، قناة الجزيرة تبث خبراً عاجلاً «قصف إسرائيلي على غزة» أغيّر القناة، انفجار عبوة ناسفة في سوق شعبي في بغداد، أغيّر القناة...

لم أعد أستطيع دفن المزيد من الجثث، صدقيني دماء هؤلاء الأطفال تلاحقني في كوابيسي مطالبة باستعادة أرواحها. هل أنا مسؤولة حقّاً عمّا يحدث في غزة وبغداد؟ ومن المسؤول عمّا يحدث في الجزائر؟

مللت، مللت كلّ الاتّهامات الّتي أثقلت روحي، مللت من مشاهد القتل والأشلاء، من ضحايا الفيضانات والزلازل، مللتني، ورحت أبحث عن شيء مختلف في قنوات روتانا. بصراحة هالني ذلك التشابه بين وجوه

المغنيات حتّى أنّي لم أستطع التفريق بين واحدة وأخرى، وأضحكتني فكرة أنّ الفرق في الطعم! مادام الصوت والشكل واللحم المعروض متشابهاً إلى هذا الحد! أرفع الصوت عالياً، أتوقع أن أراه يوارب الباب ليصرخ بي: «أخرسي هذا الحمار». أو ليقول بهدوء: «ألن تنامي؟» أو يأتي ليجلس بجانبي، محاولاً أن يردم هوة الهجر بلمسة عابرة، يطالبني بعدها بتحضير العشاء! لكنّ الباب لم يتحرّك، لم يصدر صريراً، ولم أسمع خلفه وقع خطوات، أو تمتمات غاضبة، حملت صمتي صليباً، واتكأت على الوسادة، وغفوت بانتظار يوم اعتيادي آخر، لا يحمل في طياته ريحاً تفتح النّوافذ عنوة، ولا مطراً يبلّل القلب، ولا صقيعاً يجعله يلتمس قربي في اللحظات النّادرة تلك الّتي تجمعنا فيها الصالة على مائدة العشاء!

حيّاك الله أختي. وليكن يومك جميلاً، أجمل من يومي، وأكثر وضوحاً من حزني.

غفران..

....

المفاجأة الثانية كانت قصيدة، أرسلتها لي نور، شابة تكتب في الموقع الذي أديره، تطلب رأيي فيها قبل النشر. قرأت القصيدة، واخترت مقاطع منها وضعتها في نافذة المحادثة.

مازال مقعدك الأنيق

يتنهّد الأشعار في الركن العتيق

فهنا جرى نهر العسل

وهناك أجريتَ النبيذ حكايةً

يطفو على وجناتها الأزل

وهنا تدفقت احتمالات الغمام

وهناك أطلقنا تراتيل الحمام

مازال صوت هديله

يطغى عليّ

فلا أنام

ولا ينام ![40]

– قل لي رأيك، قبل أن أكتب رداً لصاحبة القصيدة.

– أتعرفين صاحبتها؟

– لا أعرفها شخصياً، فقط من خلال ما تكتبه.

صمت مليا، وكتب:

– حسنا، أرسلي لي القصيدة كاملة، وسأكتب لك رأيي إن كنتِ تهتمين بأمر الشاعرة بشكل شخصي. هل نبدأ؟

– تفضل...

(في الصباح، أبدأ يومي في الجريدة بفنجان قهوة، وأصابعي تعبث بمفاتيح الكيبورد، وقبل أن تتغلغل الرائحة الذكية في أعصابي، وتتمشى القطرات الدافئة في دمي، تكون نافذتها مضاءة بالياسمين، فأعاجلها بالتّحيّة.

– صباحك ياسمين، كيف روحك؟

ترد بلهفة:

– يجبرني الصباح بنسيمه، وعطر ورده أن أكون أنا، روحي كما هي، تحلّق بعيداً، فتلتقي روحك مصادفة على حافة نهر، كلتاهما كانتا تراقبان نوارس بيضاء، فاغتسلتا بكلمة «صباح الخير»، وطارتا معاً،

(40) من قصيدة أغاني من مقام الماء . للشاعرة هزار طباخ.

صوب غيمة، تسّاقط ندى، لا أعرف ما حصل؟ ما زلت أراقبهما، ابتسم، ابتسامتك عذبة، أراها أيضاً، أحسّ الصباح مختلفاً اليوم! قلت لروحي: أبلغيه أنّ ابتسامته تمنح البياض لزهوري، فتأتلق بعطرها. أريد أن أسمع صوتك.

– مبللٌ بندى حضورِكِ صوتي وقافيتي.

أكلّمها لدقائق، وأتابع عملي. في المساء أجدها في انتظاري عند النّافذة الافتراضية، وكأنّها لم تغادر المكان! أكتب لها:

– مساؤك ياسمين...

– ومساؤك رازقي...

– كيف روحكِ؟

– روحي كما في الصّباح، مازالت تحلّق بحروفك. وأنت؟

– ابتسمت روحي حين لامسها الصّباح بضوئه وعبير زهرك، شكراً لكلّ زهرة بيضاء أضاءت قلبي، قبل أن تزهو في نافذتك، فالأشياء بما تحمله لا بما هي موجودة عليه.

– قصائدكَ التي أرسلتها لي، جعلتني أرى الوجه المشرق للحياة، ما الذي تفعله بي كلماتك؟ أراني أجمل بها!

– تنحني سنابلي امتلاءً بما تقولين، ومما تقولين، أنا لم أعترض سبيلك بقصدية مسبقة، وإلاّ ما كان كلّ هذا الجمال! لأنّي مؤمن أنّ الشّعر حين يكتب بقصديات مسبقة يفقد بريقه الإلهي. ربّما نحتاج أن نرانا في عين الآخر لنعرفنا! وأنتِ رأيت نفسك بعينيّ فأصبحتِ أجمل.

– ما نكتبه هو حقيقة واقعة، فالمستقبل داخلنا وإن كنّا نعيش في الحاضر، لهذا يبدو لي أنّي عشت معك سابقاً في مخيلتي، وأرقتُ بكَ ليالٍ طويلة.

اتفقنا على اللقاء، حين أخبرتني أنّها ستزور أقارب لها في بغداد. كنتُ مرتبكاً كمراهق يذهب إلى موعده الأوّل، وصوت ياس خضر ينطلق ببحته الحزينة من اسطوانة في محل قريب من المنتزه. حين حاولتُ أن أعبر إلى جهة الباب، قبض الصوت على تلابيبي تاركاً غصة في حلقي «هذا آخر عشق يا روح، لا مرني ولا شفته!» لكنّ خطواتي عبرت بإيقاع الفرح الذي افتقدته، آملة أن تجد الحقيقة التي انفلتت من حلم ما زال قابضاً على روحي. للمرّة الأولى لا ألتفت إلى جمال الأشجار في منتزه الزوراء، ولا تخطف بصري المساحات الخضراء، كنتُ أبحث بلهفة عن تلك الزاوية التي تحتضن أحلامي. كفُّها المرتاحة بين يديّ رقيقة، أرسلت في أعماقي شرارة كهربية، وأنا أتأمل قدّها، رشاقتها، لون بشرتها الحنطي، ابتسامتها العذبة، وهتفتُ من أعماقي «يا الله، تكاد عيناها تنطقان، وروحها تشف». ابتسمت وهي تفترش الأرض. جلستُ قربها، من دون أن أترك يدها، ورحتُ أقرأ لها أشعاري، نسيتُ لدقائق طويلة، أنّني لم أسمعها تتكلّم، وأنّني لم أسكت لحظة! فقلتُ والتوتر يضرب أعصابي: «لمَ أنتِ صامتة؟» ردّت بصوت لا يكاد يسمع «أسمعك». قلتُ معتذراً: لم أستطع أن أصمت وأنا أرى كلّ هذا الجمال، مع أنّ «الصمت في حرمِ الجمالِ جمالُ». قالت برقة: «لهذا أنا صامتة». صعقني جوابها، قلتُ: «ظننت أنّي أزعجتك بصوتي، من يسمع صوتك لا يستطيع أن يتحدّث بعد ذلك أبداً» قالت: «إنّ صوتك فيه من الحنين ما يجعل روحي تنتفض باكية» حينها توقفت الكلمات في حلقي، ولم أعد أستطيع الكلام، حدّقتُ فيها، صوتها كان واثقاً، في عينيها بريقٌ ضاحك، يدها مستسلمة بهدوء كيمامة بين كفيّ. قالت بصوت خافت: «ما أروع ما أعيشه في هذه اللحظة، في هذا المكان». قلتُ: «حين تكون المشاعر راسخة في الرّوح، تكون الأشياء

رائعة كلّها، لأنّها ستحمل صدقها المهيب، المكان أوسع من مساحة محددة ومحدودة». تمشينا في الحديقة، لحقت الطيور، وكأنّها طفلة تحاول التحليق، غمست أصابعها بمياه النافورة، همست وهي تتنفس بعمق: «كم أودّ لو كنا على شاطئ بحر، لأركض بكلّ قوتي، وأحتضن الزرقة اللانهائية، وتحتضنني.» قلتُ: «ها هي البحيرة تصبح بحراً، حين تلامسين ماءها، ولكنّه يظلُّ زلالاً فراتاً». قالت بدلال: «هي مجرد كلمات جميلة». قلتُ: «بل إيماني أنّ المشاعر تسبق الكلمات». قالت: «لم تقل لي كيف تعيش هكذا من دون امرأة؟ وقد جرّبت الزواج!». قلتُ: «المسألة لا تبتعد عن القدرة على السيطرة على الحواس وبالتّالي الرغبات، أيّ توجيه الذهن والحواس باتّجاه آخر، بعيد عن التّفكير في هذا، أو كما يقولون أشغل نفسي بأمور أخرى، ولست شاذاً في هذا عن الكثيرين، للإنسان قدرة عجيبة على خاصية الإبدال، بل هي رغبتي المؤجلة ربّما، أو...». قالت بلهفة: «ماذا؟». قلتُ: «كنتُ أنتظرك». لم تكن بحاجة للمزيد، هي العبارة التي تاقت لسماعها، أن تكون هي ولا أحد سواها من جعلني أنتظر، محتفظاً برغباتي المؤجلة لأجلها. حملت معها أمنية صغيرة وهي تودّعني، أن يكون لقاؤنا القادم في بيت يخصنا. كادت تؤمن أنّ ذلك قريب جداً، لولا هجوم ذلك الألم العنيد على حنجرتها مجدداً. ولم ألبث أن عدتُ لانتظارها عند النافذة الافتراضية، مستحضراً صورتها، وشوقي، وإرث عمر من البحث عن امرأة مختلفة، تمنحني القصيدة قبل جسدها!. لم يشغلني طيلة أشهر شيء سوى غرقي في لذة الحديث المجنّح، والأحاسيس المحلّقة.)

- لحظة هاجر، سأردُّ على الهاتف...
- تفضل.
- .....

- من على الهاتف؟
- لا أستطيع تصديق ذلك هاجر، لا أستطيع السيطرة على نفسي.
- ماذا بكَ؟
- أنت أيضاً لن تصدقي...
- أقلقتني، ماذا حدث، من كان على الهاتف؟
- أحمد!
- ماذا؟ أنت متأكد؟
- هو، والله هو، آخر شيء يمكنني توقعه.. صوته.. نعم هو..

(صوته القادم عبر مفاوز الألم والقصف، حاملاً معه أتربةً وغباراً ما زال عالقاً في الرّوح، لم يفلح الزمان في التخلص من أثره. سألني الصوت: «ألم تعرفني؟» خضّني بعنف، لا أريد أن أصدق أنّني مستيقظ، وأنّ ذاكرتي ليست معطوبة، وأنّ هذا الصوت الذي لم أسمعه منذ تلك اللحظة التي غطس فيها صاحبه في مياه النّهر، ما زال ماثلاً أمامي بكلّ تفاصيل ذلك اليوم القائظ، أحمد؟ أيعقل أنّه هو؟ أهو حي؟ ضحك الصوت قائلاً: «أنت لا تحلم، هو أنا، أنا بشحمي ولحمي، أتصور أنّك خائف من النطق باسمي، هو أنا أحمد، ما بك يا رجل؟ خرست؟ أهكذا تستقبلني بعد هذه السنوات من الفراق؟». ابتلعتُ ريقي الجاف، فوقفتْ غصة في حلقي، تمزق شيء في أعماقي، تطايرت بعده الكلمات الحائرة: «كيف؟ لا أصدق؟ بصدق أنت لا تكذب عليّ؟ أنت هنا؟ في بغداد؟ كيف اهتديت لرقمي؟ كيف وصلت؟ أين كنت؟». ضحك الصوت ضحكة مجلجلة، وقال: «توقف، على مهلك، سأخبرك بكلّ التفاصيل، لكن ليس على الهاتف، ألن نلتقي؟ أراك غداً، سأنتظرك أمام مبنى الجريدة، بعد انتهائك من العمل». وأغلق الخط. أنساني

اضطرابي النافذة المفتوحة، وانتبهت فجأة إلى إشارات التنبيه المتلاحقة التي وضعتِها مع الوجوه المستاءة التي ارتسمت في نافذة المحادثة. هل يعقل أن يعود الأموات؟ تعلمين هاجر؟ أوّل شخص خطر ببالي نعمت، أتساءل ماذا سأقول لأحمد إن سألني عنها؟ لا شكّ أنّها أوّل شخص سيسأل عنه. ثمّ ماذا لو رأى نعمت؟ هل ستقول له؟ لكن، أين نعمت الآن؟ أخبارها انقطعت منذ موت أبويها في حادثة قصف ملجأ العامرية. في المحصلة لستُ مسؤولاً عنها، سأقول له إنّها تزوجت، بل سأقول إنّي لم أسمع شيئاً منذ انتقالهم من الحي القديم. وربّما تكون قد تزوجت، ليس من المعقول أن تبقى من دون زواج بعد أن ثبت أنّه في عداد الأموات! وقد لا يسألني عنها، ويوفر عليّ الإحراج. في مطلق الأحوال عليّ أن أبدو لا مبالياً وحيادياً تجاه الحديث عن نعمت، فهي التي ارتضت أن تكون مجرد ذكرى باهتة وتافهة، بخيانتها لحسين وأحمد. لكن.. ألم أكن طرفاً في تلك الخيانة؟ الأفضل أن أحضّر في ذهني ما سأقوله غداً لأحمد. ثمّة مقولة أحفظها، تقول «على المقاتل أن لا يستخدم كلّ ذخيرته، وعليه أن يحتفظ بأشياء لا يعرفها العدو»).

***

انتظرته أياماً حتّى تمكّن مني القلق، ما الذي جرى؟ لماذا لا يظهر في النافذة؟ كتبت له رسالة، فردّ «ألقاك مساء اليوم، كوني بخير». في المساء استقبلته بلهفة اعتصرت قلبي، فضولي لمعرفة نتائج اللقاء بينه وبين أحمد، لم تنسني أنّ قلبي مارس عليّ في الأيام الماضية نوعاً من الحصار، احتكر فيه الألم، وفاض الدمع لمجرد خواطر عابرة، صورت لي أنّ أذىً ما أصابه!

- كيفك وروحك؟

- روحي قلقة عليك، لن ترتاح قبل أن أطمئن.. ماذا جرى

لك؟ الأفكار السيئة طحنت روحي.

– سلامة روحك.. انشغلت مع أحمد، طمئنيني عنك أولا، هل هناك جديد، أم أنّ الأحوال استقرّت بعد انتهاء الحرب؟ هل مازلتِ عند صديقتك؟

– نعم، مازلت عندها، لكن في بيروت، نزلت من بيت الجبل، بعد أن قضيت هناك قرابة الشهرين، لم أعد أستطيع البقاء لوحدي، خاصة وأنّك تغيب طويلاً! هل نتابع؟

– سأروي لك ما حدث.

(حين خرجتُ من مبنى الجريدة، لم ألتفت حولي، تجاهلتُ قلقي، وترقبي، وتمنّيت لو ينسى أحمد الموعد، لو يكون ما حدث البارحة حلم يقظة موحش، سينتهي بعد دقائق حين يقابلني الشارع الفارغ عند المنعطف، فأركب وسيلة النقل اليومية، وأذهب إلى بيتي كالعادة. قبل أن أنعطف عند زاوية الشارع، أجفلني صوت زمور حاد، التفتُّ بسرعة، وكدتُ أشتم صاحب السّيارة، الذي فتح الباب بسرعة، وضحك وهو ينزل ليلقاني وجهاً لوجه، وقد فتح ذراعيه، وصرخ بصوت عال «لك وحشة والله». استسلمتُ لعناقه، وأنا ذاهلٌ عمّا يجري. كان ذهني مشتتاً، تغوص فيه الأفكار والعبارات التي حضّرتها مسبقاً، لم يعد هناك ما يعنيني، استسلمتُ للأمر استسلامي لموج عاتٍ وسط عاصفة هوجاء... ركبتُ السيارة وأنا أرسم ابتسامة بلهاء على شفتيّ. لم أعترض حين اقترح أحمد أن نذهب إلى أحد مطاعم المسكوف لنتناول غداءنا. أعرف أنّ الطعام لا يهمني بالدرجة الأولى، تذكّرت كم كنتُ أتعرّض لزوجتي حين تصنع طعامي، ساخراً من طريقة إعدادها للطعام. مسكوف يا أحمد؟ هززت رأسي وكأنّي أوافق على قولٍ لم أسمعه أو فكرة عابرة، نقلتْني كالبرق إلى وسط دجلة، فغصتُ بعيداً بحثاً عن سمكة ملوّنة، لم

تعد لي! استسلمت لشعور الخيبة، وشعورٌ آخر بقرب تخلصي من حصار وجودي داخل السيارة قريباً هكذا من أحمد كما كنا أيام زمان!.

حين تركنا وراءنا نصب جواد سليم، وكدنا نصل تسجيلات جامقجي، باغتني قائلاً:

– ما رأيك لو تجولنا قليلاً في «أبي نواس؟».

لم ينتظر جوابي، استدار بالسّيارة شمالاً، ومضى.. وعند مدخل الشارع، أوقفتنا قوة مدنية، سلّم رئيس الدورية على أحمد بحرارة، وتركنا نمرّ. لم تخضع السّيارة للتفتيش، تساءلت في نفسي «هل أصبح مشهوراً لدرجة مروره بالحاجز من دون أن يفتح باب السّيارة؟ غاب عني نوعية السيارة التي يركبها، حتّى أنّي لم أنتبه للستائر ولا للمقاعد، كان ذهني محصوراً فقط في كيفية انتهاء هذا اللقاء الذي لم أضعه في حسابي!. لفت انتباهي تناقض المشهد، فقد كان يمين الشارع جهة الماء مأهولاً بالناس، بينما بدا يسار الشارع في حال عطالة تامة، المحال مغلقة، والهدوء المريب مسيطر على المنطقة. قلتُ لأقطع الوقت بالحديث مُغلقاً على أفكاري القلقة طريق إرباكي: «أتذكر كيف كان الشارع في الماضي؟». ضحك أحمد، وكأنّه ينتظر الدعوة إلى الكلام. «أذكر، حين كنّا نهرب من المدرسة، ونتمشى هنا، وكأنّنا في بغداد ألف ليلة وليلة. نرى الرشيد في شرفة الشيراتون، نراقب المنطقة الخضراء كما نراقب سمكة شهية، ونحن جياع! أذكر كم مرّة قلت لي إنّك تقضي الليالي، وأنت تكتب الشعر هنا على حافة النّهر، وتتخيّل أنّك وأبو نواس شخصية واحدة!. ضرب فخذي بمودّة متابعاً «اليوم أنا الرشيد، سندخل الشيراتون معاً». أوقف السّيارة، ونزل منها... تبعته مستغرباً، رأيتُ حارس الفندق يركض ليسلّم عليه. تساءلت ما الذي جعلني أتورط في المجيء إلى هنا؟ ماذا يريد أحمد؟ أحرقني جمر الكلمات التي

ستقال بعد أن تنتهي وجبة السّمك الشهي الذي تتصاعد أبخرته لتقبض على أنفاسي، ويخنقني الطعم اللذيذ الذي لم أعرف له شبيهاً، لكنّي لم أستسغه، صحبته غصّة الكلمات العالقة بين أشواكه، متى سينتهي انتظاري القاتل لما سيبوح به أحمد، وأمضي لشأني؟ أخيراً سحب نفساً عميقاً من نارجيلته، نفث الدخان، ورشف شايه بتمهل، وقال: «المهم... في الواقع، ترددت كثيراً قبل أن أتصل بك لتساعدني في أمر». وصمت قليلاً، وكأنّه يستجمع شجاعته. لا، لن أستطيع أن أجلس هكذا فوق عبوة ناسفة ستنفجر خلال ثوانٍ، سأنهض، سأعتذر بأنّ لديّ موعداً يتعلّق بعملي. سأذهب إلى الجحيم، أفضل من سماع ما سيقوله أحمد، أنا لا أعرف، لا أعرف شيئاً، لم أرها منذ ذلك اليوم الذي ...

تنحنح أحمد، وهو يقول: «لن تخذلني، ستذهب معي لرؤيتها، لا أستطيع مواجهتها وحدي». دفعتُ غصتي بصعوبة، وقلتُ، وحلقي يصدر طقطقة غريبة: «وما حاجتك لي، هو أمر خاص بك، بكما، ما شأني أنا؟». وهمستُ لنفسي «كيف عرف طريقها؟». قال أحمد: «ربّما تحتاج لمن يسند ضعفها، لمن يساعدها على التّصديق أنّي مازلت حياً، ربّما لا تعرفني، أريدك لتدعم موقفي». غصصتُ بالكلمات، ولم أنبس .. أدعم ماذا؟ ماذا سأقول لها؟ رجع أحمد، عليكِ أن تقبلي بالواقع، وتعودي إليه؟ وأنا؟ كيف سأقف أمامها ثانية بعد أن... سمعتُ صوته يحثني على الموافقة: «ليس لديّ صديق غيرك. تعرف أنّها كانت تحبّك كثيراً، وكانت تفضّلك عليّ أحياناً، أم أنّك نسيت سهراتنا ولياليا، وطفولتنا!». لم أنسَ، كيف أنسى؟ لكن كيف سأضع نفسي في هذا الفخ؟ ذلك مستحيل، يجب أن أجد مخرجاً. سألته بعد تردد: «وكيف عرفت أين هي؟ أليست متزوجة؟ سيكون محرجاً أن نذهب إليها من دون أن نعرف ظرفها؟». ضحك أحمد من قلبه، وقال باستنكار:

«متزوجة؟ قل كلاماً غير هذا يا رجل، من يرضى أن يتزوج عجوزاً مثلها، الصبايا لا يجدن عريساً، قم معي، قم». همستُ لنفسي «عجوز! بمَ يهرّف هذا المخبول؟». ركبنا السّيارة معاً، ورأسي تلف. ماذا يحدث؟ لا أستطيع أن أفهم شيئاً. قطع أحمد الصمت قائلاً: «غريب أمرك، هل تعرف عنها شيئاً، وتخفيه عني؟ أصدقني القول، بدأت أقلق». نفيتُ بقوة معرفتي بشيء. قال أحمد: «حسناً، دعنا نمر بشارع المتنبي، ونتجوّل قليلاً، الوقت مبكر للزيارة.)

قاطعته بقولي:

– ألم تصدّق أنّ نعمت أغرقت نفسها في النّهر؟ وكأنّ رؤياي لم تقنعك!

– ليس بالضبط، لكن لا يمكنني أخذ الرؤيا على محمل الواقع.. كما أنّ المعطيات وحدها لا تكفي، أحتاج لدليل يثبت رؤيتك وروايتك.. المهم أنّ ما حدث بعد ذلك أطاح بكلّ توقعاتي.

– وماذا حدث؟

– تعلّمي أن لا تقاطعيني لتعرفي.

وضعت له وجوهاً ضاحكة في النافذة، وطلبت منه أن يكمل، ووعدته أن لا أقاطعه ثانية!

(فيما مضى كان ليوم الجمعة دلالته الخاصة، طعمه ورائحته، أبدأ الصباح بحمّام، أتعطّر، أرتدي ملابسي، وأذهب إلى شارع المتنبي. أقضي اليوم بين الكتب والأصدقاء، أستعيد مجد المقاهي والنقاشات العالية النبرة، وحماس لعب الطاولة. في المساء أعود محقوناً بأحاسيس طازجة، تدفعني للدوران حول نفسي لساعات، أقضي الليل وأنا أناوش الكلمات، وأراودها عن نفسها، حتّى تقول لي هيت لك! ثمّ أنام بعمق.

الآن لم أعد أرى في الشارع الملهم سوى لوحات إعلانات تتدلّى من البنايات القديمة، وبوابات الحديد التي تغلق المداخل إلى محلات بيع الكتب. لم يعد هناك سوى أشباح تجوب الشارع! الجمعة الماضية، رأيتُ نعيم الشطري جالساً على كرسي أحمر أمام محله الصغير، وقد حنى قامته القصيرة صوب الأرض، وغرقت نظراتُ عينيه السوداوين في دمع يكاد ينفجر ساخطاً على ما يجري للعراق. الشارع المليء بالنفايات أمامه، رائحة الورق التالف، ومياه المجاري تنتشر في الهواء العطن، فلا يكاد المرء يستطيع التقاط أنفاسه. قبل أن أقترب منه لأحييه، لمحته، ينهض، ويسير بعيداً، تاركاً باب محله الصغير مواربا للريح القادمة من الغرب!.

تنحنحتُ مزيلاً أشواك حلقي، وقلت: «ماذا تريد من هذه الجولة؟» ردّ أحمد بحماس: «أريد رؤية الشارع، استعادة ذكرياتنا هنا، أرى على وجهك أنّك لم تقتنع، حسناً لي مآرب أخرى ستعرفها قريباً. قل لي، كيف الحال فيه؟». رددتُ بفتور: «قبل ثلاثة أشهر فرضت الحكومة حظراً للتجول في منتصف النّهار، في إطار إيقاف الهجمات على المساجد، وقد كان هذا نكسة للشارع. كما تعلم في السابق كان المثقفون يجتمعون في مقهى «الشاهبندر[41]» للنقاش حول قضايا السياسة والثقافة وهم يحتسون القهوة أو الشاي بالليمون حتّى في أصعب الأوقات. الآن وفي العام الرابع للحرب، أصبح الشارع شبحاً، يقتل روح زواره كمداً، ويرعبهم الحاضر البائس لماض أخذ روعته ورحل». سأل أحمد بالحماس نفسه: «وأصحاب المكتبات؟». رددتُ بغصة: «مررت بمحمد اليحياوي، صاحب مكتبة النهضة، لا بدّ تذكره، قال لي: (نحن نمشي

(41) تأسس المقهى عام 1917 بعد أن أزيلت مطبعة الشاهبندر التي كانت مكانه ـ لظروف سياسية ـ عند دخول البريطانيين إلى بغداد.

وتوابيتنا بأيدينا، لم يعد هناك شيء مضمون في العراق). أنت تعرف أنّ الشارع امتداد لأرواحنا، لهذا نشعر أنّنا نختنق، بعد أن عطبوا رئتنا التي نتنفس بها. ثمّ... ما الذي يعنيك من أصحاب المكتبات، هل تنوي أن تفتح مكتبة؟». ضحك أحمد للطرفة التي قلتها مغتصباً ابتسامة لم أفلح في رسمها على شفتيّ، وعقّب قائلاً: «ربّما أشتغل في المكتبات، من يدري، لكن ليس ببيع الكتب، فهي لا تهمني في شيء». قلتُ بغصة: «أعرف ذلك، وهذا ما يدهشني، وجودك هنا في هذا الشارع إلاّ إذا كنت تحنُّ لكأس شاي بالليمون!». قال بلا تردد: «هو ذاك». كان الوقت غير مناسب لوجود زوار في مقهى الشاهبندر، فاليوم أربعاء، والوقت بين الظهر والعصر، المحل فارغ إلاّ من صور بالأبيض والأسود لبغداد! وعلى الطاولة التي في الركن شخصان يدخنان نارجيلتهما بصمت.

صاحب المقهى الذي ابتسم في وجهينا قال: «في هذا الوقت لا تجد عادة مكاناً تجلس فيه، لكنّ النّاس انصرفت عن المقهى بعد حوادث القتل التي استهدفت عدداً من زبائنه» رحم الله أيام المثقفين الكبار الذين كانوا يعقدون حلقات لرواية القصص لمن هم أصغر سناً، كلُّ ما اعتدناه من جمال انقرض الآن، حتّى النّاس راحت تحرق كتبها». سأله باهتمام: «كيف ذلك؟». ردّ النادل وهو يبتسم: «اجتمع الشطري من أسبوعين مع مجموعة من أعضاء اتّحاد الكتاب أمام محله، تناولوا الشاي، في حدود التاسعة والنصف، صبوا البنزين على كومة الكتب، وأحرقوها! هل رأيت أحداً يحرق روحه؟ كان الشطري يصرخ، وكأنّ النّار تلتهم جسده. أراد أن يوصل رسالة للمسؤولين، هل تعتقد أنّ الرسالة وصلت لأحد؟ لا... لم يصل الصوت، فقط حملت الرّيح الرّماد بعيداً، وذرّته فوق دجلة. ولم يكن هولاكو حاضراً، مع هذا ارتفعت ضحكات خبيثة من وراء النّهر، تنبئ أنّ هولاكو لم يغادر المكان أبداً!».

حيـن مضـى النـادل ليحضـر الشـاي، قلتُ لـه: «الجمعـة الماضية مررت بالعقيلي...

هتف باستغراب «مازال حياً؟».

«نعـم مـازال شـاهداً علـى مـا يجـري، منذ فتـح مكتبته فـي نهاية الأربعينـات وحتّـى الآن، مـررت به أبحث عن كتـاب، هلّل حين رآني، قال لي: (أستبشر برؤيتك، فأنت تشعرني أنّ هناك أحياء في هذا الشارع، ألا ترى؟ البعض مات والبعض غادر، ولم أعد أعرف أحداً) إحساسـه بالمرارة كان كبيراً. فهو يرى تساقط الحياة وتلاشيها من حوله، ويفتقد النّـاس، وينعـي الزمـن الـذي كان يبهجه بقـرّاء ومثقفيـن، وحركة دائبة، وسـهر حتّـى منتصـف الليل. الآن يغلق المحـل في منتصف النّهار على عجـل، ويركـض إلـى بيته خوفاً وحذراً من مصير مجهول يتربص به في الزوايا والمنعطفات، كما فعل بمن سبقوه».

خيّـم صمـت ثقيـل، ونحـن نرشـف الشـاي، تصاعـدت الأبخـرة الساخنة، وشكّلت مع دخان النارجيلة غمامة لطيفة حجبت عني ملامح أحمـد، وملامـح الـكأس، فالطاولة، وحلّقتْ نظراتي بعيـداً عبر النافذة، كنتُ أرى دخانا كثيفاً يتصاعد من الشارع فوق كومة هائلة من الكتب، وأبو حيان التوحيدي، يزكي النّار، ويزيد أوارها برمي المزيد من الكتب. تنهّدتُ متحسّراً على نبضات روح كانت تصرخ بتفجع، وتندب رمادها المتطايـر فـي الأفـق. كثيراً ما تسـاءلتُ عن إحسـاس أبي حيان في تلك اللحظـة التـي سـلّم فيهـا نبضـه للنار؟ كيف اسـتطاع أن يحيـا بعد ذلك بروح شوّهتها الحرائق؟ أيقظني من استغراقي في الحلم صوت أحمد: «أين وصلت؟ لم ترد على سـؤالي؟ لم تتخلّ عن عادتك السـيئة تلك. حسـناً كنـت أقـول لـك، إنّي سأشـارك في إعادة إعمار الشـارع، هذا ما دعاني لزيارته الآن... نفكّر أنا وشـركائي أن نرصفه بالمرمر، والطابوق

الملـون، مـا رأيـك؟». لم أرد، كنتُ أراقب أحمد، أسـمع، وأرى الأبنية بأخشـابها الجميلـة، تفقـد روحهـا هي الأخرى، تحت وطـأة التحديث، وإعادة الإعمار، قلتُ بأسى: «ستقتلون كلّ ما هو جميل هنا». ردّ أحمد بحماس: «أنترك الشارع للنفايات؟ ألا ترى أنّه خرب، والمياه المتدفقة، وباعـة الكتـب على الأرصفة». ضحك، وتابع قائلاً: «لا تحزن، سـنترك لـك المنطقـة التراثيـة كما هي من شـارع حسـان بن ثابـت، جهة مقهى الزهاوي، إلى مخرج شـارع المتنبي من جهة شـارع الرشـيد، والقشـلة أيضـاً». غصصـتُ بالكلمـات، يترك لي؟ ما به أحمد؟ ما المنصب الذي يخوله لعمل ذلك؟ ومن أين عاد؟ من أين أتى بالأموال التي تؤهله لمثل هـذا العمـل؟ صدمتـي كانت بنوع العمل الذي سـيقوم به، متى سـينتهي هذا الكابوس؟». قال، وكأنّه يقرأ أفكاري: «لستَ سعيداً بعودتي؟ ظنّنت أنّـك صديقـي الوحيـد المتبقي من زمن الحرب!». قلتُ نافياً التّهمة عن نفسي: «كانت روحي تسبقني لكي تستعيد تلك الأيام الّتي جمعتنا، أبناء الحروب أصدقاء حميمون، لأنّنا نحملهم، ويحملوننا بلا غايات، سوى غاية الحياة!». تساءل مندهشاً: «ماذا بك إذن؟ أهي الذاكرة؟ تعيدك إلى يومنا الأخير المشـترك! لا بدّ أنّك تتسـاءل ما الذي حدث يومها؟ وأين كنت؟ سأروي لك كلّ شيء. لا تستعجل، أمامنا الأيام طويلة. سنلتقي كثيراً، ونثرثر حول أيام الصبا والطفولة، والجامعة، والحرب، على الرغم من أنّي لا أحبّ تلك الذكريات، ولا أرغب في اسـتعادتها، فقد كانت أياماً مريرة، مازال حلقي يحتفظ بطعمها اللاذع، كلّما حاولت استعادتها!. دعنا من ذلك، بي رغبة في استكشـاف المدينة، شـبرا شـبراً، سترافقني، أليس كذلك؟» قلتُ مستنكراً: «تستكشفها؟ وكأنّك غريب عن بغداد؟!» ردّ: «على الرغم من معرفتنا للمدن التي نسـكنها، تظلُّ مجهولة بالنسـبة إلينا، على أقلِّ تقدير، ذلك الجانب الذي يراه الآخرون. شركائي اقترحوا

عليّ مشاريع عدّة، أذهلتني لدرجة ظننت معها أنّي أعيش في مكان آخر، لهذا قلت لك، أريد استكشاف المكان». لم أرد، هذا عالم لا يعنيني، لقد فقد أحمد ملامح بغداد، لم يعد وجهه وجهها، صار هجيناً، ملامحه مصقولة كالمرمر الذي يريد تبليط الشارع به، ملوناً كالطابوق الذي سيزيّن به الجدران، فقد أصالة الخشب ولونه البني المحروق، ورائحة الدفء المنبعثة منه، ممزوجة بالحبّ والألفة، حتّى في احتراقه. وكأنّه لم يدخل الحرب! وكأنّه لم ينم في العراء يوماً وسط غضبة الرمال، وحرِّ الظهيرة اللاهب. كدتُ أصرخ في وجه الرخام البارد، أنْ كفى، لم أعد أحتمل. لكنّي جَبُنتُ فجأة، واعتصمتُ بصمتي، ونحن نركب السّيارة، وننطلق للقائها.)

– لماذا لم تهاجر مثل أصدقائك طلباً للحريّة؟.

– ربّما لأنّي أرتبط بحضارة أعمق من مفهوم البداوة المسيطر عليهم، فالبدوي حين يضيق به المكان يرحل». ولأنّي لم أستطع أن أوقفهم هؤلاء المجانين، اعتقلتهم هنا في الرّوح، وتركتهم ينسلّون عبر القصائد إلى أماكننا، شوارعنا، ركن المساء! لا تزال ضحكاتهم، وأحاديثهم، وأرواحهم، تحوم حول المكان.

– هو نوع من المدنية إذن! لكنّكم أبناء وطن واحد، وحضارة واحدة.

– أعتقد أنّ الأمر يقاس بمدى ارتباط المرء بالناس من حوله، هو حسّ بالمسؤولية قبل كلّ شيء.

– أنت تصعقني بأسلوب سردك، يكاد فضولي يقتلني، لمعرفة ماذا جرى حين رأيت نعمت، وأنت تحكي عن شارع المتنبي وأحمد! يا إلهي كم أنت ممل.

غرقت نافذته بالوجوه الضاحكة، وكتب:

- إذن أصلح أن أكون روائياً.
- رغماً عني، لأنّي أريد معرفة ما حدث.
- حسناً، تذكرين قول كونديرا في خيانة الوصايا: «الاغتراب شيء قاس لكلِّ شخص من دون استثناء، الناس جميعاً يفكرون بألم الحنين، لكنّ الأقسى هو ألم الشعور بالجفاء تجاه البلد الأم. أن يتحول ما هو حميمي إلى شيء غريب». تذكرت قوله هذا في ذلك الوقت ونحن نمضي للقائها!

فاجأنا الازدحام الخانق بسبب انفجار قريب... فانحرفنا في شارع فرعي يفضي إلى الكاظمية، كتمتُ استغرابي، وددتُ لو أسأله «إلى أين؟». لكنّي التزمتُ الصمت، ورحتُ أراقب الملامح الغريبة لدروب اعتدتُ أن أقطعها مشياً في صباي، وشبابي. لم يرق لي ما أخفته العبارة التي مرقت في ذهني خطفاً، هل يعني ذلك أنّي ودّعتُ الشباب إلى غير رجعة، وتركتُ تلك الأيام ورائي؟ مددتُ يدي بآلية إلى مرآة السيارة، حدّقتُ في الملامح الكئيبة لوجهي، هل يعقل أن يكون هذا الذي يواجهني بهذا القدر من التجهم، هو نفسه الشاعر الذي يفيض عذوبة، ويتدفق شباباً على عتبات النوافذ الافتراضية؟ حاملاً ربيع عمره كلمات يخطف بها قلوب فتيات في عمر الورد!. ارتدّت يدي بعفوية، وكأنّها لمست لغماً سينفجر، ناسفاً كلّ يقين اكتسبته خلال سنوات الحرب الأخيرة. ألهذا قال أحمد «إنّها عجوز»؟ خطف بصري منظر ازدحام آخر... انفجار آخر... يالهذا اليوم التّعس، متى سينتهي؟. فوجئت بانحراف السّيارة في شارعنا القديم... أطلال البستان! البيوت المهدّمة، الزجاج المتناثر في كلّ مكان. توقفت السّيارة، ونزل أحمد، وهو يأخذ نفساً عميقاً. وجدتُ نفسي بالقرب من بيتنا! لاح النّهر على البعد، في البقعة التي كانت أجسادنا الصغيرة تتوارى على استحياء،

لتخلـع الملابـس بسـرعة، وتنحدر صوب المـاء. رأيتها... خيّل إليّ أنّها قادمـة مـن هنـاك، تحمل سـلة صغيـرة مليئة بالمشـمش! وخطوات عم عباس تنهب الدّرب وراءها، وهو يلهث لاعناً الزمن الأغبر الذي حرمه مـن الذكـور.! كدتُ أصرخ «نعمت» لكنّ صرختي تلاشـت، ويد أحمد تهزني «هيه أين صرت؟». تقدّمنا معاً من بقايا البيت الذي يبدو مهجوراً، لكنّ حبل غسـيل صغير، رُبط على شـجرتين أمامه، دلّ على أنّ الحياة مازالت مسـتمرة في الدّاخل. لم أعد بحاجة لأسـأل أحمد، فقد فهمتُ كلّ شيء دفعة واحدة، باغتتني السكينة، وأردت صادقاً أن أساعد أحمد فـي مهمتـه. تقدّمته بخطوات، صعدتُ الدرجات القليلة، وقطعتُ الممر الطويل، قرعتُ الباب بأصابعي، وانتظرت. لم أسمع رداً من الدّاخل... أطلّت عجوز من البيت القريب، سألت باهتمام: «ماذا تريدان؟». التفتُّ مبتسماً «نريد أم أحمد يا خالتي». قالت بارتياب: «من أنتما، ماذا تريدان منهـا؟ لا أحـد يزورهـا، هـل أنتما من البلديـة؟ لن تبيع، ارحلا من هنا، لـن تبيـع». تطلّعتُ في وجه أحمد باسـتغراب.. دفعتُ الباب الموارب، ودخلت...

غرفـة واحـدة فقـط... هـو مـا بقي صالحاً للسـكن مـن بيتٍ كان مسرحاً واسعاً في طفولتنا البعيدة... رأيت نفسي وأنا أركض في أرجائه مـع أحمـد، نـدرس، نلعب، ووالـدة أحمد تنادينا للغـداء، أو تحضر لنا الشـطائر إلى هذه الغرفة، ونحن ندرس.. كم كانت المسـافة طويلة من هنـا للصالـة! كيـف تبدو الأشـياء بعد أن نكبر؟ صغيرة وبائسـة، وتفتقد للبهجـة! هـذه الغرفـة المضـاءة بنافذتيـن خلفهمـا نخلـة عاليـة، أرفـف المكتبة، المرآة ذات الإطار الخشـبي التي تزيّن وسـط الجدار، الكرسـي المحفـور مـن خشـب هنـدي، كان هديـة من خال أحمد المسـافر دائماً للتجـارة فـي بـلاد الهنـد. كم كان يفاخر به! وكم كنت أشـعر بالحسـرة

مـن تلـك الأشـياء الجميلة التـي ما تزال تحتفـظ بحميميتها على الرغم مـن مـرور الزمـن، ربّمـا أصبحت أجمل لأنّها تحمـل روح تلك الأيام. استدرتُ بحثاً عن الطاولة الصغيرة، حيث كنا نجلس للدراسة، الكرسي الحديدي المنجد بجلد صناعي، مداس الخشب! لم أجد تلك الأشياء. هل أخفتها أم أحمد في مكان ما؟ أم رمتها لتضع مكانها ذلك السـرير البائس في الزاوية، وأمامه طاولة مسـتديرة من خشـب متآكل؟ يبدو أنّها تسـتخدمها للطعـام، ولأعمـال تخصها. كنـتُ أنتظر ولو كلمة من أحمد الذي لم يبدُ عليه التأثر، وإن كان سـارحاً في البعيد. فجأة فُتح الباب، ودخلت عجوز، تتكئ على عصا، وتسـحب وراءها كيسـاً كبيراً. وضعته في الزاوية، ونظرت إلينا بعدم اكتراث. جلستْ على كرسي واطئ قرب البـاب، وقالـت بحـزم: «لماذا عدتما؟ ألم أقـل لكما إنّي لن أغادر بيتي إلاّ إلى القبر؟». نهضتْ بسرعة، وكأنها استعادت نشاطها... جلبت كومة ثياب من الداخل، ورمتها أمامنا، أذكرها جيداً، بدلة عسكرية عليها دماء بهـت لونهـا، حملهـا الجنـود إليهـا ليخبروها أنّ أحمد قد استشـهد في المعركـة! قالـت بحزم «اسـألوه، هل يوافـق؟». نظرتُ إلى أحمد وغصة تذبح حلقي. حقّاً لم تعرف العجوز ابنها، ولم تعرفني! ربّما لأنّها على يقيـن أنّـه ميـت... أم تراهـا...؟ قلـتُ بصوت خالطه العجـز عن إخفاء انفعالـي: «يـا خالـة، نحن لا نريد شـراء البيت، لا نريد إخراجك منه... انظـري إلينـا، ألـم تعرفينـي؟». لم تنظـر العجوز في وجهـي، بل زفرت بحرقة، وعادت للجلوس على سريرها هذه المرّة، مدّت ساقيها، وقالت بحسـرة: «اخرجا من هنا، أريد أن أنام». نظرتُ إلى أحمد متسـائلاً، هزّ رأسـه متواطئاً مع الفكرة التي عبرت ذهني خطفاً. قلت: «يا خالة، هذا أنا... الحسن، ألا تذكرينني؟ كنتُ مع أحمد في الحرب، هل تذكرين؟ أنا من ...» قاطعتني العجوز: «أحمد مات من زمان، لا أريد من يذكّرني

بـه». نظـرتُ إليـه ثانية... وقلت: «يـا خالة... أنا مثل ابنك، كنت أحبّك مثل أمّي، وأنت كنتِ تحبينني أكثر من أحمد... ما زال الطعم الساخن لشـطائرك في فمي، أردت أن أخبرك أنّ أحمد ...» قاطعتني: «عرفتك، نعـم كنـتَ، وكنـتُ.. هـذا مـاضٍ لا يعنينـي، يمكنك أن تغـادر، وتترك العجوز التي ـ كنتَ ـ تحبّها، ترتاح». سحبني أحمد من يدي، وخرجنا معـاً، وأغلقنـا البـاب خلفنا. قال أحمد ونحن نركب السّـيارة: «يبدو أن لا فائدة ترجى، عليّ أن أدخلها داراً للعجزة، تبدو صحتها على غير ما يرام، لا أريدها أن تعيش ما تبقى لها من أيام في هذا البيت المهجور، ولا أحـد يقـوم علـى خدمتهـا». اسـتغربتُ قوله، كيف يتحـدّث عن أمّه بهذه الطريقة؟ ولماذا مأوى العجزة؟ ليأخذها معه إلى بيته! كدت أقول له ذلك، حين تابع قائلاً: «ستقول في نفسك إنّي ولد جاحد، لكنّ دار العجزة إجراء مؤقت ريثما أشتري داراً لها، أو أنتهي من بناء الفيلا التي سأسكن فيها، حينها ستعيش معي، وإن كانت مصرة على أنّي ميت».

أوصلنـي إلـى البيـت، دخلـتُ غرفتـي مثقـلاً بالماضـي، مرتبـكاً بالحاضـر، لـم أسـتطع أن أفتح الكمبيوتر، كانت صورة العجوز تسـيطر على تفكيري. الشيء اللافت للنّظر أنّ أحمد لم يحاول التّحدث معها. لمـاذا؟ لـمَ لـمْ يخبرها أنّه ابنها؟ أكان يخشـى عليها من الصدمة؟. لكنّ العجوز تبدو متماسكة، وحازمة! ليست خرفة كما ادّعى أحمد...

اسـتلقيت علـى سـريري، كانـت الدوائـرُ الضوئية الملونـة تناوش عينـيّ، فتشـوش الرؤيـة أمامـي بعـد كلّ محاولة مني لاسـتعادة صحوي بالتّحديق أكثر في سـقف الغرفة. ماذا يحدث بالضبط؟ بدأت الشـكوك تنخر رأسي، العجوز لم تنظر في وجه أحمد مرّة واحدة... كانت توجه كلامها إليّ! تحاورني وكأنّ أحمد غير موجود. لم يسألني عن نعمت! هل يعقل أن يعود من الموت، ولا يسـأل عن الحياة؟ ألم تكن نعمت

يومـاً حياتـه التـي يعيش تفاصيلها بكلّ جوارحه؟ ألم يكن يبني لها بيتاً، يزيّنه بالأحلام الكبيرة، ويزرع شرفاته بقمح الروح؟ ما الذي حدث حتّى نسـي نعمـت هكـذا؟ أم تراه سـأل عنهـا، وعرف أخبارها، ولم يشـأ أن يخبرني، أو يناقشني بشأنها؟. فكّرتُ ملياً... ونهضتُ من فراشي ملسوعاً لتلك النتائج الغريبة التي خرجتُ بها. هل يعقل أن يكون ما أفكّر فيه هو الحقيقة؟. لم أشـأ الانتظار حتّى الصّباح... خرجتُ من البيت مسـرعاً، حتّى أنّني لم أردّ على أمّي وهي تسألني عن وجهتي، وتطالبني بالانتظار لتنـاول العشـاء. طلبـتُ سـيارة أجـرة، وأعطيتُ السـائق العنـوان. كانت الكهرباء مقطوعة في الحي كلّه. سرتُ لدقائق، قبل أن أقف أمام الباب الخشبي متردداً في طرقه... على ضوء شمعة هزيلة، كانت العجوز تتناول عشاءها. ابتسمتْ لي بودّ، ودعتني لمشاركتها... قلت بحيرة: «يا خالتي، لسـتُ جائعـاً، لكنّـي عدت لأتحدّث إليك». قالـت بودّ: «ولكنّك تحبُّ شطائري!». أذهلني التغير المفاجئ لتصرفاتها. مددت يدي إلى الطعام، ازدردت لقيمات، وقفتْ في حلقي... دمعتْ عيناي، وأنا أدفعها بشـربة ماء من كأس فخاري أذكره جيداً، كان المفضل عند أحمد... نظرتُ في عينيها، لم تتغير على الرغم من مرور تلك الأعوام المرّة على جسـدها النحيـل. قالـت لتهـوّن علـيّ ما جئتُ من أجله: «جئتَ تريد أن تسـألني عن شيء، قل ما عندك، لا تتردد». قلت: «نعم يا خالة، أردت أن أخبرك أنَّ أحمد ما زال على قيد الحياة، وأنّ الملابس التي أحضرناها لك في ذلـك الزمـن لـم تكن له». قالت وهي تتنهّـد: «أعرف يا بني، هل تعتقد أنّـي لا أعـرف رائحـة ابني؟ لقد شـممتها، وقال القلب في تلك اللحظة إنّها ليست له، وإنّ ولدي في مكان ما، وسأراه يوماً ينير هذا البيت، ولا حاجة لي وقتها لشـموع لا تضيء القلب». فتحتُ فمي ذهولاً، وقلت: «تعرفين! لكن كيف لم يعرفه قلبك يا خالة عندما رأيته؟». قالت بحسرة:

«كيف أراه وقد مات؟». قلت متوسلاً: «يا خالة، لم يمت، لقد كان معي منذ قليل حين زرتك، أرجوك ركّزي قليلاً معي». قالت: «معك! لا شكّ أنّك تخلط، من كان معك ليس ابني، ابني مات منذ بضعة أيام، حين وطئت قدماه تراب بغداد. ألم تسمع بخبر موته؟ حسناً، أنت معذور، ربّما لا تتابع جيداً ما يحدث من تغييرات لملامح المدينة التي تسكنها، ربّما لأنّها لم تسكنك يوماً، لهذا تفرح لوجود أشخاص يريدون هدم كلّ شيء، وبناء بلد جديد لا علاقة له بنا. نحن الذين بقينا هنا لنحافظ على ملامحنا على الرغم من أنف الحرب». شعرتُ بصفعة تدير وجهي صوب النافذة، التي دفعتها الريح، فأطفأت الشمعة، كانت المياه المتدفقة من الصنابير، تصدر ضجيجاً بعيداً ومنتظماً. جعلني صوت ارتطام الماء الرتيب، والموحي باليتم، أشعر بالوحشة والوحدة في الغرفة!. نهضت العجوز ببطء، أشعلت عود ثقاب، وأضاءت الشمعة، بعد أن أغلقت النافذة.

قالت بصوت مليء بالحنان: «لا تحزن يا بني، صدّقني أنّي أحترق رغبة في ضمّه إلى قلبي، ولكنّي لا أستطيع. ابني حضر إلى هنا منذ أشهر، لم يأت لزيارتي، أرسل رجالاً يطلبون مني شراء المنزل، أو مقايضته على طابق في بناء حديث. لم أوافق. أرسل لي ثانية، وزاد السعر... لم أوافق. ابني لا يستطيع أن يأخذ البيت مني بطريقة شرعية، فهو مسجل باسمي مع البستان الذي يليه، والده تنازل لي عن كلّ ما يملك قبل موته. وهو استشهد في الحرب، وعليه أن يثبت الآن أنّه ما زال حياً ليأخذ البيت، لهذا فضّل أن يشتريه مني. وحين يئس من موافقتي، أرسل من يخبرني أنّه حي، وجاء لزيارتي. لكنّي لم أصدّقه مع يقيني. ابني لا يمكنه أن يشتري ماضي أمّه وحياتها، ليهدمه أمام عينيها، ويبني مطعماً وفندقاً سياحياً، يتمتّع فيه الأمريكان بهواء دجلة...

ويسكنني في مكان بعيد في قلب العاصمة، حيث لا شمس، ولا هواء، ولا شجر... أين يريد أن يضعني هذا الولد العاق؟ في دار للعجزة؟ لا تستغرب، أعرف كلّ شيء، هو الآن يحاول أن يثبت أنّني امرأة خرفة، وأنّه أحقّ مني بإدارة ممتلكاتي. للأسف أعرف أنّه سيفعل، نعم، أعرف أنّه سيفعل، لن يعدم وسيلة لإثبات شخصيته. ما دام يملك جواز سفر إيراني، وآخر أمريكي، لا تسألني كيف. فهو الذي يعرف!)

***

ماذا لو أنّ خطيب عمتي عاد من الغياب كما فعل أحمد؟ كيف كانت ستعيش حياتها؟ ألحّ عليّ هذا الخاطر طويلاً.. لقد انتظرَتْهُ عمراً كاملاً.. جفّ عودها أثناءه، فغدت كالخيال، تمرُّ بالأشياء كطيف، وكأنّها تخترقها! من الصعب الحديث عن عمتي في سطور، فهي حالة نادرة، تجسد تحوّل الوفاء من فكرة إلى جسد يعيش تفاصيل استثنائية لحياة مختلفة عمّا يعيشه الآخرون.. أواخر عمرها كانت منذورة للبكاء، إن كُسِر إناء قديم تبكي، وإن ذبلت وردة تبكي، وإن تمزّق أحد أثوابها «البالية» تبكي.. ربّما كان ذلك بسبب إحساسها العميق بأنّه لم يعد هناك وقت كافٍ للانتظار! وهذا حتماً بسبب اكتئابها الدّائم، وعدم تواصلها مع الآخرين. فكّرتُ يوماً بأنّ ما حدث في الشيّاح، وفي اجتياح بيروت، ونهاية عمتي المأساوية يمكن أن تكون رواية خاصة، لكنّ يوسف كان يبرز لي دائماً متصدراً المشهد الضبابي للسرداب، ويبقى كلّ شيء عداه خارج الصورة! وتعود الفكرة لتلحّ عليّ الآن، لكنّي أبعدها عن ذهني، تجنباً لإرباكٍ قد يبعد الرواية الحالية عن مسارها..

مرّة أخرى يغيب من دون إشارة، ولا يترك لي رسالة تطمئنني، ولا كلمة في نافذة المحادثة! لكنّ البريد حمل لي هذا الأسبوع ثلاثة رسائل من غفران! يبدو أنّها كُتبت في أوقات متباعدة، لكنّها أرسلتها

دفعة واحدة، بعد أن جمعتها في ملف!

(«كم يلزمنا من الصمت والتأمل لاستيعابِ فكرة ارتحالهم عنا؟

هُـمُ المُلتفّـون علـى جذورِ اللهفـة.. والباقون بإصـرارٍ في تفاصيلِ يوميّاتنـا. يسـيطرون بشـغبٍ علـى لحظاتِ الشـرود والسـكينة، ويُعلنونَ العصيان على أيّ دخيلٍ يطأ مشاعرنا ..

موحشةٌ تلكَ الزوايا الخالية منهُم، الغارقة بأطيافهم ..

تشاركني فيروز بعض خيبتي..

بجرّب إني انسـى.. بتسـرق النسـيان، وبفتكر لقيتك يرجعلي اللي كان، ياريت ما كبرت

وحبيتك![42]

صباحك ياسمين بحري» ..

عزيزتي الرائعة هاجر...

لقد عاد...

عـاد، ليضعنـي فـي مواجهـة عنيفـة، مـع أحاسيسـي المضطربـة، المتناقضـة. كنـت أحمـل الكثير مـن اللهفة، عام من الغياب وضعني في اختبار صعب، استسلمت فيه لقدري كامرأة بسيطة، لا تطلب من دنياها سوى الستر والمحافظة على بيتها من الخراب! انتظرت حضوره كطفلة تنتظـر عيـد الأمنيـات المحققة في جعبة بابا نويل. لم يكن يحمل حقيبة الأمنيات، ولا أجراس الفرح، ولا قرع باب القلب بلطف يتناسب وشهور الغياب. أردت أن أسـتقبله كزوجة تفتقد دفء الشـريك، أو حبيبة تنتظر عودة عاشق من الحرب. أو حتّى كأمّ أمضّتها لوعة الفراق والبعد. أردت أن أسـأله «وش راك»؟ أن أتعلّق بذراعيه، وأتحسـس حضوره بأناملي.

(42) جوزف حرب / زياد الرحباني

وتوقعت أن يجلس في صدر الصالة كما العادة، ويمدّد ساقيه، ويتنهّد بعمق، ويحكي لي عن رحلته، يحكي عنها كما هي، تفاصيلها العادية اليومية المملة، لا فرق، المهم أن يحكي، وأن أسمع. كنت بشوق لسماع نبرة الصوت العميقة الدافئة ببحتها، البعيدة عن الرنين الغاضب، أشتاق تفاصيل الملامح الحميمة لوجهه في لحظات لقائنا الأولى. لكنّي فوجئت بوجه آخر لا أثر فيه للدفء والحميمية، شعرت أنّ دهراً يفصل بيننا، وأنّي أكاد لا أعرف هذا الشخص الواقف بالباب، وهو يطالبني بحمل حقيبته، وتحضير الحمّام! ماتت الكلمات على شفتي، وغاصت العبارة التي تخيّلت أنّي أقولها مئات المرات في حلقي، ثاقبة حنجرتني بحدّ سكينها، وأنا أفتح له الباب. مع هذا لم أفقد الأمل، قلت هو تعب السفر، سيرتاح، وسيراني... سأقول له «نورتَ البيت» ويقول لي «وقلبكِ؟». حاولت صياغة جملة تليق بهذا الحضور الطاغي لرغبات مؤجلة، جملة تنسيني اللقاء الباهت، والفتور في الكلمات التي قيلت من دون تفكير. أخيراً قلت: «اشتقت إليك». كنت أنتظر أن يلتفت إليّ باللهفة نفسها، ليقول: «وأنا». حينها كنت سأجدل من الكلمات أطواق ياسمين، أعطّر بها لحظاتنا، وأهدم سدودي كلّها، ليتدفق مائي المحبوس منذ الخليقة الأولى. لكنّه اكتفى بنحنحة مصحوبة بتمتمة لم أفهم منها شيئاً، وأضاف بصوت أقرب إلى الهمس «لا توقظيني، اتركيني حتّى أستيقظ لوحدي، أشعر بإرهاق شديد».

وفهمت في صباح اليوم التالي أنّه بحاجة لراحة طويلة، لأنّه سيسافر مرّة أخرى! هذه المرة إلى غزة!

صرت قلقة من احتمال عدم عودته. بل طغت عليّ فكرة أورثني إياها الصداع المستمر، لا شكّ أنّه سيتركني إلى أخرى! وكي لا تزهق الفكرة روحي، اتّخذت قراري بالسفر معه. لا تهمني الجهات، لم يعد

الوضع في غزة يقلقني، ما أدركه بحدسي أنّ علاقتي به أصبحت على كف عفريت، وعليّ أن أجد وسيلة للمحافظة عليه.

ما أخبار بيروت؟ أم أنّك في دمشق؟

يقلقني الوضع دائماً، أودّ أن أطمئن عليك، لا تنسي أن تكتبي لي.

كوني بخير دائماً.

غفران..

.....

«حينَ يصبحُ العناقُ مُلازماً للوسائد وخزائنِ الملابس وقوارير العطر، وتمتدّ أصابعهُ مُتحرّشةً بتفاصيلِ النبض وقياسِ المسافةِ بينَ الشهقة، والزفرة والعبثِ بجيوبِ الذكريات التي خلّفها عُبورٌ ما.. في أمسيةٍ ما.. لبصمةٍ ما.. يصبحُ لابدّ من إعادة ترتيبِ حروفه التي ضلّت أمكنَتها ليكون.. الانعتاق ..

ليت أم كلثوم تتوقف عن اغتيالي بشجوها..

بقى يقول لي وأنا أقول له، وخلّصنا الكلام كله! يقولي قلبي بيحبك، أقوله: قلبي أنا أكتر! يقولي خايف لتنساني، أقول له: مستحيل أقدر!

مساء البنفسج الذي يُبهج.. وهو زهرٌ حزين!»

عزيزتي ...

لم أكن أدرك أنّ مراكز القوى في الجسد كلّها مرتبطة بهذا الألم الفظيع الذي لا يبرحني، لم أعد أستطيع عمل شيء. الصداع يفتت أعصابي، يربك ساقيّ في المشي، يُخل توازني عند الوقوف. نصحني بالذهاب إلى طبيب الأسنان. الطبيب لم يجد في أضراسي بعد المعالجة ما يمكنه أن يسبب هذا الألم المدمر، فنصحني باللجوء إلى طبيب

أعصاب بعد انتهائه من علاج ضرسي!

مجرد ذكر اسم الطبيب أقلقني، بتّ أخاف من النتائج، الخوف! لا شكّ أنّه رفيق سيئ، يتدخل في حساباتي كلّها، ويقلبها رأساً على عقب. جعلني أفكّر بمزيد من الريبة في جدوى استمرار علاقتنا الزوجية، خاصّة بعد أن مرّت كلّ تلك السّنوات من غير أولاد! في البداية تشبثت بالأمل، وزيارة الأطباء، وطلب العلاج، وألححت عليه ليفعل مثلي! لكنّ الطبيب أكّد لي أنّي عاقر لا يمكنني إنجاب الأطفال. تعلّقت بقشة، وألمحت له أنّي راغبة في الذهاب إلى باريس لزيارة طبيب مشهور، كي أتأكد من أنّ أطباء العالم الثالث على حق. لكنّه ثار، وأرغى، وأزبد، وختم حديثه، بأنّه لا فائدة من هدر المال في شأنٍ لا قيمة له!. خاصّة وأنّه منذ البداية، صرّح بعدم رغبته في إنجاب أطفال!

لم يفارقني حسّ المؤامرة، هناك شيءٌ يحاك ضدّ أحاسيسي ومشاعري في الخفاء. لا أضفي أهمية على نفسي بذلك الإحساس، لكنّ الطبيب طلب تحاليل مُكلفة، وليس معي من المال ما يكفي لعمل تلك التّحاليل! أخجل من قول ذلك لك، لكنّه لا يهتم! وأنا لم أكن واعية منذ البداية بما يكفي لأفهم أنّه من المؤسف ألاّ أحافظ على دخل مادي ثابت، يعينني على الحياة بدل زوج لا يهتم إلاّ بما يخصّه!

هل أبوح لك بالسر الأهم؟ لقد بدأت أكرهه، ولا أعلم ما الذي يمنعني من طلب الطلاق! أو ربّما أنتظر فرصة أكثر ملائمة للعيش وحيدة.

غفران..

....

«وقالَت عَينايَ:

ماهدَّ جبَروتَ احتمالي، هيَ نظرةٌ.. بل طَلقةٌ.. بل بحرُ أسرارٍ...
أغرقَ مركبي، فغدّوتُ سابحةً بينَ نحرِهِ وأهدابِه..
هي العيون حينَ تجلُدنا بصمتها، فنبتلِعُ ماتبقى من حروف قبلَ أن نختنَقَ بها ..
لعـلّ فيـروز أدركـت هـذه الليلـة، أنّ صوتهـا لا يزيّـن الصباحات المشـرقة فقط، بل يتغلغل في ليل العشـاق برفق إلهي، يصحب نبضهم، ويحيي فيه ألق الوجد!
قلّوا عيونو مش فجأة بينتسوا[43]
مساؤك جوري دمشقي» ..

لم أعد أستطيع أن أخفي عنك ما حصل لي، أكثر من ذلك. يبدو أنّي تورطت في عشقٍ من نوع مختلف.

إنّـه شـخص متـرعٌ بالجمـال ذاك الذي حقن حروفه فـي أوردتي، واشـتعلت أنامله بالعطر، فنثرت أريج الحرف، لتخلق للكون أفقاً آخر. إنّه يدرك معنى أن تمسّ أصابعه الفراغ، لترسم طيفاً يكونه! فيصنعه على شاكلته.

قـال لـي: «أصمـت أمـام حرفـك لألملم ما تناثر مـن ضوئك هنا، فأصل بنوره إليكِ.. بهية الحضور قبل الحروف سيدتي.. سعيدٌ أن يصل بيننـا حـرف، وإن كنّـا نتقاذفـه ككرة المضرب هكذا.. لكنّه يظلُّ سـاحر المعنى، بهياً، نقياً... لروحك ياسمينة بيضاء كما دائماً».

سأنسخ لك بعض محادثاتنا على الماسنجر، لتدركي ما حلّ بي.

(مساؤكَ قرنفل.

– ومساؤكِ ياسمين مسرفٌ في بياضه.

(43) سلملي عليه/ زياد الرحباني

– اليوم كنت متعبة حدّ الألم، أنزف بشدّة، قضيت النهار أعاني من صداع رهيب. غفوت مراراً، رأيتكَ في غفوتي، لا أدري إن حدث ذلك في اللحظات الفاصلة ما بين اليقظة والسّقوط في النّوم! صحوت من غيبوبة، ولعلّه حلم ... كنت ملتذة ببقايا وميض ينبض في عروقي... وآثار متعتك موشومة على جسدي، لم أجدك حولي، لكن كلّ ما في الغرفة يدلُّ عليك!

أحسست أنّ ذراعيك طوقُ ياسمينٍ أحاط عنقي من الخلف. لم أكن أراك، لهذا أيقنتُ أنّ عليّ أن أفتح عينيّ بسرعة، لأخرج من هلوساتي.

– الإحساس يؤدي إلى الرؤية، ولا تؤدي الرؤية إلى الإحساس، يضيئني بمقدار ما يغادرني إليك، فهو امتداد لا ينتهي، وبعدٌ لا يحد!. هل تتحسسين الضوء بصمتك؟

– نعم، أحسُّ به في أعماقي.

– طوبى لمن كان النور في أعماقهم، طوبى للمضيئين بنورهم! لا يضيئون ما لم تمسّ أرواحهم نار المحبة المقدسة، تلك جذوة نار بروميثوس، فإنّها ناره المقدسة في أرواحنا!

– تحمل الشعلة في روحك لتضيء لي طريقي إليك! فكيف وأنتَ جذوتي الكبرى؟ تضيء لي بي؟

– أحملكِ بي وأسيرُ مني إليك.

– هل وصلت؟

– لامستُ ضوءكِ في سمائي.

– شعرت بتلك اللمسة النورانية، شعاعٌ اخترقني، تمدّد في جسدي، وأضاءت حقولي!.

– فلمي حصاد يديك من نثار ضيائك، فإنّ روحاً أثمرت بين حقولك!

– أخشى على الثمار من لسع ناري!

– النّار لا تلسع الثّمار، مادامت معلّقة في غصون أشجارها! هل أنتِ معي؟

– كأنكَ لا تحسّ بي؟

– أراكِ لأنّي أحسستك.

– لكنّك تسأل كلّ دقيقة «أنت معي؟» فأشعر أنّي بعيدة!

– هذا سؤال الحرف لا سؤال المعنى.

– معك، موجودة هنا، وإن صمتّ!

– صرت ألمسُ ضجيج صمتكِ كنبرة الصّوت.

– يقول ابن عربي: «الصمت الذي لا يحوي الكلام، لا يعول عليه»!

– لهذا أقرأ دفاتر صمتك، وأنتشي بوقع صداها، وكأنّها تراتيل عشق أبدي.

– مساؤك ورد وسوسن.

– السوسن على صفحة الماء، والياسمين في قلبي، وأنا زينة، فكيف أنت؟

– مليء بالقمر.

– يا إلهي، كنتُ أتساءل لماذا لا أستطيع التّحديق في الماء؟

– لأنّ صورتكِ فيه.

– متأكد؟

– كم قلقة هي المرأة؟

– لماذا؟

– لأنها تناور، وتلتف في دروب كثيرة لاكتشاف صدق الرجل ومحبته لها، بينما الرجل لا يفعل ذلك، ليس لأنّه لا يساوره القلق، بل لأنّ له نظرة واثقة.

– هو غرور الرجل، لا ثقته. يخطف الورد، ويسرق عطره.

– فما أجمل جرائمي إن كانت بهذه الرّوعة التي يفوح منها عطر الرب! ماذا تفعلين في وحدتك؟

– أبحث عن فكرة أكتبها في رواية.

– يقول نيتشه: إنّ الفكرة تأتي عندما تريد هي، لا عندما أريد أنا، لذلك فهي حقيقة مزورة.

– لا يهمني إن كانت حقيقة مزورة، فأنا التي ستخلق منها عالماً حقيقياً، بمقدار صدقي في التّعامل معها، وإقناع القارئ بواقعيتها.

– قرأت رسالتك، جميلة كروحك.

– روحي كالطيف يخترق الحجب.

– لماذا تقفين على الباب إذن؟ تفضلي بالدّخول.

– لا أريد أن أتفضل، خليني واقفة على الباب أحسن.

– مثلك لا يقف على الباب، لأنّ محله الرّوح.

– ومزاجي بدأ يتعكّر..

– بكِ تعتدلُ الأشياء.

– من أين تأتي بهذه الكلمات؟

– هل هي كبيرة عليكِ أم قليلة فيكِ؟ الكلمات هي بعضنا الجميل المسفوح بمحبة، لا أروع من أن تستريح الرّوح على نبضها. حين يتسع أفق الرّوح، يجتهد الذهن لإدراك سعة أفقها.)

تذكريـن حيـن سـألتك عنه؟ بعد تعليقه علـى نصك «خداع بصر» إنّـه هـو، الحسـن بـن هانـئ. لم أجـرؤ وقتها على الاعتـراف لك، لأنّي لم أكن قد اعترفت أمام نفسـي! حاولت مراراً أن أقنع نفسـي أنّه مجرد إعجاب بقصائد، بكلمات، تروي عطش الروح إلى الجمال، لكن، يبدو أنّ الأمر لم يكن كذلك.

تعلمين؟ لقد قرّرت الحضور إلى دمشق، فاستعدي لاستقبالي.

أتركك في رعاية الله...

لا تنسي الدعاء لي...

أشعر بنسمة كلماتك الرطبة، تبلّل قلبي، حين يجتاحه الحزن...

كوني بقربي دائماً.

غفران..

....

ماذا حدث لي؟ لم أفهم التقلبات المرّة التي طرأت على مشاعري خلال لحظات! أكرهه؟ أحبّه؟ التبس عليّ كلّ شيء. هل يحبُّ غفران؟ مـاذا بينهمـا؟ الأهـم من كلِّ ذلك أنّه موجـود ونافذته غارقة في العتمة، إذن أفكاري السـوداء كلّها لا أسـاس لها من الصحة! هل كبريائي هي التي منعتني أن أفكّر في هذا الاتجاه؟ وأن أظنّ أنّ مكروهاً قد أصابه؟ غفـران لـم تكـن واضحـة، قالت هي أحبته، ولم تقل إنّه يحبّها! لكن ما المانع في ظهوره متصلاً في كلّ الحالات؟

***

صحـوت مـن النـوم مذعورة، هذه المرّة رأيتهما معاً. هو ونعمت! على الرغم من أنّها لم تخطر على بالي البارحة! فتحت الملف، وكتبت:

(لفحته ريح باردة، وهو يتمشـى بجانب النّهر، لأوّل مرّة لم يفرد

جناحيه محاولاً التّحليق فوق دجلة، عابراً إلى الرصافة! بقي لدقائق، يعبّ الهواء بقوة، محاولاً إبقاءه في صدره أطول مدّة ممكنة. زفر الهواء بالقوة نفسها... وهو يراها تعبر الضفة الأخرى، كانت تمشي فوق الماء بكلّ ثقة.. لم تحاول أن تغطس كما كانت تفعل دائماً، وتتركه يتابع صفحة الماء، ويخمّن من أين ستنبثق كزهرة لوتس مرّة أخرى! مدّ يديه ليساعدها على العبور إلى اليابسة، وقفت قبالته والريح تعبث بشعرها الأشعث المتمرد على الضفيرة المنسدلة خلف ظهرها بعشوائية، وكأنّ المشط لم يتخلّله منذ أشهر! استغرب ذلك الشحوب الذي حوّل لونها إلى بنفسجي غامق، زادته العتمة غموضاً. همس: «من أين أتيتِ؟ جاءه صوتها عميقاً بعيداً: «من هناك» أشارت إلى الضفة الأخرى... قال: «أين كنتِ مختفية طيلة تلك الأيام؟». مرّة أخرى اكتفت بهز ذراعها من دون أن تفتح فمها، أو تحرّك شفتيها، سمعها تقول: «حيث لا يعود أحد». سألها بقلق: «في السجن؟». قالت: «وأيُّ سجن يقاس بالمكان الذي كنت فيه؟ السجن عالم خارج العالم، أنت مقيد ومحدود الحركة، لكنّ روحك أوسع من حدود الغرفة». قال بحسرة: «أتعرفين؟ لقد عاد أحمد». سألت بدمعة عالقة في الهدب: «عاد يحمل هزيمته؟» قال: «لقد هُزمنا منذ الحرب الأولى، على الرغم من قوتنا وعددنا وعتادنا» قالت: «الهزيمة هزيمة النّفس، فمهما كان العدد والعدّة كبيرين، لن تستطيعوا الوقوف في وجه عدد قليل». قال: «بل لم تكن لدينا إرادة لعمل شيء، لهذا تبدلت الأمور من تلقاء نفسها. لم تقولي لي، أين كنتِ بالضبط؟» أتاهُ صوتها من عمق الماء: «من العدم». قال بثقةِ مَن يحاول التّشبث بأملٍ يشبه اليقين: «إن العدم لا يقوى على الوجود، وأنت موجودة». سمع غرغرة ضحكتها المكتومة تحت الماء، ممزوجة بعبارة متقطعة: «أأنت متأكد؟»، قال بغصة: «نعم»، هزت رأسها باستسلام، لم يكن

على يقين أنّها موافقة على قوله، فهو يعرفها تماماً، لا يمكن أن يُخطئ تلك النظرة التي ترسلها عيناها، محمّلة بعتب خفي، ينبئ عن كلمات غاصت في حلقها، وآثرت عدم الإفصاح عنها.. قال ليبتعد عن الجوّ المشحون بالتوتر، والمكهرب بذبذبات عاطفية قادمة: «كلّ هزائمنا كانت بسبب القمع والتسلط، لو أنّنا لم نصمت منذ البداية، لتغيرت الأمور، القمع يبدأ صغيراً، ثمّ يكبر، ويجد هناك من يبرره». قالت لتجاريه: «يجب أن لا تخضع الأمور في حريّة الرأي لأهواء أشخاص على أيّة حال، لأنّ حالة القمع ستتكرّر». قال بحماس: «أتعتقدين؟ إنّنا نعيش حريتنا كما ترين، الأمريكان حققوا لنا الديمقراطية، والحريّة». اتّسعت ابتسامتها البنفسجية، وازداد شحوب وجهها، وهي تحرّك شفتيها لأوّل مرّة: «الأمريكان!! إنّهم يدمرون كلّ شيء، هي غريزة الإنسان في تدمير كلّ مالا يستطيع إخضاعه! هم لا يستطيعون منحنا حريتنا، ولا يريدون ذلك، بل هم يخافوننا، خوف القوة من الضعف، كما خوف الرجال من النساء». ضحك بصوت خاله حرّك مياه النّهر الفضية، وتلوّى مع الرّيح، فأدار ظهره لها: «الرجال من النساء! من أين تأتين بهذه الطرائف؟». لم ترد... ساد الصمت للحظات، وحين التفت بحثاً عنها، لم يجد لها أثراً! لكنّه لمح سمكةً تشقُّ صفحة الماء، تنظر نحوه بدمعة تلمع في مقلتيها، وتغطس ثانية في الماء، تاركة خلفها دوائر بنفسجية شاحبة. حدّق طويلاً في صفحة النّهر، حتّى رأى نفسه يهوي إلى عمق الماء، تسحبه التيارات العنيفة، ولا يد تمتدّ من اللجّة، لتسحبه إلى اليابسة.. هيّئ له أنّ نيتشه همس له: «إذا أنعمت النظر في الهاوية تجد أنّ الهاوية تنظر إليك!». تابع تحديقه بقوة، تمنّى وهو يغمض عينيه للحظات، أن تكون تلك اللجّة فراشاً، يسترخي فوقه، وينام إلى الأبد! راوده خاطر غريب، كان شبه يقين أنّها تقمصته، وخلخلت توازنه، ومنحته رغباتها،

هل يعقل لنورس أن يفكّر بجعل الماء لحداً! وهو يطمح دائماً أن يعرج إلى نهايته أثناء تحليقه في الفضاء الأزرق بأقصى سرعته!؟

قرّرت قدماه فجأة أن تمنحه الصحو بالابتعاد عن الشاطئ بسرعة تحرّك الدّماء في جسده، وتعيد إلى عينيه صور الحياة من حوله، كما هي، لا كما يتخيّلها.. قبل أن ينفض رائحة النهر من رأسه، انساب إلى سمعه صوت «ياس خضر» من صوب الكرخ، ووجد نفسه يهمس معه «وصفولي عنك بالنباعي تفيض واتعنيت ليلة ويا القمر، وصفولي عنك كلّ مسامة تفيض يا قدّاح من عندك عطر، جفنك جنح فراشة غض، وحجارة جفني وما غمض». مع الصوت القادم من عمق ذاكرته، رأى النار تندلع من جهة الغرب، وكأنّ الشمس نكصت عن عهدها، وعادت لتضيء ثانية، إنّها القيامة! شدّ قامته، وحدّق في الأفق المغبر، لم يسمع صوت انفجار! إذن من أين اندلعت تلك الحرائق؟ مازال صوت ياس خضر يخترق سمعه قادماً من ناحية الرصافة، يداعب أوتار القلب «يل تمشي بيا ويا النبض روحي على روحك تنسحن، حن وأنا حن» والروح مني عوسجة بر، ما وصل ليها الندى، ولا جاسها بقطرة المطر»

جرّب أن يصرخ، لم يسمع صوته، تلمّس حنجرته بأصابعه، شعر بفجوة هائلة، أدخل أصابعه في الجسم الهلامي، اشتعلت السماء بآلاف الشهب، لم يستطع أن يميّز إن كانت انفجارات متتالية، أم صواعق، أم ألعاب نارية! لم يكن للصوت في تلك اللحظات وجود، خرست الأشياء من حوله، حتّى صوت ارتطام جسده بحافة الرصيف، لم يصل أذنيه، فقط صوت ياس خضر يصر على الحضور بكلّ شجوه، وأنينه، وحرقته «وصفولي عنك وردة القدّاح ريش جناح زاهي بالسحر... وصفولي عنك شال منك غيظ بستان الورد، والنرجس الرايق سكر» وجد جسده فجأة يزحف على الرصيف، والدّماء تنزف من راحتيه.

أهو تكرار سخيف لمشهد عاشه في الحرب الأولى؟ يكاد يرى أحمد يبتعد في عمق النهر، والعتمة تغطي كلّ شيء. انفجاراتٌ بعيدة، أصوات أحذيتهم تقرع الرصيف بقوة الهزيمة والقلق، لغطهم يعلو بلغتهم الغريبة، يلوثون الفضاء بلكنتهم الممجوجة، ربّما فقط اختلاف المشهد بتنوع ما يرطنون به! لم يكن زحفه مجدياً، فعلى الرغم من القوة الهائلة التي بذلها ليزحزح جسده من مكانه، كانت المشاهد أمام عينيه تحافظ على ثباتها! ونعمت تمزق وسط الصمت ثيابها، وتشير إلى آثار أحذيتهم على جسدها.)

***

عند هذا الحدّ من الرواية، توقفت وأنا أنظر إلى نافذته الافتراضية الغارقة في العتمة، وسألتُ نفسي، لمَ أنتظر منه أن يكمل رواية ما جرى؟ ألا يكفي ما قاله لي في المحادثات لأصوغ النهاية بنفسي؟ أعدت ترتيب محادثاتنا، وقراءتها... ووجدت المادة الكافية لأتابع ما بدأناه من دون حاجة لانتظاره. أذكر قولاً لبوذا، ربّما قرأته يوماً في بعض أسفار الفيدا، أو ضمن كتاب يتحدّث عن البوذية: «في الحرب الرابح الوحيد هو من لم يدخل الحرب». هذا القول أعادني إلى شخصية أحمد، فكونت من معرفتي المسبقة فكرة عمّا جرى!

(أكان من الضروري أن يتواجد هناك؟ ثمّ ماذا كان يفعل في تلك الساعة في الكاظمية؟ اللعنة! يبدو أنّ المشاكل ستلاحقني من ورائه.

صرخ أحمد بتلك الكلمات، جلس على كرسيه البرّام مرهقاً، والضيق يكاد يخنقه، فتح المستخدم النافذة، وأحضر له كأساً من عصير الليمون، ووقف صامتاً قرب الباب بانتظار الأوامر.. بعد دقائق، أرسله في طلب شريكه جعفر، جاء الأخير على وجه السرعة ليمثل بين يديه بخنوع تام، سأله بنفاد صبر: «كيف حال الحسن؟». ردّ بصوت خفيض:

«بخير، لا تشغل بالك، يومان فقط، ويعود إلى بيته معافى، لا تقلق، لم يكن قريباً من الانفجار بالقدر الكافي لقتله!» اعتدل في جلسته، وسأله باهتمام: «والعملية؟» ردّ بالصوت الخفيض نفسه: «تمام». صرفه، وراح يذرع الغرفة بخطواته القلقة. ومضت في ذهنه فكرة أزعجته «أكان عند أمّي؟ هل قالت له الحقيقة؟ لم يكن ينقصني سوى التورط مع الحسن، ما الذي جعلني ألجأ إليه؟ إنّها حماقة لا بدّ من تفادي نتائجها المزعجة، لكن كيف؟ الحسن أصبح داخل اللعبة، إمّا أن أشتريه، أو أقنعه بنبل الغرض، وذلك ليس صعباً مادام هو مقتنع مسبقاً بأهمية وجود الجيش الأمريكي في العراق، وبأنّه لم يحصل على حريته إلاّ بوجوده». أراحه ذلك التحليل، ورفع عن كاهله عبئاً ثقيلاً، جعله يقف أمام المرآة، يراقب هيئته، ويبتسم مشجعاً نفسه على المضي فيما عزم عليه.. قبل أن يستدير، لمح طيفاً غريباً يقتحم المرآة مُكشراً عن ابتسامة ساخرة. كاد الرعب يشله، كيف؟ ومن أين أتت؟ لقد أيقن أنّها ماتت، كثرٌ الشهود الذين رأوا جثتها مندفعة مع التيار في منطقة بعيدة خارج بغداد! قالوا له، إنّ جثتها كانت بنفسجية متفسخة، دفنوها قرب النهر هناك، ولم يضعوا شاهدة على قبرها. البعض قال له «إنّ صياداً أقسم أنّه رآها في ليلة قمراء تنسلُّ من قبرها، وتعود إلى النّهر. وأنّها كلّمته يومها كلاماً غريباً، فأقسم أن لا يعبر النّهر إلاّ في النّهار. ضحكت بصوت ارتجّت له الغرفة، وقالت: «وهل صدّقت تلك الأكاذيب يا أحمد؟ أيعقل أن يخرج ميت من قبره؟». لمس جبينه بعصبية، ومسح قطرات العرق، كان يحاول الوصول إلى الكرسي، ارتمى هناك، وأغمض عينيه على صورتها. قالت بصوت عاتب رقيق: «لماذا لم ترد على رسائلي؟ أنت لست أهلاً للأمانة.. أتعرف؟ لقد سألت الحسن حين التقينا، وقال لي، إنّك لم توصل سلامي إليه ولا مرّة، مع أنّي كنت أكتب لك في كلّ

رسالة تحيّة تخصه. كنت تغار منه يا أحمد أليس كذلك؟ قل لي ألهذا حاولت قتله؟». صرخ بقوة «لا، لم أحاول، هو كان هناك بالصدفة، ما الذي جعله يذهب إلى الكاظمية؟» ارتفع صوتها، وتردّد صداه في أرجاء الغرفة: «بل أنتَ مَنْ فعل ذلك. لماذا عدت؟ أتعيد البناء، أم تزيد الخراب خراباً؟ سأقول لكَ: عدت لتقتل أحبتك، لم تجدني لتبدأ بي، فبدأت بأمِّك، وصاحبك، وبلدك، لا أظنُّك ستوفّر أحداً، ستطيح بالجميع، لتكبر أنت، ماذا تريد أكثر مما وصلت إليه؟».

ركض خارج الغرفة، ركب سيارته، وقادها بسرعة جنونية، كان يريد الهرب من حصارها، حصار الآخر الراقد في الذاكرة، ينبهه دائماً إلى وجوده في هذا الجسد في يوم مضى، وبأنّ من يحتله الآن إنسان آخر.. وصل الكاظمية، تجاوز البستان، ووقف أمام بيته، لم تكن والدته في البيت في تلك الساعة، يعرف ذلك. دار حول الحديقة، وجلس على حجر في الغرفة الخلفية المهدّمة، استغرقه التفكير، ولم ينتبه أنّ الشمس انحدرت صوب الغرب، والسّماء تلطّخت بالدّماء والدّخان الأسود.. صحا على لوحة غريبة رسمها المساء، كان الجوّ يحثه على الدخول قسراً في حالة اكتئاب، تركت آثارها المباشرة على حلقه، فغص بريقه، وشرق، وشعر بالاختناق. عبر الحديقة إلى ضفة النّهر، نزل إلى الماء بكامل ملابسه، بلّل شفتيه، ومسح وجهه، وعاد أدراجه. ثانية... وجد نفسه يجلس على الحجر في الغرفة المهدّمة، يتلصص على الشارع ليراها، وهي قادمة من بعيد.. لم يشأ أن يحدّثها، أو يدخل البيت، كانت أفكاره كلّها منحصرة في مشاريعه الكبيرة، وفي المكاسب المادية الضخمة التي حقَّقها خلال الأشهر القليلة التي قضاها في بغداد. لكنّ غصّة رحيل نعمت كانت تجرح حلقه، مع الأخبار المزعجة التي سمعها، زواجها، و... هل يعقل أنّها التقت الحسن أم هي هواجسه؟

لماذا لم يسأله عنها؟ لماذا اخترع قصة مساعدته له في التعرف على أمّه، وهو يعرف مسبقاً ماذا سيفعل في تلك القضية؟ أهو حنين لتلك اللحظة التي افترقا فيها؟ لقد كانا آخر جنديين في الفوج بقيا على قيد الحياة.. مـا يـزال يذكـر بوضوح تلك اللحظـات، وكأنّها تحدث الآن.. نعم، كلّ شيء يكاد ينفر من ذاكرته، ويتحرّك أمام عينيه بمنتهى الوضوح، الحقل المقفر، الصيف القائظ، الجوع، الشمس الأفقية المنسكبة فوق الرؤوس في الخندق، شهوة الماء! ترقّب قدوم الليل، إغواء الحقل المزروع على الطرف الآخر، كسـلٌ واسـترخاء، دوخة وسـماء تقترب، معدته الفارغة تقرصه تقلصاتها، وتتشنّج بقسوة. ومن بعيد يلوح ذلك البيت بأشجاره، ومزروعاته، هي دقائق فقط، يسبح فيها إلى الطرف الآخر ليجلب بعض الخضار، وربّما يحظى بشربة ماء! أيقن ساعتها أنّ مقولة «الجوع كافر» لا تعبّر تعبيراً دقيقاً عمّا يشـعر به.. إحسـاس غامض أنبأه أنّه لن يعود، شـيء مـا جعـل صـدره ينقبـض، حمل حقيبتـه الصغيرة، فتحهـا، وتردّد طويلاً قبل أن يدفع بها إلى الحسن قائلا: «وصيتك، قد لا أعود». غصّ الحسن بالكلمات «بل ستعود، لن آخذ شيئاً» أصرّ «بل ستأخذها، أعطها لنعمت، بعض هداياها ورسائلها» عانقه بقوة، وهمس: «سامحني، كانت تسـلّم عليـك، لا مـا نـع لـديّ أن تقرأ رسـائلها إن لم تصـل إليها، وأن تحتفـظ بهـا، اذكرنـي بالخير». لا يدري كيف تفوه بتلك الكلمات، ربّما إحساسه العميق بأنّه ظلم الحسن ونعمت بشكّه، وغيرته! قبل أن يغطس فـي النّهـر، نـاداه الحسـن، لحق به، لوّح بالحقيبـة، ورماها قرب الجثث المرميـة علـى الضفـة، وغطـس وراءه. مـا يذكـره وقتهـا، أنّ الرصـاص انهال عليهما من مكان ما، وأنّه لم يعد يفكّر بشيء سوى الوصول إلى الضفة، نسـي الحسـن، الحرب، جوعه، وبقيت إرادة الحياة تدفع جسده بقـوة داخـل المـاء، حتّى وجد نفسـه على الضفة الثانية. كانت الشـمس

قـد غاصـت فـي رحم الأفق قبـل عبورهما بقليل، وسـادت عتمة فضية رقيقة. حاول استكشاف المنطقة حوله، لم يسمع صوتاً يدل على وجود أحد في المنطقة كلّها! في البداية زحف ببطء صوب البيت، ثمّ تحامل على نفسه، وسار بخطوات حذرة، لفّ حول الحديقة، واكتشف وجود مخـزن. فتـح البـاب بخفة، فهاجمته رائحة عطنة، اختلطت برائحة روث حيوانات، وسمع خربشات في الزوايا. أيقن أنّ المكان ليس مخزناً بل إسـطبلاً، لكنّـه لـم يلمح خيولاً في المـكان، كانت هناك بضعة أقفاص، تحـوي دجاجـات وأرانـب! لـم يكن في تلك اللحظـة يحتاج لأكثر من مـكان يمـدّد فيه جسـده المرهـق، ويهدّأ من روعه قليـلاً، ليفكّر بطريقة للعودة. وجد بعض التبن في أرض القبو، فأراح جسـده، ونسـي مسـألة الطعام نهائياً. ربّما خطفه النوم في غفلة منه، وهو يفكّر بطريقة يستطيع فيهـا أن يحصـل علـى طعـام، ويعود، لم يشـعر إلاّ وحديدٌ بارد يلامس جبهته! قبل أن يفتح عينيه، وعى جيداً أنّها ماسورة بندقية!.)

***

«كثيراً ما همسـتُ لروحي «لن أدعه يدرك ما بي من عشـق، لكنّي لم أدرك أنّ للورد لغة تشـي بسـرّ القلب. قالت ابتسـامته: أنا وورودك عاشـقان. في تلك اللحظة كانت وشـاية أخرى تحفر في روحي، فتعيد ذكرى الحكاية التي رواها لي بوجوه مختلفة عن عشـق يسـكنه، أخمّن الآن عزيزتـي، وبـكلّ وضـوح، أنّه يخفي الكثير عني، وأنّ للعشـق لديه مفهومٌ لا يرقى للنقاء الذي سلّمتُ به قلبي ليديه!»

بعد أن كتبت تلك السطور، حذفت الملف، وقررت أن لا أخبرها بشـيء.. فلأترك الأمور تسـير كما تشـاء الظروف.. فتحت البريد لأكتب لها رسالة عادية أطمئن عن أخبارها، فوجدت رسالتها..

كنـت أنتظرهـا بفـارغ الصبـر، كي تتضـح الرؤيا أمامي، وأسـتطيع

اتّخاذ القرار المناسب. هاهي كعادتها، تسرف في البوح الذي يؤرقني، ويشتتني أكثر!

(«وتدفعنا أمنياتنا لتسلّقِ الوهم، فندوسُ على أرجُلنا وصدورنا، ونمرّغ وجوهنا بتراب نعالنا، ونعفّر شعورَنا، لنصل إلى نقطةٍ، نضعُ فيها طينَ أقدامنا فوقَ رؤوسنا من دونَ أن نشعر ..

لطالما أعمتنا الغايات عن حضيض الوسائل.. ودائماً نجدُ مُبرراتِ لخيباتنا وجرائمنا بحق إنسانيّتنا وأرواحنا، وقطعاً، لامجال للتراجُع عن الانحدار، فقانون الجاذبية لم يُسجّل حتّى الآن طفرةً واحدة تُثبتُ عكسه، وزلّةٌ القدم حُكماً نهايتها الهاوية!

فيروز تنقل صباحي عبر زمن مضى إلى أزقة مراهقتي الأولى..
بتطل بتوقع مني الكاس، وحدي اللي بشوفك من ها الناس
من بين الكل بتسرقني
وبتلج الماضي بتحرقني...
لوينك بعدك لاحقني ! ومن عز النوم[44]...
صباحك حبق ومنثور..»
صباحٌ مورقٌ بالنّدى...

أمّا كيف يورق النّدى؟ فهذا مالا أعرفه! ولا أصدّق أن يحصل في الزمن الأمريكي الأسود.

أتعلمين؟

يقال إنّ حفاري القبور ينتمون إلى جهاز المخابرات الدّولي، وأنّهم يزرعون على كلّ شاهدة حجرية جهاز تنصت، لهذا تخليت عن فكرة الحديث أمام قبر والدي!

(44) من عز النوم/ أخوين رحباني / ألحان فيلمون وهبي

في زيارتي الأخيرة، رششته بالماء، وانسحبت بصمت، مودّعة تلك اللحظات الحميمة، التي تتدفق فيها الشكوى، لتنسج الحكايات التي تتناسل بلا نهاية، فيفاجئني المغيب، وأنا أبدأ حكاية جديدة. لم أكن أعي تشابه الحكايات، ولا تكرارها الممل، كلّ ما أعرفه أنّي أفرغ شحنة المرارة والغضب، وأنّه يسمعني، ويمدّ يداً حانية ليمسح شعري، ويهز رأسه موافقاً على أقوالي! كم نحن بحاجة الأموات! هم الوحيدون القادرون على فهم ما نقول، والإنصات لخفقات قلوبنا، والموافقة على رغباتنا، ومشاركتنا الشعور بالاضطهاد والظلم.

تعلمين؟ خشيتي من السرطان، جعلتني أشعر بكلّ أعراضه تنهش جسدي! بالمناسبة حساسيتي زادت منذ قرأت مقالك «ثلاثة وجوه لسرطان واحد» في موقع الساخر، مصادفة أثناء بحثي في جوجل. هل حقّاً أثبتت الدكتورة «كيث» فعالية اختراعها؟

معك حق حبيبة قلبي، أيلول يأتي ويرحل من دون أمطار، خشية إدراجه في قائمة الإرهاب!. ولا عزاء لفيروز إذ أنّي سأقلع عن ترديد أغنيتها «ورقو الأصفر شهر أيلول» فكلّ ما يمت إليه بصلة، يدعو للريبة! ربّما أغيب، وأعرف أنّك تقلقين لغيابي، لكنّ الأمر طارئ هذه المرّة، لا أريده أن يراني، أهرب من وجه قدري الذي يحاصرني بقسوة. سأنسخ لكِ آخر حديث بيني وبينه...

- كيف روحك؟

- تفرُّ من طين!.

- ما من روح فارقت طينها إلاّ كانت كالعطر الذي يفارق الوردة، فبينهما مساحة ضوء، لا مساحة زمن، مع اختلاف الخاصية والتوصيف في الفعل والغاية.

- بل هي تتنصل مما كانته، لتبدأ حياة أخرى.

– ليس كلّ روح تعرف غايتها، وما تريد!

– وكيف تعرف أنت، أنّ روحي لا تعرف غايتها؟

– لأنّي أعرف مابي، أدرك مابكِ وروحك، ومادامت لا ترفرف حولي، فهي لا تعرف غايتها.

– هو غرورك إذن، يصوّر لك، ما لم يكن. على الشاعر أن يتواضع قليلاً...

– بل على الشاعر أن يكون واعياً بقيمته، واثقاً من عبقريته، شديد الاعتداد بذاته، عظيم الرّوح، مؤمناً بأنّ التواضع فضيلة من تعوزه الفضائل! وأن يكون قادراً على التخفي وراء قصيدته!

– وهذا لا يتوفر إلا مع القصيدة التي تتجاوز الشعر الغنائي والقصصي والملحمي إلى الشعر المسرحي، لأنّه الوحيد القادر على إعطاء السيادة للموضوعيّ، للصّورة عن الطّبيعة الإنسانيّة العامّة.

أردت إحراجه، بالإشارة إلى نوعية شعر لم يكتبه بعد، لأنّي بصراحة اغتظت من تلك النرجسية التي يتمتع بها، لكنّه لم يرد، بل غرقت نافذته في العتمة، وفي المساء وجدته قد ترك لي «أوف لاين» الكلمات التّالية «أنا آسف غفران، لأنّي أختفي كالصحون الطائرة هكذا بلمحة بصر! وثقي أنّه ليس إيماناً مني بالتطرف، إنّما هي الكهرباء، الّتي تباغتني فجأة كلحظة الميلاد والموت، فهي وإن امتلكت خاصية القصيدة، إلاّ أنّها لا تمت إليها بصلة... ما يمنحني الاطمئنان من عدم زعلك، أنّك غفران، لذلك سأرتكب من الخطيئات الجميلة طمعاً في هذا!

لروحك بياض الياسمين، ولي غفرانك!».

حبيبة روحي ...

سأكتب لك بعد عودتي...

كونـي بالقـرب دائمـاً، فروحـي تـدرك وجـودك، وإن لـم تصلني رسائلك.

كوني بسلاااااااااااام.

غفران..

...

أسـتغرب منها، هذه المرّة نسـيت أن تسـألني عن أيّ شـيء! أشعر أحياناً أنّها تكتب عن نفسـها لنفسـها، متجاهلة أنّ هذه الرسـائل موجهة لصديقة هي الأخرى تشـعر برغبة أن تبوح بمشـاكلها لإنسـان يسـمعها، ويتعاطف مع ما تعانيه! لكن لم يعد شيئاً هذه الأيام، وفي ظلّ غيابه يثير اسـتغرابي. وعلى الرغم من شـعوري بكراهية بدأت تتسـرّب إلى روحي للروايـة التـي أكتبهـا، إلاّ أنّي قرّرت أن أنهيها كيفما اتفق، وأرسـلها إليه لتكون آخر ورقة تسقط في سفر علاقتنا!.

***

لـم يكـن مـن الصعـب تخيّل ما جـرى لأحمـد، لأنّ القصّة كانت واضحة تماماً في ذهني، ولا تحتاج إلاّ للكتابة.

(عرف أنّه وقع في الفخ. حاول أن يحرّك جسده ليستوي جالساً، لم يسـتطع، كان جسـده يرتعش، ويغلي من الحرارة، فتح عينيه ببطء، نظـر إلـى غريمه، فوجئ بأنّها سـيّدة محجبـة، خاطبته بحزم «انهض» لم يستطع تحريك جسده، أبعدت ماسورة البندقية عن جبهته، وقالت بلهجة أقل حزماً: «انهض» كاد يقع، وهو يحاول الوقوف، سارعت لمساعدته، وقادته أمامها إلى المنزل، أجلسته على كرسي قرب المدخل، ووضعت البندقيـة أرضـاً، ودخلـت المطبخ.. غابت دقائـق، وعادت، وهي تحمل صحن بيض مقلي وصحن خضار، وضعتهم على الطاولة، ودعته بنظرة

مـن عينيهـا. نهـض متحاملاً على ألم سـاقيه، وآلام أخرى لا يعرف من أين تهجم على جسده. التهم الطعام بسرعة، وكأنّه خاف أن تغيّر رأيها، وتأخذه من أمامه.. كانت واقفة تراقبه من بعيد، ويداها مشبوكتان قرب صدرهـا. حيـن انتهـى من طعامه، تقدّمت من الطاولة، وجلسـت قبالته. قالت، وهي تبتسم: «منذ متى لم تأكل؟» قال بحذر: «ثلاثة أيام» قالت: «جندي فار؟» قال: «لا، جندي جائع، خاطر بحياته، وعبر النهر للحصول على طعام» قالت «وبعد؟ ستعود؟» قال «لا أعرف» قالت «أنت محموم، جسـدك يرتعـش، تحتـاج للراحـة، والـدواء، ادخـل الحمّـام، اخلع هذه الملابـس القـذرة، وأحرقهـا بعـد خروجك، سـتجد ملابس مناسـبة في الغرفـة هنـاك علـى اليمين، ريثما أعود». قال بحذر: «ألن يأتي زوجك؟ أو أيّ أحد في غيابك؟». ابتسمت، وهي تغلق الباب من دون أن تجيب. تملّكه الخوف وهو يسـتحم بسـرعة، ويرتدي الملابس الجافة، ويخرج من البيت ليفعل ما أمرته به.. نظر حوله، شعر أنّه في الجنة، داعبه نسيم الصباح اللطيف، وهبّت روائح ندية لنباتات مرشوشة بالماء منذ دقائق، وفاكهة مغرية على أغصانها! فكّر، ماذا لو احتاج لملابسـه مرّة أخرى؟ مـاذا لـو كانـت تحضّـر لـه مصيدة، وستسـلمه إلى السـلطات؟ حفر في الأرض، ودفن الملابس، وعاد إلى الداخل. استلقى على الأريكة، وهو يرتجف، وغفا... حين صحا ثانية، كان الوقت ليلاً، وهي تجلس بعيداً، تخيط شـيئاً باهتمام بالغ. التفت إليه «أتشـعر بتحسـن؟». هز رأسـه، أنْ نعم. نهضت من مكانها، أحضرت له شراباً ساخناً، وعادت إلى جلستها. رفع رأسـه ليسـألها شـيئاً، سبقته قائلة «أعيش لوحدي، لا تخف، زوجي توفـي منـذ أشـهر، دفنته هنا قريبـاً، ليس لي أولاد، اطمئن، لا أحد يأتي إلى هذه المنطقة النائية، سوى بعض الجنود عابري الطريق. وأنا اعتدت وحدتي. لكنّي بحاجة إلى من يساعدني في العمل». نهضت، وجلست

قريباً منه. حينها فقط تأملها! لم تكن جميلة، لكنّ ملامحها لم تكن منفرة، تجاوزت الأربعين ربّما، قوية البنية، طويلة... فكّر أنّه لن يرفض إن هي طلبت منه أن يبقى، وقبل أن ينطق بكلمة، قالت: «أنا لم أُخرج شهادة وفاة لزوجي، أوراقه كلّها موجودة. ما رأيك؟» نظر إلى الصورة المعلقة هناك، فوجئ بصورة شاب لم يتجاوز الثلاثين. أهي أرملة تتصيّد الشبّان؟ لا يعقل أن يكون هذا زوجها الأوّل! ابتسمت، وكأنّها قرأت أفكاره «لا تهتم لرقمه، ليس زوجي الأوّل بالتأكيد، الأوّل كان عجوزاً طيباً، ترك لي أمواله وأملاكه. هذا الذي تراه قُتل في الحرب! أليس من العدل أن تمنحني الحياة بدلاً منه؟. قال «بل الحرب، من العدل أن تمنحك الحرب بدل ما أخذته منك» قالت بابتسامة «إذن أنت موافق؟ سنتزوج هكذا بعقد بيننا، وسأسعى لعمل بطاقة مدنية لك باسم زوجي السابق، كي لا تجد صعوبة في تسيير أموري في المدن القريبة، لكن عليك أولاً أن تتقن اللغة بشكل جيد، وتعرف كلّ شيء عن النّاس الذين تتعامل معهم. سأقوم أنا بهذه المهمة. وستقوم أنت بأعمال الحقل والأراضي المجاورة، وتسويق الموسم وكلّ ما يلزمنا. عادة أستعين بعمال في المواسم، سأعرّفك على شخص أتعامل معه في هذا الشأن. قل لي، هل تزوجت قبل الآن؟». قال بارتباك «لا، لي خطيبة في بلدي» ضحكت بصوت يحمل الكثير من الإغراء: «لن يكون لك بعد الآن سواي». لم يشعر بالفرح، ولا بالخيبة، ولم يخفق قلبه لذكرى نعمت، كلّ ما أحسَّ به تبلّد تام في مشاعره، وكأنّ أقفالاً من حديد صدئ قد أغلقت بوابة القلب، واعتقلت كلّ مشاعره داخلها. كان عليه أن يبرمج جسده على قبول واقع فُرض عليه، ثمّ فكّر أنّ ذلك كلّه ربّما يكون في مصلحته، فهل سينجو من السجن؟ أو ربّما حكم الإعدام إن هو عاد إلى البلاد، واكتشفوا أنّه كان على الجانب الآخر؟ ألن توجه

إليه تهمة التجسس والخيانة؟ أزاح هذا الخاطر من نفسه كلّ ما علق بها من قلق وتردد، ومنحه تصميماً على قبول الأمور كما هي، ومن يدري، لعلّ الخيرة فيما اختاره الله، كما يقولون.

لـم يمـضِ علـى زواجـه عقد من الزمن، حتّـى اعتلّت صحة رقيّة، وصـارت طريحـة الفـراش، فاضطّـر لنقلها إلى مستشـفى فـي العاصمة. ولأنّه لم يسـتطع أن يفارقها، وبقي بجانبها يعتني بها، اقترحت عليه أن يبيع البيت، وأملاكها كلّها، ويشتري بيتاً في طهران كي يبقى قريباً منها.

أمواجٌ من الكراهية حقنت صدره باسـتفزاز، وعى في لحظات أنّ كلّ شـيء يتسـرّب من يديه. هل يسـتطيع مواجهة قدره وحيداً إن هي تركتـه ورحلـت؟ كيـف سـيتعامل مـع هـؤلاء الناس من حولـه؟ أتكفي اللغة كي يصبح منهم؟ في الحرب، كانوا يسمونهم «الفرس، المجوس» دماء الأنذال كانت رخيصة، لكنّه امتلك إيمانه الخاص أنّ قتل الإنسان للإنسـان خطيئة لا تغتفر، عليه أن يركع طويلاً في مواجهة السّـماء، لا تهمـه الجّهـات، لكنّـه يفكّر بتلك الصيغة الخاصة جداً في اعتقاده، إنّهم هـو، إنّـه هـم، فممـن يلتمـس الغفران؟ مـن الرّب؟ أم مـن النّاس؟ من بإمكانـه أن يحاكمـه علـى ذلك؟ سـيقع في الفخ أخيراً، سـيقتادونه إلى حيث لا عودة، سيستسلم! وسيقولون عنه خائن، جاسوس، عميل... لا فرق، أليسـت كلّها تسـميات لا معنى لها لواقع يعني أنّه محكوم بنظرة شائكة إلى وضعه؟ أليس محكوماً بالموت سلفاً، وهو ما يزال على قيد الحياة!؟ عاش هاجساً مراً وضعه داخل حصار وهذيان لا ينفكّان يعذبانه فـي صحـوه ونومـه، وكيفمـا تحرّك. لـم يعد يرى حوله سـوى الأغلال حول عنقه، القيود في يديه، السّلاسل تجرّها قدماه وسط صحراء قاحلة، والشمس تنسكب عمودية فوق رأسه، والعطش يشقق جلده، فينزف دماً بدل العرق! تعذيبٌ بلا نهاية، ووجه السّـماء بعيد، بعيد. صار محاصراً

بالدقائق الأخيرة في الضفة البعيدة.. وجوه الشـهداء من حوله، الجثث في كلّ مكان، والحسن يثنيه عن عبور النّهر. أين الحسن؟ والشهداء؟

هل سـيحاكمونه عن الأسـرى والشـهداء؟ يجب محاكمة الذين لم يتعلّموا قراءة خريطة كما ينبغي. هؤلاء الذين رموا به إلى الضفة الثانية طلبـاً للحيـاة! يذكر كيف انسـحبوا تدريجياً، وأمروهـم بحماية ظهرهم. ثبتـوا فـي خندقهم أياماً حتّى نفـد الطعام والماء.. وفارقوا الحياة واحداً بعد الآخر... كانت مهمته الوحيدة دفن الموتى، حتّى أنّه لم يعد يفكّر باستعمال السلاح، فقط كان يتمنّى أن يبقى أحدٌ ما على قيد الحياة بعده، ليجد من يدفنه! ويصلي على روحه، ويقرأ الفاتحة.

هاهـي رقيـة تذبـل أمامـه، وجسـدها يرفض الاسـتجابة للجرعات الكيماويـة، وهـو ينتظـر... ينتظـر دفنـه حيـاً، من دون أن يجـد من يقرأ الفاتحة على روحه! في تلك اللحظات القاتمة، ومن دون سابق إنذار، ظهـرت نعمـت فـي أحلامـه، وما لبثت أن رافقته فـي صحوه، وحاصره طيفهـا معاتبـاً حينـاً، معنفـاً حينـاً، وانضمّـت إلـى قائمـة الهواجس التي حطّمـت أعصابـه. حـاول أن يخلـق مـن حضورها بلسـماً، أن يراضيها، ويعدها بعودة قريبة، لكنّ نعمت كانت تدير ظهرها، وتغوص بعيداً في أفـق مدمـى! وكلّمـا شـعر باقتراب نهاية رقية، كانـت فكرة عودته ولقائه بنعمت، تتضخّم، فتتحوّل إلى كابوس، يمنعه من النوم.

كمـا حـدّد الأطبـاء، ماتـت رقية بعـد رحلة طويلة مـع الألم. لكنّ المفاجئ له أنّها تركت كلّ ما تملك له بموجب عقد بيع!... ووجد نفسه فجـأة حـراً مـن أيّ ارتباط بالمكان. أفاق علـى حقيقة كونه ثرياً، يحمل جواز سـفر إيراني. داعبته الأحلام من جديد، فكّر بالوجهة الصحيحة، فقرّر العودة إلى بغداد.)

***

انقطاع الكهرباء المتكرر جعله يغيب طويلاً ـ كما ادّعى!ـ فصرت أقضي الوقت في القراءة، وبين حين وآخر كنت أعود إلى أقوال اقتطعتها من قصة الحضارة، لتملأ مخيلتي بحدث طازج، يتناسب وما قاله ديورانت.

(وشكا سكّان بغداد من أنّ جنود المعتصم الأتراك، يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد، ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون.) (وخشي المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد، وبنى لنفسه قصراً في سر من رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة.) (45)

(نهض مغادراً مكانه، بعد أن رآها تسحب الكيس المملوء بالخبز اليابس، وأشياء أخرى تأخذها من البيوت التي تدور عليها طيلة النهار، ملتمسة عملاً يعينها على لقمة العيش. سار بخفة على الشاطئ، وصل الجسر، اتكأ على سوره، وتأمل روعة رحيل الشمس، وتسلل العتمة بخفة في اللوحة المرسومة بدقة. سمعها تردد على مسامعه «عيناك غابتا نخيل ساعة السحر» فهمس بحرقة «أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر». أما زالت تحكي بلغة النخل والنّهر؟ لا شكّ أنّها كرهته، كرهت كلّ ما يرتبط به حين علمت أنّه عبر إلى هناك. ماذا قال لها الحسن؟ هل أدركت تلك الهزائم التي عاشها وسط النار ودخان حرائق الدبابات في ذلك القيظ؟ كيف لها أن تدرك كلّ ما حصل؟ وإن أخبرها الحسن. كيف لها أن تعرف طعم الخديعة التي تحكّمت بمصيره؟ سمعها تقول: «أنت من اختار مصيره، لم يجبرك أحد، لمَ لمْ تبقَ مع من بقوا؟ لمَ لمْ تعد حين تخلّصت من حصار رقية؟ تحاول فقط أن تبرّر لنفسك ما تفعله بتمثيل دور الضحية؟ لقد انتهت الحرب، وعشنا حياتنا من جديد، لا

(45) قصة الحضارة/ ول ديورانت/ الجزء 13/ صفحة / 97 /

تحمّلنا وزر أخطائك». ضحك بسخرية «عشتم! بالخوف؟ بالذل؟ عشتم! مـن قلـة الموت». صرخت «الأمريكان هم الذين جعلونا نعيش الخوف والجوع، ونطلب الموت، هم عدونا الحقيقي» قال بمرارة: «الحكومات دائماً بحاجة إلى أعداء، حتّى عندما لا تكون في حالة حرب، لو لم يكن لها عدو حقيقي، تصنع عدواً، وتنشر إشاعة لتخيف المواطنين، هذا ما فعله النظام، فعندما يكون المواطنون في حالة خوف، يلتزمون بسياسـة حكوماتهم، يسلّمون بمقدرتها على الرؤيا الأفضل». أحاط به الصمت، تطلّع حوله، كان الشارع خالياً، سيارته تقف قريباً، بعض المارة يمرّون بجانبه، ولا يلتفتون... ما بال الناس؟ هل كان يتحدّث مع نفسـه؟ هل يظنّونه مجنوناً؟.

في طريقه إلى مكتبه، لم يكن يستطيع السيطرة على سرعة سيارته، وكأنّ كلّ الأشـياء مـن حولـه تتحكّـم بيديـه، وعقله، وذاكرته. شـعر أنّ جسـده خـارج السـيطرة، كمـا تفكيره. هنـاك قوة أكبر منه، تسـيطر عليه تماماً. جلس في العتمة، لم يفتح النوافذ، لم يسـتدعِ المسـتخدم، أغلق البـاب بهـدوء، وقبـع علـى الأريكة. لم يكن يعرف فـي تلك اللحظة ما الذي ينتظره هنا. لكنّه شـعر أنّه لم يعد يرغب بالسـكن في بغداد. شـعر أنّ هناك من يلاحقه، هل يريدون اغتياله؟ من هم؟ لماذا تظهر له نعمت بهذه الصورة، وتغيب؟ هل ماتت حقّاً؟ ألا يوجد احتمال أنّ من رأوها لا يعرفونها؟ الأرجح أنّها لم تمت، وأنّها تخطط للانتقام منه. استسـلم لإحساسـه بالخديعـة. وقبـل أن يطلع النهـار، كان قد خطّط لهدم البيت القديـم، والبـدء فـي بنـاء مشـروعه الضخم، واختار قطعـة أرض خارج بغداد، وأمر ببناء مسكن له هناك. وابتسم لشكله الجديد في المرآة!.

(وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلاً على ضفتي نهر دجلة قصـوراً فخمـة، ومسـاجد، وحـذا حذوهم كبار موظفي الدولة، فشـيّدوا

البيوت الفخمة، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة، وأنشؤوا فيها الفساقي والحدائـق والحمّامـات.) (وأراد المتـوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق 700 ألف دينار على تشييد مسجد جامع، وأنفق ما يقرب من هذا المبلغ فـي تشـييد ضاحيـة جديـدة لـه تعـرف بالجعفرية، أقام بهـا قصرا يُعرف «بقصـر لؤلـؤة»، وأحاطهـا كلّها بالبسـاتين والجـداول، وقد جمع كلّ ما يحتاجـه مـن المـال لهذه المباني، وما يتصل بها بأن زاد الضرائب، وباع وظائف لمن يؤدي أكبر ثمن لها. [46])

مرّت ساعات على جلوسه هادئاً في مكتبه، بعد أن أعدّ لكلّ شيء عدّته، واطمأنّ بنفسه على سير المشاريع، وتنفيذها. للمرّة الأولى راوده إحساس غريب بالفجيعة، استطاع أن يطرده بما وقر في نفسه من إمساكه بخيوط اللعبة بثبات. كلّ شيء خطّط له بمنتهى الدقة، ولا مجال للخطأ. نَعِمَ لوقت ليس بالقصير بالراحة، وهو غائص في كرسيه، لا يفكّر بشيء، وكأنّ العالم الخارجي انفصل تماماً عنه، فلم يعد يسـمع سـوى صوت سعادته الخاصة، يراقص حلمه بثروة لا تحصى، يكاد يلمسها بأصابعه. يـدرك أنّ طاقـة القـدر انفتحت منذ اللحظة التي سـلّطت فيها رقية ضوء مصباحها اليدوي على وجهه، وهو غارق وسط أكوام تبن، وبقايا أشياء لـم يسـتطع تمييزهـا في حظيـرة تحوي كلّ شـيء... كأنّ قدره في تلك اللحظة تجلّى بكلّ عطائه، حتّى أنّه خشـي على نفسـه في ذلك الوقت من الحظ المفاجئ ذاك!.

جـاءه جعفـر بالمخطـط الكامـل للمشـروع. تأمله بإعجـاب، وهو يلمس الأناقة المفرطة في كلّ شيء. التفت إليه قائلاً: «ألم تنسَ شيئاً؟» هزّ جعفر رأسه بالنفي، وهو يسحب نفساً من سيجاره، وقال بتؤدة «هل

(46) قصة الحضارة / ول ديورانت/ الجزء 13 / صفحة 98 /

تقصد المسجد؟» لم أنسَ طبعاً، فهو ركن أساسي في المشروع، سيشجع الكثيرين على التبرع لمشروعنا مما يغطي تكاليف البناء والإكساء، لا تشغل بالك، فكّرت أيضاً بطريقة إعلانية جيدة، فقد أهديت إحدى شقق المبنى لأحد الأئمة المشهورين، وسترى أنّ الشقق ستباع كلّها قبل البدء في البناء، تقرّباً من الإمام. ثمّ لا أريدك أن تقلق، لقد دبّرت خطّة محكمة، لهدم بيتك، فقد راقبت العجوز التي تسكن فيه، وحفظت مواعيد خروجها من المنزل، وأعطيت أمري بالهدم في الساعة التاسعة صباح الغد. بقي أن أعطيك مفاتيح «قصر لؤلؤة» أصبح شبيهاً بالقصر كما تحبّ، سيعجبك بالتأكيد، وكأنّك تدخل ألف ليلة وليلة». وضحك بصوت عال. قال أحمد بهدوء «كنت أعرف منذ البداية، أنّي لم أخطئ في اعتمادي عليك.

في الصباح الباكر، ركب سيارته، واتّجه جنوباً... في تلك الأثناء حضر سائق الجرّافة، غسل يديه، وشرب كأساً من الشاي بانتظار ساعة العمل!

انتقلت العجوز بخطوات بطيئة في أرجاء منزلها، حضّرت أشياءها التي تخرج بها يومياً، وجلست على كرسي صغير لتصلي الضحى... شعرت بوهن في ساقيها، وخدر في يديها. نهضت بتثاقل، وتمدّدت على سريرها، أغمضت عينيها، وقبل أن تسقط في نوم عميق، رأت أحمد يركض في البستان، وقد حمل إليها سلّة مشمش كبيرة، لم تسعفه خطواته في التوازن، فتعثر، ووقع... صرخت بصوت مكتوم «يا قلبي». حينها ضحكت عيناه... واهتزت أرجاء البيت من أوّل ضربة للجرّافة على الجدار القبلي للغرفة حيث سريرها... حيث ولّت وجهها، لترى أحمد قريباً منها، كما كانت تفعل خلال عشرين عاماً من الغياب!

كان يتفقد الغرف الواسعة والإطلالة الرائعة لشرفة قصر لؤلؤة

على دجلة، حين هاتفه جعفر قائلاً «لقد تمّت عملية الهدم، وإزالة الأنقاض، وغداً سنبدأ بحفر أساس المشروع». ابتسم ملء نفسه، ثمّ تحوّلت الابتسامة إلى قهقهة لا تتوقف!...).

***

أدهشني هذا الصباح أنّه ترك لي أوف لاين في نافذتي، «لماذا ذبل الياسمين على نافذتك؟ أنتظرك حيث لا تكونين! لا تغيبي طويلاً، اقرئي هذا المقطع من قصيدتي الجديدة».

أحيتك، نبضاً، ذاته
فعرفت ذاتك كلّها
في نبض ذاتِهْ
بك يهتدي، فيها
إليك..
فأنتَ أكبرُ مُعضلاتهْ
متداخلانِ..
كلاكما حيٌّ..
ينوء بحملهِ
ميْتٌ..
فيورق في مماتِهْ [47]**..!!**

لم أضطر لانتظاره فقد أضاء النافذة في اللحظة التي أنهيت فيها قراءة القصيدة، وكأنّه كان يراقبني! كتب لي:

- مساؤك ورد، كيفك وكيف روحك؟
- بخير.

(47) علي عطوان الكعبي

- تختصرين الإجابة، وكأنّك تلومينني على الغياب؟

- لا ألومك، أنت حر، فقط أنتظر تفسيراً.

- معك حق.. كنت مشغولاً بكتابة قصيدة، أنت مبدعة، وتعلمين حالة الشاعر حين تحاصره القصيدة، ويعجز عن اقتناصها.

- نعم أعلم.

- كأنّك تشككين بكلامي.

- أبداً، فالقصيدة أمامي.

- ما رأيك فيها؟

- جميلة كالعادة.

- نبرة حروفك تدلّ على لامبالاة ممزوجة بضيق!

- قد لا يحقّ لي ذلك!..

- لم أقصد والله، فقط أردت أن أعرف السبب، أم انّك تفضلين الاحتفاظ به لنفسك؟

- نعم، الأفضل أن أحتفظ به.

- تعلمين؟ في الفترة التي غبت فيها عنك، حاصرتني فكرة الرواية أيضاً، وجعلتني أعيش هلوسات، كدت أصدق أنّها واقع، هل أحدّثك عنها؟ ربّما سببها تفكيري أيضاً في أطروحتك، بالمناسبة، أين وصلت في كتابتها؟

- لم أهتم بشأنها منذ زمن طويل.

- حسناً ما رأيك بأن يكون أبو نواس شخصية في روايتك؟ هذا ما خطر لي، اسمعي ما سأقصّه عليك، وقرّري فيما بعد.

(خرجتُ في ساعة متأخرة لا ألوي على شيء، فقد اعتدت على تقري الملامح الرمادية الباهتة للشوارع المعفرة بالدخان وبقايا الحرائق!

لـم أعـد أحتـاج شـمعة أو عود ثقـاب!... تقودني قدمـاي، أجتاز الحفر بخفـة هـر تعـوّد على اقتناص متعته ليلاً. أعتلي الجسـر، وأهبط الدّرب القصير إلى النّهر. قريباً من صفحة الماء، تطأ قدماي رملاً ناعماً، وطمياً نديأً...

باغتنـي صـوتٌ لـه بحةُ ناي، نظـرتُ إلى مصـدره. للوهلة الأولى ظننتُ أنّني أنظر في مرآة. سألته بجفاء:

– من أنت؟

ردّ الآخر متطامناً لابتسامة لا تفارق شفتيه:

– الحسن بن هانئ.

ضحكـتُ عميقـاً، وأنـا أحـدّق في الجهة التي يقف فيها، متسـائلاً عـن التبـاسٍ مـن الممكـن أنّـه وقع فيه. لكن لا أثر للماء! على يسـاري كانـت رائحـة النّهر النّافذة، تخترق خياشـيمي، وتتغلغل في رئتي، وتنبّه حواسي كلّها إلى واقعية ما أراه. صرتُ على يقين أنّني لا أرى صورتي فـي صفحـة المـاء، وأنّ الآخـر، الحسـن بن هانئ أيضـاً! وما الضير في تشابه اسمينا؟ وشكلينا أيضاً؟ مادام ذلك يمنحني اليقين أنّ عقلي مازال متنبهـاً لصحـوة الوجـود من حولي. قلتُ وأنا أقرّب أصابعي من وجهي بحذر، وكأنّني أخشى انفجار لغم منها:

– وأنا أيضاً! الحسن بن هانئ...

– تمزح؟

– أيّنا الذي يمزح؟

قال بثقة:

– ما أعرفه أنّه لا يوجد في بغداد كلّها سواي يحمل هذا الاسم!

انتبهـتُ فجـأة إلى ضفيرتين تنوسـان خلف ظهـره، فأيقنتُ أنّ كلّ

مـا أراه حقيقـي، وأنّنـي بحضرة الحسـن بن هانئ، الذي أصرَّ والدي أن يطلق عليّ لقبه منذ أوّل قصيدة خطّتها أناملي، وأنا أتجاوز عتبة الصبا!.

قلتُ متلافياً إظهار دهشتي، وارتعاش صوتي:

– ما أعرفه أنّك ميت، فكيف تظهر لي الآن؟

ردّ بصوت عميق، حرَّكت على إثره نسماتٌ خفيفةٌ صفحةَ الماء:

– من يموت من السُّكْر، تتجدّد روحه في كأس. أنا موجود ما دامت هناك حانات تؤوي روحي.

– إذن أنت كائن وهمي، لا يمكنني لمسك!

– بل أنا حقيقة، بإمكانك أن تحرق أصابعك بلمسـها، لكنّك لا تجرؤ!

كان ذلك أوّل لقاء لنا، خارج أهوال الحرب، داخل العتمة. بعيداً عن ضجيج المدينة، قريباً من الماء. اتفقنا أن أناديه «أبو نواس» وينادني «الحسن».

لقاءاتنـا المتكـررة فـي الموعـد نفسـه، كشـفت لنـا نقطـة الالتقاء الغامضة بين شخصيتينا، فعرفنا أنّ أحدنا لا يمكنه الاستغناء عن وجود الآخر، لأنّه يكمّله بطريقة ما، فشعرنا معاً بنشوة المعرفة التي تفصح عن اطمئنان تام إلى نتائج الاتفاق والاختلاف بيننا.

كالعـادة... وجـد أبو نواس نفسـه خـارج الكاظميـة، على الطريق المؤديـة إلـى الكـرخ. ترجّـل من مكانه عند الجسـر حين رآني، ضحك بإلفة، وتأبط ذراعي قائلاً:

– إلى أين أنت ذاهب؟

رددتُ ذاهلاً عمّا حولي.

– صحبتك.

قال:

– أيّ الدروب نسلك؟

قلتُ وأنا أحدّق فيه:

– «وأضحك من سُؤلي عن الدرب، ذاهلاً
متى أَرْشدَ السكرانُ، للدّرب صاحيا»

ضحك وقال:

– تسرقني!

– بل أتقمصك.

سرنا نخبّ عبر «درب زاخي[48]»، ثمّ مشينا بخطوات متمهلة، مترنّحة على طول النّهر، تجاه بستان قصر لؤلؤة.

– أتعرف لمن هذا القصر؟

– نعم، لقد بناه المتوكل...

– المتوكل! ألم أقل لك إنّك ميت؟ بناه من هو أقوى من المتوكل، وأشدّ بطشاً... أتدري لمَ أنا هنا؟ لأنّ روحي تختنق عندما تنقطع الكهرباء، فلا أستطيع البقاء في البيت...

ضحك بمرح:

– وما حاجتك للكهرباء؟ ألا تملك قنديلاً؟ ثمّ ما حاجة الليل لغير الكأس؟ قم معي، قم...

– ما الفائدة؟ الأماكن كلّها مشوهة الملامح، حرائق وانفجارات، وفي النّهاية حتّى غرين النّهر، مجرد رماد!

– عش الحياة كما هي، المهم أن تعيش الحقيقة، لا أن تعرفها.

---

(48) يمتد من الشريعة على نهر دجلة إلى الباب الشرقي الذي كان يسمى «باب الأزج» وهو شارع المتنبي حالياً .

بالنسبة لي الحياة هي ما أراه، لا ما هو كائن.

– هل جرّبت أن تسكر من دون خمر؟.

– ولماذا أتيمم والماء موجود؟

عبرنا النّهر، وتوغلنا عميقاً بين البساتين، حتّى وصلنا حانة صغيرة. استقبلنا فتى أمرد، بابتسامة مريبة... قال أبو نواس:

– هذا سابا، أظنّك تذكر شعري فيه؟

– نعم، قلتَ فيه: «فأحور ذميّ طرقتُ فناءَه

فلما قرعنا بابه هبَّ خائفاً

فقال: من الطرّاقُ ليلاً فناءَنا؟

فقلت له: افتح، فتيةٌ طلبوا خمرا

فأطلق عن أبوابه غير هائب / وأطلع من أزراره قمراً بدرا

فقلت له: ما الاسم حيّيت؟

قال لي: دعاني أبي سابا، ولقّبني شمرا» مع هذا من تراه ليس سابا.! إنّه نادل يدعى..

قاطعني قائلاً:

– هل نسيتَ أنّ الحقيقة هي ما أراه أنا، لا ما هو كائن؟

لم أكن قد نسيتُ ما قاله أبو نواس، بل على العكس، كنتُ أفكّر بالطريقة نفسها، فمن يصدق أنّنا نجلس الآن معاً، في حانة «حنون»، نحتسي الخمر؟ إن لم يكن عليّ أن أشكّ بقواي العقلية، فأنا أصدّق ما يحدث!.

كان يشرب بطريقة غريبة، أقرب إلى التعبد، يقرّب الكأس من شفتيه برقة، وهو يتلمّس زجاجها بشغف عاشق... قلتُ له وفي نيتي أن أغادر المكان:

- أعطني المصباح
- حسبي وحسبُك ضوءها مصباحا.
- والعين؟
- خذ اللون، فهي صفراء.
- عجيب، الصفرة لون الموت!
- لقد أعارت سناها للكأس، فسطعت بسطوعها، شمس هي، ملأت الدنيا ضياء.!
- «والخمر للوحي لا للسكر تنعصرُ» (49)
- جاءت كروح لم يقم جوهر لطفا به، أو يحصه نورُ
- أهي سبيلك للنشوة؟
- ليس مهماً كيف أحصل على النشوة، لم تكن الوسيلة يوماً هاجسي، المهم أن أصلها.
- تجعلني أشكّ في توبتك إذن!؟
- لا تشكّ، كلُّ ما هناك، أنّي كنت مشوشاً، لم أحدد هدفي في البداية بشكل صحيح. أنا أعيش الحياة بجوارحي، لا أستطيع أن أقبل نصف الحياة أو حياة يشوبها سكون وموت، إن لم أنطلق وأحلّق، وأبدع، فالأفضل أن أموت. لهذا تراني دائماً أطير فوق ضفة النّهر في محاولة لألمس السّماء.
- وهل لمستها؟
- بروحي؟ نعم، فعلت.

بعد مرور ساعتين، كان عليّ أن أسنده لنخرج معاً إلى الهواء الطلق... حين وصلنا الشاطئ، لم نجد مركباً تقلّنا إلى الطرف الآخر!

(49) قالها جبران بعد ثلاثة عشر قرناً من بيت أبي نؤاس./ في كتابه، المواكب/

كاد يقع أرضاً وهو يضحك... قلتُ له باستياء:

– تضحك من مصيبتنا؟ عندي عمل في الصباح، يجب أن أذهب إلى البيت لأنام..

تعثرت حنجرته بالكلمات وهو يقول:

– وما همَّ! أضحكُ لأنّها ليست المرّة الأولى التي لا أجد فيها مركباً، بل عبرت النّهر سباحة قبل الآن، لكن كان معي وقتها صديق لا يعوّض، يشملني برعايته حين أكون وحيداً...

– هو صديقٌ استثنائيٌ ـ بلا شكّ ـ ذاك الذي استطاع أن يتركَ في عينيك دمعةً لذكراه!

لـم يشـأ أن يقـول كلمـة، احتفظ بغصته، وجلـس أرضاً. صنع من ساعديه وسادة اتكأ عليها، وسرح بنظراته في النّهر، وكأنّه ينتظر أن تنشق صفحة الماء عن صاحبه!)

***

أعترف أنّ الفكرة أثارتني، وجعلتني أتخيّل صديق أبي نواس. لم أنتظر ظهور الحسن ثانية على نافذة المحادثة، بل بدأت مباشرة بالكتابة.

(لم ينشـق النّهر، بل ذاكرته انفتحت على مصراعيها، فرآه منتصباً بشموخ، كأوّل مرّة التقيا فيها في رحلته إلى اليمن.. يومها أدرك، ومن اللحظـة الأولـى، أنّ خيطـاً خفياً، يشـدّه إليـه.. كان الصيف في أواخره، و«سـلوق» المدينـة اللغـز، تبـدو لأعينهم من بعيد كسـراب يتراقص في الأفق، ويختفي! ولم يصدق أن يبلغوها، بعد أن أنهكهم التّعب، وتمكّن العطش من أحشائهم، ومزّق بأنيابه حناجرهم. بعيداً عن البئر المهجورة التي أسعفتهم ببعض الماء.

لمح طيفاً يختفي بخفة بين صخور رمادية على سفح تل قريب، ظنّ في البداية أنّ الإرهاق شوّش الرؤية أمام عينيه. تابعوا الطريق الصاعد في

الجبال الوعرة، والمساء ينفض آخر حممه، ويترك للنسيم الدافئ فرصةً لمداعبة بقايا أشجار من سدر، كانت راسخة على طول الطريق المؤدي إلى الغرب، انفتحت كوة في الأفق، أرسلت غباراً، تقدّم نحوهم ببطء، حاملاً ذرات رمل، بدأت تدوّم بشدّة بعد لحظات من وصولها منذرة بزوبعة، لم تشأ أن تمهلهم لاتّخاذ قرار في التخييم والمبيت وراء التل، بل كنستهم الريح بقوة، فأداروا ظهورهم مرغمين، وكمنوا بين الصخور الصغيرة، وقد اتّخذوا من سواعدهم درعاً لحماية وجوههم، وحاولوا حشر أمتعتهم بين الصخور، متشبثين بأربطة أحصنتهم! لمحه داخل الزوبعة، فاختلطت دقات قلبه بصوت الرّيح العنيفة، واشتدّ فزعه، حين تطاول، حتّى تلاشى مع الغبار المندفع في حركة لولبية نحو الأرض المنبسطة القريبة من الدّرب..

المرّة الثالثة ظهر له مع تباشير الفجر الأولى، حين قرّروا متابعة المسير بعد هدوء العاصفة.. لاح فوق تل، وهو يقف شامخاً، شعر أنّه ينظر في عينيه، يخصّه برغبة ما، أو سرّ يودّ أن يفهمه، ومن دون أن يدري، اتّجه نحو التّل، وتبعه رفاقه في الرّحلة. كأنّ قدراً ما ساقه إلى النّجاة من مدينة مسحورة، على الرغم من أنّه رآها للحظات قبل هبوب العاصفة! لم يتركه يصل إليه، بل التفّ بخفة عجيبة، وسار خلفه.

بعد عودته إلى بغداد، صار حديث النّاس، وصارت صحبتهما تثير التّساؤلات والتّكهنات. لكنّ ذلك كلّه لم يصمد أمام إنجازاته الفريدة في الصّيد. يذكر آخر مرّة خرجا فيها للصيد. كان الفجر يسفر عن وجهه الفضي، وهما يغتديان صوب الحرجة، يتقدّمه بخطوات، تختال بخفتها، يتباهى بقلادة، يوشوش ودعُها أذنيه، كلّما تحرّكت على إيقاع خطواته.. فجأة شدّ قوامه، وكتم أنفاسه للحظات، وهو يستقبل النّسيم الخفيف للصّبح، ويسبر أغوار المكان بنظرات حادّة.. تشمّم

الجوّ بعمق، وعاد لحبس أنفاسه، التفت إلى يمين السهل، فأضاء الفجر جبهته، التمع اللون الفضي للشعر الخفيف حول وجهه وساقيه، تاركاً خيطاً من نور حوله.

المشهد المختلف ترك في قلب «أبو نواس» انقباضاً على الرغم من روعته، أحسّ أنّ هناك أمراً خطيراً سيحدث! لم تدم تلك الفكرة الّتي اخترقت قلبه سوى لحظات، عاد بعدها لتأمل كلبه، وهو يستعد للصيد، فقد اقترب من مكان الظباء في طرف الوادي. الظباء بحسهن المرهف، شعرن باقترابه، فتفرّقن فزعاً.. كنّ يرتدن روضة بعيدة عن الوعر والصخور، تتناوب السّحب والشمس على نباتها، فيخرج ببهائه لينافس النّدى والزرقة الممتدة للسماء، فتقع الظباء في غواية العشب الطري، حتّى تفقد قدرتها على الحركة السريعة. هاهي تحاول الفرار من الخطر المتمثل بكلب سلوقي، جذب المقود، وانتزعه، وكأنّ جنوناً ألمّ به. وكما النّار تلظّى، أنشب أظافره في التّراب استعداداً لمهاجمتها، أربكها الخوف، ومنعها من اختيار الجهة الصحيحة للفرار، بلمح البصر ركض صوب سفح الجبل، مسرعاً حيناً، وواثباً حيناً، فتشظّى القطيع في كلّ اتّجاه. التفّ عائداً ببطء مريب، أعقبته استدارة مشفوعة بوثبة، ألقته وسط القطيع المذعور، هجم، مبرزاً أنيابه الشاقات ومخالبه، وسط حومة غبار أثارها احتكاكه بالتّراب، هتّك قميصها الناعم بضربة واحدة، ولفّها لفاً سريعاً، جارّاً إياها بخفة، وقبل أن ينحدر عائداً بفريسته، أبطأ الخطو، وتجمّد في مكانه! كان نسيم الجنوب يهبّ محرّكاً نباتات السّهل الغضة بلطف، مجففاً قطرات العرق من جبهته. جمد مكانه، وكأنّ عضلاته كلّها تقلّصت، فبدا وكأنّه ينثني على ألم ما! وتدحرج أرضاً جارّاً فريسته مسافة جعلته يلتحف الغبار. وأصبحت الرؤى لعيني «أبو نواس» ضبابية، لم يدرك

للوهلة الأولى مكمن الخطر الذي برز من جانب الجبل، حين رأى كلبه يثب بعنف متخلياً عن فريسته.

حينها برز الثعلب أمامه، وقد استقبل الريح بوجهه وأنفه، وراح يتنسمها مالئاً رئتيه، وهو يعدو بكلّ قوته محاولاً الالتفاف على الكلب لخطف الظبية، لكنّ السلوقي اعتاد على حبس الهواء في رئتيه، لم يكن ليأبه لحيلة الثعلب ومكره، فاستدار قاطعا الطريق عليه، وانبطح أرضاً، وفي ثوانٍ، تكوّر، والتقط الثعلب من بطنه، وغرز أظافره في جسده حتّى لم يعد عظم ساعديه يبين للنظر. ونهش بأنيابه لحمه، حتّى خضخضت أمعاؤه وبانت متدلية. لم يكن الثعلب في تلك اللحظة يرجو سوى الخلاص والفرار، لكنّ الكلب لم يشأ أن يتركه حتّى همدت جثته بين ساعديه. حينها رماه، وأسرع لالتقاط الظبية، والعودة إلى صاحبه!.

لكنّ قلبه الجريء، لم يمنحه الحياة الطويلة، وإن حافظ على نفسه من عدوان الغير، فحين انتهيا إلى الغاب، وأكلا شواءهما، وشرب صاحبه كالعادة، مدّد جسده قريباً منه، وعلى الرغم من حذره الدّائم وصحوه، أخذته الغفلة! تقدَّمت حيّة رقطاء، تسعى بدهاء، بين الشجر والأعشاب ـ وكأنّها تدرك ثأراً قديماً ـ نحوه بخفة، وغرزت نابيها في عرقوبه، ومضت تسعى بلا مبالاة، كأنّها رسولة السّماء! تلوّى طويلاً، وتخبّط في ألمه، قبل أن يهمد جسده، وينتهي إلى حفرة، قام صاحبه بوضعه فيها، وأهال عليه التّراب.

لم يكن دمعاً ذاك الذي نفر من عينيه ساعتها، كان ألماً محتقناً بالغيظ، والنقمة، ولا سبيل لإخفائه.. يدرك أنّ الصاحب الوفي لا يمكن أن يعوّض!.

لكنّ شيئاً غريباً حدث لم ينتبه إليه في حينها، كان للسلوقي جرو، يتبعه أينما ذهب، وأدرك مع الأيام أنّه أصبح كأبيه، قوة ونشاطاً،

وفاقه في تعلّم السباحة، ووجده يوماً يربض جانبه على شاطئ دجلة، حين أفاق من سكره، وأدرك أنّه أنقذ حياته! زنبور، أحبّ الماء مثله، فأغوته الأسماك الملونة، والتيارات القوية، لهذا قرّر حين رحل صاحبه، أن يترك جسده لماء دجلة ساعات طوال، حتّى سحبه تيار الماء، وأغرقه!)

***

لا أعرف ما الذي يجعله يرابط على نافذته ليل نهار! في كلّ وقت أدخل فيه أجدها مضاءة! والكهرباء؟ لم أكد ألقي التحيّة، حتّى سألني:

- هل سنكمل؟

- أراك متحمساً أكثر مني! سنبدأ، لكن لا أريد أن تحكي عن صديق أبي نواس، فأنا أعرف أنّه الكلب السلوقي الذي أتى به من اليمن. أكمل حديثك من حيث انتهيت.

- حسناً.

(حدّق في صفحة الماء، حيث غاب صديقه، دوائر تنتشي بألوان منعكسة من السّماء، خيّل إليه أنّها آثار برق، خطف بصره للحظات!. نبّهته قائلاً:

- قم بنا، يبدو أنّ الانفجار قريب جداً.

قام يترنّح:

- وما المشكلة؟ هل تخشى الموت؟

- لا، لكن علينا أن نختفي عن أعينهم، فمن يدري ماذا يحدث؟

- نحن غير موجودين أصلا حتّى نلعب لعبة التّخفي، يكفي إحساسنا، فهل يرانا الآخرون؟ إذا آمنت أنّك غير موجود فلن يراك العسس، سنمرُّ كالأشباح من البوابة، أنا وأنت في كأس، نرانا خارجها،

ونحن داخلها!

– الصمت أنجيل الكلام / فكم يهوذا خاض في دمه / ليقطف زهرة المعنى؟!

– إذن... أنت ستلتزم الصّمت، ليس جبناً، ولا جهلاً! بل فلسفتك تقضي بوجوب أنّ أفهم ردّك! أستغرب كيف تعيش بين الناس، وتتفاهم معهم؟

– أنت قلت «أعيش» وليس أحيا، وللحياة تجليات تختلف، وهي تخصّني، ولا وجود للآخرين فيها.

– لكنّك تؤمن أنّ الحياة فراغ بين الوجود والعدم، فكيف تعيشها؟

– أمامك ثلاث طرق ستسلك أحدها مرغماً، الزهد كالمعري وديوجين، الانتحار، أو الانغماس في اللذة!

– ولم لا تعيشها كلّها دفعة واحدة؟ فقد انغمستُ في اللذة، وزهدت في الدّنيا، وعشت قلقاً كاد يودي بي إلى الانتحار، لولا أنّي اخترت طريقاً رابعاً «التوبة».

– أتساءل ماذا فعل بك الشكّ؟ أمّا الزهد فهو برهانٌ قاطع على الهوة المخيفة التي فصلت حياتك اللاهية عن حياتك النادمة، وأنا غالباً لا أفصل بين شعرك هذا وذاك، فأحدهما استمرار للآخر من حيث القلق. أرى ذلك حتّى في عقيدتك وميلك للفرس.

– الشعوبية ليست عقيدة، بل نزعة، يمكن أن تكون محاولة لانتزاع الاعتراف بالحق الوجودي أمام تهميش العرب لهم، وهي حركة إنسانية في ظاهرها تدعو إلى التسوية، لا شكّ تدرك، أنّ قيام الوزارات في العهد الأول من الحكم العباسي كان على أيدي الفرس، فكانوا هم الدولة، وكانوا يبيّتون الانقلاب، ويمهّدون له، وما قَتْلُ الخيزران ولدها

الخليفة الهادي، ومن قبل ذلك مقتل أبي مسلم، ثمّ نكبة البرامكة، وبعد ذلك تسلّط المأمون بجيوش أخواله الفرس، ومصرع الأمين العربيّ، إلا دليلٌ سياسي على محاولات الوزراء الفرس أن يستعيدوا مجدهم، وكان لهم الأدباء والدعاة الذين صبغوا التقاليد، والأدب العربي بأشياء فارسية[50].

– نعم أعرف ذلك، وأدرك أنّ التشيع نما في تلك التّربة الخصبة آنذاك.

– تقولها بغصّة، وكأنّك لست منهم؟ أنا أفخر بأنّ «بنو الأحرار» أقرب إلى روحي من بني فزارة، ومذحج، وكهلان. وهم أطيب معشراً، وأكثر استجابة لدواعي الجهل، وإذا صادف أنْ كانوا فرساً، فذلك لقربهم من المكان، لا لخصوصية فيهم.

– أنا لا أتنصل من بيئتي، ولكنّي أتمثل قول ابن عربي»أدين بدين الحبّ أنّى توجهتْ/ ركائبه، فالحبّ ديني وإيماني» لكنّ الغريب أن تكون دمشقياً، وهواك فارسي!.

– أنا ابن أمّي، وأخوالي! العراق هواي، ومثواي.

– لا عجب في ذلك، فقد عشق نزار قباني بغداد، وقال فيها:

مدي بساطي / واملئي أكوابي/ وانسي العتاب/ فقد نسيت عتابي/ عيناك يا بغداد شمسان نائمتان في أهدابي/ .

– أرأيت؟ وليس له أخوالٌ من الفرس!.)

***

ـ تعلمين؟ لقد جعلتِني أعيش عالماً خارج العالم. فجأة صحوت على شخصية أخرى تسكنني، طبعاً أنت تعرفين معنى ذلك كونك

(50) أبو نؤاس بين التخطي والالتزام/ الدكتور علي شلق/ دار الثقافة/ بيروت/ الطبعة الأولى/ 1964/ ص/ 420

روائيـة. لكنّـي أخشـى بشـكل جدي، تمثلـي لتلك الشـخصية وتفاصيل حياتهـا، حتّـى أنّـي أفكّـر أحيانـاً بأهلي هـؤلاء الذين عاشـوا في العصر العباسي! ماذا فعلتْ فكرتك بي؟

– لا شـيء، أنـا أفعـل ذلـك دائمـاً، أعيـش حيـوات مختلفـة، وشـخصيات متناقضـة، أحبّهـا، وتحبني، وأكتب عنهـا وكأنّي هي. اليوم سأكتب عن أهلك هؤلاء كما أراهم، وبعدها تقول لي إن كنتَ تخيّلت الحياة كما فعلتُ أم بشكل مختلف.

– حسنا، هاتي..

(كان لـه يقيـن الصوفييـن، وأنـاة الرهبـان، وصبـر الأنبيـاء الذيـن يحملـون كلماتهـم رسـل صـدق، وجنود وصول، لذا كان يسـير مُحمّلاً بوهجـه، وبهائـه، وذهـول أشـيائه فـي ملكوتـه، ولم يبالِ بـأنّ للكلمات كبـوة.. كمـا الخيـول، وراهن عليها بحياته، لم يخسـر يومـاً رهانه، فقد رحل، وبقيت. فالشعر عنده يأتي هكذا كالومضة في الخاطر، له فجائية المـوت ومخـاض الميـلاد.. فـي كلا الحالين، يخصه بلذة غريبة، تشـبه شـهوة الحـك لجـرح قديـم، ينكؤه متعمداً حتّى يغمـى عليه من الألم.. فيكفّ! ثمّ يترنّح سكراً حين تفاجئه القصيدة ببهاء أنوثتها، وقد اكتملت، ونضجت، وقالت له «هيت لك»!

فـي طفولتـه راهنـت أمّـه علـى خلودهـا بجمـال طلعتـه، فأسـمته «الحسن»، وقد اشتهر بحسنه أوّل ما درجت خطواته المتعثرة خارج عتبة البيـت، فامتلـك قلوب الفتيـات اللواتي أذهلهن جمـال أطرافه، ونعومة بشـرته، ونظراته السـكرى، فإذا مدّ يديه إلى الماء، ارتعش جبينه الفضي لحلاوة تلك الأنامل التي قُدّت من مرمر، تزيده الشمس لمعاناً يخطف البصر، واكتمل حسنه بفصاحة لسانه، وإن كان يلثغ بالراء فلا تكاد تبين، بل هي التي أضفت على نطقه جمالاً خاصاً.

ولد في «الأحواز[51]» من قرى عربستان، على نهر «تُستَر» قرب الحدود العراقية. كان أبوه جندياً دمشقياً في جيش مروان بن محمّد، يحمل في جنبيه قلباً يخفق بعنفوان الشباب، وطاقة تتفجر دائماً برغبات مؤجلة، لم يسعَ يوماً إلى تحسين وضعه، أو اقتناص فرصة مناسبة ليصبح آمراً في الجيش، بل أحبّ أن يبقى في الظلّ بعيداً عن العيون، سائراً في المؤخرة دائماً، متشبثاً برغبته في الاستقرار، وامتلاك قطعة أرض، وأسرة.. لكنّ ظروف الحرب لم تدع له الفرصة لاقتناص العيش كإنسان بسيط، بل رمت به بعيداً عن بلاده حيث يذهب الجيش، فقصد مدينة السوس، ومرّ بتُستَر، واقترب من النّهر ليرتاح يوماً، فوجد نفسه مأخوذاً بلوحة أسطورية الملامح، تزيّنها شابة تغسل الصوف في الطرف المنبسط، بعيداً عن مجلسه فوق الصخور.

في البداية لم يهتم للأمر، كثرٌ كنّ النّساء اللواتي يقمن بالغسيل في مياه النّهر. بل كان مأخوذاً بتدفق الماء من القنوات الرومانية الرائعة التّصميم، وبنباتات الأرض الغضة التي تنبئ عن ربيع يتوهج فيه نوّار، لكنّ تلك الفتاة أصدرت صيحة مفاجئة، وركضت تخوض في مياه النّهر، لتسحب جزة صوف غافلتها، واستسلمت للتيار، لا يعرف بالضبط ما حدث، لكنّه أدرك فيما بعد، أنّه سبح في النّهر، وجمع الصوف بسرعة، ووقف قبالتها، والشمس تعكس أشعتها في عينيها، فتهطلان

(51) ما يسميه الفرس الآن «الأهواز». وتُستَر، مدينة عيلامية، احتلها الفرس، ثمّ حررها العرب في عهد عمر بن الخطاب، بقيادة «أبو موسى الأشعري». الذي لم يستطع دخولها بعد حصار طويل إلا عن طريق الأنفاق المائية، التي عبرها 900 فارس، لم يصل منهم إلى داخل البلدة سوى 300، قتلوا الحرس وسيطروا على الحصن، وفتحوا أبواب المدينة للجيش. وعاد الفرس لاحتلالها، وضعتها منظمة اليونسكو عام 2005 على قائمة التراث الإنساني العالمي. تشتهر بأنظمة الري المذهلة والسدود والجسور. مدينة خارجة من أسطورة!

عسلاً مندّى بماء النّهر. يغسل وجنتين احمرّتا كجمرة وسط بياض كفين حاولت إخفاء ارتباكها بهما. جلّبان[52]! نطقتْ بخفر حين سألها عن اسمها، وفي لحظات استسلم لتيار مائي قوي، اجتاح جسده بعنف، فتبلّل كقطعة صوف، وتبدّد كنفحة تراب على وجه النّهر!. ووجد نفسه أسير لحظة الغواية، التي امتزجت بمائه، ففار كشلال يتدفق من تلك الفتحات الصخرية الأسطورية تحت قدميه. لم يترك الزلزال يجتاحه من دون قرار يتّخذه بكلّ ثقة. تزوج جلّبان مستسلماً لقدره. وحين درج الحسن بخطوات متعثرة، شعر أنّه وصل إلى غايته من الحياة. لكنّ جلّبان ازدادت تفتّحاً، وتضوّعت رائحة أنوثتها في الأرجاء، ولم يكن ليستطيع أن يحجر على جمالها، فقد تسرّبت من الثقوب، والشقوق، والتّراب، ونمت في كلّ مكان، بعيداً عن يده التي امتلكت الزهرة، لكنّها لم تستطع أن تحبس العطر!؟. على الرغم من ولعها المفرط بأمومتها متمثلة بالحسن، وإحساسها بأنّها ترى فيه نفسها، وسعيها المحموم لتحقيق حلمها به. لفّت سرته في قطعة قماش، ودسّتها في جيبها الداخلي، ومضت تقصد السهل القريب، فكّرت في البداية أن تدفنها قرب باب حاكم المدينة، لكنّ شيئاً وخزها في جنبها، لا تريد له أن يقترب من السلطة، فمن يدري أيّ دسيسة ستودي به؟ ارتاحت نفسها لفكرة أن يكون من الملّاكين، فيقتطع أرضاً كبيرة، ويبني عليها داراً واسعة، وهناك ربّما في يوم ما تقضي شيخوختها. كانت تسعى بخطوات سريعة، وهي تعبر الجسر. لم تعرف ما الذي دفعها لإخراج قطعة القماش وتأملها... استندت على الدرابزين الحجري، لترتاح قليلاً من المشوار الطويل، وهي في طريقها لتصعد إلى السهل الفسيح الذي يلي البيوت المحيطة بالنهر. اتكأتْ قليلاً وهي ذاهلة عما حولها،

(52) وردة على أذن.

وأجفلها صوتٌ قادم من بعيد يقول «هذه أنت يا جلّبان! ماذا تفعلين هنا في مثل هذا الوقت؟». لم تشعر بعد ذلك بما حدث، ما تعيه أنّ يدها ارتعشت، وسقطت الصرة الصغيرة من يدها، وغابت في أعماق النّهر خلال ثوانٍ معدودة! بكت طويلاً حين وصلت البيت... وأمضّ قلبها السؤال: «تراها استقرّت في القاع؟ أم حملتها مياه النّهر بعيداً؟ وأين استقرّت ياربي؟» كانت ترجو في صلاتها أن تستقرّ في قاع النّهر، فتمنحه الخصوبة طيلة حياته، وربّما استجاب الله لدعائها، ومنح أبا نؤاس ما رجته أمّه في دعاء لم ينقطع! لكن... من يستطيع أن يقبض على الحلم بأصابعه؟

وقتها خسر مروان بن محمّد معركة «الزاب» وفرّ إلى مصر، وتمزّق جيشه، وتشظّى في الأصقاع. حينها فكّر أبو الحسن بالهرب إلى مكان لا تطاله فيه أيدي العباسيين الذين سيطروا على البلاد بقيادة «السفّاح»، لكنّ الموت كان أكثر الملاجئ أمناً! وصار الحسن يتيماً.

في السادسة من عمره جاءت به أمّه إلى البصرة، وكانت أقرب المدن إلى تُستَر، وأسلمته إلى عطّار يبري عنده العود. فتعلّم الصنعة، التي أثّرت في تنشئته، وفي تكوين مزاجه.. كان يحبس نفسه في علية فوق الدّكان ساعات طوال، يعمل بصمت، وجد، ويذهل في ملكوته، حتّى أنّه امتلك ناصية الخيال، فصار يحلّق بعيداً في السهول الواسعة، مخترقاً عتمة الجدران، غير آبه بضيق المكان، فحقّق الوصول بروحه إلى رغباته، التي مدّت رأسها بفضول في غفلة من الزمن، حين مرّ والبة بسوق العطارين، ولمحه صدفة، عندما مدّ رأسه من السّقيفة ليسأل معلمه سؤالاً. كاد يذهب عقله، وعيناه تقعان على جمال الحسن الملفت ونعومته، وسقط صوتُه الرخيم المبحوح في سمعِه سقوطَ حبّات المطر في أوّل الرّبيع على خدود الورد، فلم يبرح المكان، إلاّ ليأتيه، ولم يغادر

إلاّ بعـد أن اسـتطاع إقنـاع صاحـب الدّكان بالسـماح له برؤية السـقيفة! وكانـت السـقيفة مرجـاً اخضـرّ فيه العشـب، وتمايل الريحـان، وانحنت أعـواد القصـب. مـا حـدث لم يذهل الحسـن، بل لقي في نفسـه قبولاً، جعله يطلب ذلك في الفتيان فيما بعد، وهو ما أعانه على التغاضي عن رائحة العطر التي نشرتها أمّه في الأرجاء، حين تناقل النّاس أخبار عملها الجديـد، واختلفـوا فيـه! ووجد نفسـه مندفعاً لتعلّم العـزف على العود، ولعب الشطرنج، واغتنام الملذات، ولم يعد يأبه لما يتقوّل به الناس!).

***

ـ جميل، إذن سأكمل لكِ حكايتي معه.

– تفضل.

(لم ننتبه للوقت الذي تسرّب بسرعة، ونحن متمددان قرب النّهر، نهضنا معاً في حركة توحي بأنّنا شخص واحد! ملنا إلى جانب الطريق، وصعدنا الجسر من الطرف الشرقي... وبعد زمن قصير عدتُ وحيداً إلى البيت، فوجدتُ أمّي وقد أكلها القلق، تغفو وهي جالسـة على كرسـي قرب الباب! تسلّلتُ إلى غرفتي من دون أن أجرؤ على إيقاظها، كانت حكايـة جنـان مع أبي نؤاس، تسـيطر على أحاسيسـي فـي تلك اللحظة، فأرى فيها نعمت، ومن دون قصد مني، كنتُ أبحث عن قواسم مشتركة بينهما، وأحدّث نفسي بأنّ رؤياكِ لم تكن وهماً! صرتُ على يقين أنّها غابت في صفحة الماء الفضي قرب الفجر!

خامرني شعور بسيطرة الوهم على حواسي، فطلبتُ منه أن ننهض، ونتوجه إلى مقابر الصالحين. سألني بدهشة:

– «لماذا؟» قلتُ بلا مواربة: «أودّ أن أزور قبرك. ضحك بسخرية: «وهل رؤية القبر تؤكد لك أنّي ميت؟ هل تريدني أن أمشـي معك إلى تل اليهود، قرب نهر عيسى؟». قلتُ بإصرار:

– «سترى بعينيك، ما كتبه صديقك ورفيق صباك الحسين بن الضحاك على قبرك».

همس بشرود:

– «افعل مثلي، أنا أعيش في الحاضر، ولا يعنيني الماضي ولا المستقبل، لذا أعمل ما يمليه عليّ إحساسي في هذه اللحظة، أرغب أن أعود إلى كأسي، وأنام». قلتُ بتحد: «هل تخشاهم؟ أنت تخاف هؤلاء الذين قتلوك، ربّما لأنّك لم تكن على قناعة تامة بما قلته، وسبّب لك القتل».

رفع رأسه بثقة، وقال:

– «لم أخف من أحد، جرّبوا قتلي أكثر من مرّة، وكنت أزداد عناداً، فـ / إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت / له عن عدوٍّ في ثياب صديق». هل تدرك قسوة الأمر؟ كانوا أصدقائي! هم الخائفون، ولستُ أنا، لولا خوفهم ما حاولوا إسكاتي بالقتل».

قلتُ:

– «النّاس يحبّون وفقا لأهوائهم وإراداتهم الخاصة، ولكنّهم يخافون وفقاً لإرادة الأمير [53]ـ».

ردّ:

– «خياراتك هي التي تحدد مصيرك، وفي النّهاية لا يمكنك أن تدفع القدر، فالله خلق هؤلاء، وابتلى النّاس بهم».

قلتُ:

– «قال بتهوفن للشاعر جوته: إنّ هذا الأمير يخلق مثله النّاس كثيراً، أما بيتهوفن وجوته فلا يخلق مثلهما إلاّ الله. أترى أنّ هؤلاء

(53) الأمير ـ مكيافيلي.

العلوج خَلْقُ الله؟ لا أظن ذلك، لا يمكن لله أن يخلق إلاّ الجمال».

ردّ:

– «لا يمكن أن تنفي وجود الشر مقابل الخير، فكلاهما ضروري لتوازن الوجود، فمنذ قابيل وهابيل، تستمرُّ الحكاية على الوتيرة نفسها. أظنّك لن تحتمل العيش في هذا الوجود، وأنت مثقل بهذه النظرة!».

قلتُ:

– «أحتاجك، فمجموع نقاط ضعف شخصين، قد يصبح قوة رهيبة». قال بهدوء: «لا تحتاجني، يكفي ضعفك، وشعورك بالذل لتهزم الخوف، فأنا قد / دبّ فيّ السقام سفلاً وعلواً/ وأراني أموت عضواً فعضواً». قلتُ باستغراب:

– «لكنّي أراك سليماً أمامي!».

قال:

– «ما ارتدّ طرفُ امرئٍ بلذته / إلاّ وشيء يموتُ في جسده».

تأملته، وقلت:

– لكنّك علّمتني ألاّ أكتفي من الدّنيا بلذّة عابرة، وأن أطلب المزيد دائماً!».

قال بثقة تشوبها حسرة:

– «تبغي من الدّنيا زيادتها / وزيادة الدّنيا هي النقص!».

أستعيد تفاصيل الحديث بحرارته وطزاجته، وأدرك أنّ الكلمة وجود حقيقي يتحدّى الزمن المتغير، وأنّه كان كلمة في روحي، تجاوزت حدود المتاح والمستحيل. ارتحتُ لذلك التفسير، تنفّستُ بعمق، فقد أيقنتُ أنّني كنتُ وحيداً على الشاطئ، منذ ظهر الأمس بعد خروجي من المستشفى... لكن... هل حقّاً كنتُ هناك منذ ذلك

الوقت؟... تذكّرتُ فجأة أنّني التقطتُ صوراً على الشاطئ، وأيقنتُ أنّ الصورة ستنطق بالحقيقة.

لاحظتُ شيئاً غريباً يختفي فيها، صعقني وأنا أدقق هناك، أيعقل أن أتواجد أمام الكاميرا وأنا الذي التقط الصورة؟ أم أنّ ظلّي تجسّد على هذا النّحو؟ لكنّ الشّمس كانت عمودية في تلك اللحظة الّتي اعتقلتها الصّورة، من يكون؟ أنا على يقين أنّ شخصاً غيري لم يكن هناك! ولا يمكن أن يختفي بتلك السّرعة!).

***

لفت انتباهي في حديثه أمران سرّبا القلق إلى قلبي، لكنّي لم أبدِ اهتماماً، على الرغم من خوفي أن يكون قد أصيب حقّاً في الانفجار، وهو سبب وجوده في المستشفى. لكن مادام موجوداً في النافذة يتحدّث إليّ، فلا داعي للقلق والاهتمام. عليه أن يدرك أنّه لم يعد يعني لي شيئاً، وأنّي كشفت أوراقه كلّها. لن يستثير عواطفي بعد الآن. يكفيني ما أصابني من علاقته بأقرب صديقة إلى قلبي...

مالم أتوقعه بعد هذا الغياب الطويل أن أجد منها رسالة في بريدي! غفران! إنّها حقّاً خارج التوقعات كلّها.

(«يومٌ آخر في صحيفةِ العمر يشبهُ سواه، ويختلفُ مع سواه... هي صفحاتٌ كُتبت لنا بل عَلينا، ولا فرقَ بين اللام والعين، حينَ نكونُ على عتبةِ الخَيار، تتوهُ فراستنا، وتنقطعُ أسلاكُ التواصل مع ماتُشير إليه قلوبنا، فنختار متوكّلين على ماكُتبَ لنا، ونشعرُ بالسَكينة.. وحينَ تفجعنا النتائج، ندركُ بأنّنا تجاوزنا حدودنا، ولم نخضع لمشيئةِ ما كانَ علينا والنهايةُ طبعاً واحدة... ولكن أينَ نحنُ في تلكَ المعادلة..؟

أعتقدُ بأنّنا في حلبَةِ خيارات، لكنّنا ممنوعينَ من النزال..؟

أم كلثوم تشاركني هدأة الليل ووحشته.. اسأل روحك، اسأل قلبك، قبل ما تسأل إيه غيّرني.. أنا

غيّرني عذابي في حبّك بعد ما كان أملي مصبّرني.. لكن أنت غيّرك إيه؟

مساؤك لافندر»

لا شكّ أنّي تأخرت كثيراً في الكتابة إليك.

لكنّك تدركين أنّ ذلك رغماً عني، كتبت لك الكثير أثناء وجودي في غزة، لكن لم يتسنَ لي إرسال شيء، ربّما أكتب يوماً ما حدث هناك في رواية، وربّما تغتالني المشاريع المؤجلة كما دائماً!. لكن لا بدّ أن أخبرك أهم شيء... كنت قد اتفقت مع الحسن على اللقاء في دمشق. لكنّ قلقاً مريباً، أخذ يغزو مشاعري، وأحسست لأيام طويلة أنّي أخون زوجي الغافل والمشغول بأسفاره، فقرّرت فجأة إلغاء مشروع السفر، والانقطاع عن الانترنت، أرسلت لكِ أنّي غيّرت الايميل لأنّه مخترق. لم يكن بريدي مخترقاً، بل قلبي الذي تمزّق بين أمور كثيرة، التزامي بحجابي، ونقاء نفسي، وذلك العشق الصارخ الذي ترفضه الشرائع. أرجو أن تفهميني، ربّما لم يكن الأمر لأجل زوجي في الدرجة الأولى، بل لأجل نفسي الضائعة، والمشتتة... كلّ ذلك أشعلته شرارة محادثة بيني وبين الحسن، سألته فيها «لو كنتُ زوجتك، هل تقبل أن أتحدّث مع شخص آخر على الماسنجر؟». فأجاب بسرعة «لا بالطبع». بعدها صمت، وحاول أن يجيب بشكل دبلوماسي بمعنى أنّه سيكفيني عاطفياً كي لا أفكّر بغيره! فقطعت الاتصال، ولم أعد أحدّثه. أرسل لي رسالة قال فيها «أعتقد أنّ وعينا يمنحنا القدرة على النظر إلى الأمور برؤية أوسع مما هي عليه في حقيقتها، فلو أنّنا ننظر بعين الخيانة لكلّ علاقة تمّت بين اثنين في المسنجر، سيكون من الصعب الحصول على براءة

الجميع!.. ومن منا لم يتزر بإزار الخطيئة والخطايا. أرانا سنرجم جميعاً، لـو أنّنـا أصغينـا فـي دواخلنا إلى صوت المسـيح وهو يقـول: «من كان منكـم بـلا خطيئـة فليرمها بحجـر»! وما أكثر الحجر، وأقـلّ الرّماة أيّتها الرّوح النّقية.

أتمنّـى أن لا يكـون لحديثنـا عـن الخيانة تأثيـر على روحك، فقط لأنّك امرأة تمتلك من سعة الأفق ما يجعلك تتجاوزين هذه الحساسية الشـديدة التي نظرتِ من خلالها إلى نفسـك. لسـتُ ملاكا لكي تتخذي مـن حكمـي ذريعـة للاقتصـاص مـن روحـك! .. انظري إلـى ذاتك من ذاتـك، وسـترين أنّ للـرّوح المبدعـة فضاء أكثر امتداداً وسـعة من كلمة الخيانـة التـي تحدّثنـا عنها. لا تقفـي عند حدود الكلمات، وتوقفي فقط للتـزود منهـا بالقـدر الـذي يجعلك قادرة على إشـاعة روح الجمال هنا وهنـاك. فليسـت الخيانـة محصورة فـي تلك الزاوية الضيقـة التي نظرنا إليها في حديثنا. عزاؤنا أنّ الحياة قادرة على ضمّنا فيها على الرغم من شعورنا المرير بالخطيئة.

سـلام لروحـك وهـي مطمئنـة حيـن تقـول، وحين تكتـب، وحين تصل، وتتصل، لك الياسمين والسوسن. ووردة الأماني[54]».

لم يتغيّر فيّ شيء بعد قراءتي لرسالته، بل حزمت حقائبي، وقرّرت الفرار من الجزائر، ومن الحبّ المتربص بي على نافذة افتراضية، ومن ماضيّ، ومن حاضري، لعلّ الغرق في دوامة وطن يحترق، تنتشلني من تلك التّفاصيل الصغيرة. لكن يبدو أنّ القدر لم يشـأ أن يسـاعدني على ذلك!

لم يخطئ حدسي بشأن زوجي! لكنّي أخطأت تقدير الزمن...

(54) زهرة البنفسج

هناك اكتشفت أنّ له زوجة وأطفالاً! تدركين حجم المأساة التي عشتها في أسبوع من الدمار النفسي، أنساني حتّى طوفان الألم والدّمار الذي يعيشه الناس هناك. هل حقّاً مأساتنا الحقيقية تخصنا وحدنا؟ هل يمكن أن نحبّ شخصاً مجرد حضوره كفيل بتحويل الدقيقة إلى ساعة؟ نبرة صوته تشتتني، لا أستطيع تحمّل حضوره، ولا أجرؤ على الابتعاد عنه! كنت بحاجة إلى قوة إضافية لأتّخذ قراري، وأعانني الحسن عليها...

حين وصلت باريس وجدته قد ترك لي رسالة في نافذتي...»مساؤك ياسمين.

أتمنّى أن لا يذبل الزهر على شرفة أمنياتك، فمدي يد النّدى للياسمين. إذا انكفأ البصر، يمتدّ نظر البصيرة، وحين ندجن الرّوح، تضيق آفاق السّماوات». ضبطت نفسي لأيام عدّة، ثمّ فتحت بريدي لأجده قد أرسل لي ثلاث رسائل متتالية! يقول في الأولى: «مساؤك ورد حيثما اتّجهت إليك الكلمات...

مازلت أسأل نفسي منذ حديثك الأخير، هل مازال في نفسك شيء مني؟ فأعود مكذباً شكّي بأنّك غفران .. لهذا أَبحثُ لكلماتي أن تكون هدهدي الذي سيأتيني باليقين على أنّني نبي مضيّع، ولستُ سليمان النّبي!».

الثانية...

«صباحكِ مغفرة مبلّلة بالنّدى.

وهكذا كنتِ أنتِ حضوراً نابضاً ونبضاً حاضراً، حتّى لقد امتدَّ ضوءُ الحرف إلى الحرف، فأورقتْ الكلماتُ شجرةً من ألق .. صِلي المساء بما تشائين، فليس له إلاّ أن يستفيقَ على همسِ الحضور».

الثالثة...

«مساؤك عطر وياسمين غفران...

لـم أجـد بـدّاً مـن أن أشـكر الكلمات، طيـور المحبة هـذه، لأنّها الوحيدة من تحلِّق في سـماواتٍ من البياض، لتدرك يقظةَ حروفكِ قبلَ أن يغفو الليل عندها، ويغمض الفجر عيونه عليها... لا ترددي أن يتّصل حرفٌ بيننا حين تستطيعين.

سلامٌ وأمل وحرفٌ مضيء.»

أحياناً أجدني في طريق مسدود، باب واحد في نهايته... عليّ أن ألجه مكرهة!

قولـي لـي أيّتهـا الحبيبـة، ماهـي أخبارك؟ أشـتاق لـكلّ التّفاصيل الصغيرة، لم أعهدك بخيلة هكذا! فمنذ آخر رسالة كتبتها لك، وبريدي تصفر فيه الريح، ويرهقه الخواء.

الآن شـعرت بالأمـان أكثـر، فقـد عـدت للعمل في باريس بشـكل نهائي، ولامست أقدامي الأرض بثقة، وستصدر روايتي قريباً.

أشعر أنّي قريبة أكثر من أمُّي الأرض، فتراب الأرض له إحساس مختلـف بنـا حيـن يلامس أقدامنا، يشـعر بنبضنا، ونشـعر بالاتّصال، هو شـكل من الاتّصال السّـري، يمتدُّ بنا إلى الخليقة الأولى، حين شـكّلنا اللـه طينـة فـي يده. لم تعد تلـك الكوابيس تحبطني، فقد امتلكتُ يقيني من جديد، مازال في الحياة ما يستحق أن نعيش لأجله!.

أعتذر لأنّي لم أتمكّن من الحضور في الموعد، لكنّي سـآتي إلى دمشق قريباً لحضور مؤتمر الرواية. وسيكون لقاؤنا كما خطّطنا له سابقاً.

انتظريني صديقتي، فثّمة أمل يلوح في الأفق، يحمل الأمان لروحي.

سلاااام لروحك كما دائماً.

غفران...

باريس

...

وكأنّي أعدت ترتيب الفوضى التي أربكت مشاعري، حين أنهيت قراءة رسائلها، وشعرت بالسلام يخيّم على روحي، ويضع بيني وبين كلّ ما حدث مسافةً تجعلني أحاكم الأمور بحياد مطلق، انعكس على سطور الرواية التي أنهيت كتابتها، وأرسلتها إليه في ملف، ولم أعد أهتم لرده، لم يعد يعنيني إن أرسل لي معلومات إضافية عن أطروحتي، فقد اتّخذت قراري بعدم إكمالها. كما اتّخذت قراري بمقاطعة الفضاء الافتراضي التماساً لأمان روحي وسلامها. ها أنا أغلق النوافذ الافتراضية كلّها، وأقرر الرضوخ لرغبة ابنتي في العودة إلى دمشق للعناية بحفيدي في غيابها. في الواقع لم يكن حفيدي السبب فقط، بل روحي ضاقت بفضاء بيروت، وشعرتُ بأنّي أثقلت على صديقتي وإن لم تتكلم! وأشعلت فيروز سراج الحنين في روحي، وهي تغني:

أنا على الدرب يا وادي الحرير هوىً

بين الحبيبين ما قلبي بمنقسم

أفدي العيون الشآميات ناعسةً

بالنوم همّت على حلمٍ، ولم تنمِ

غواية الماء

أيـام مـرّت، ونافذتـي غارقة فـي العتمة، لم يكن من السـهل عليّ أن أظهر متصلة لأيٍّ كان، بعد ما حدث! لم يكن سـهلاً أن أثبت على خياري بالابتعاد عنه!

حالـة القلـق الّتي منعت النّوم عـن عينيّ خلال اليومين الماضيين، جعلتني أتصرّف بشـكلٍ عشـوائي، أبدأ أعمالاً ولا أنهيها، أفتح نافذتي، وأغلقها، أكتب رسائل، وأحذفها، ثمّ قرّرت أن أرتّب رسائلها في ملف واحد. كان للورد حضوره أسفل الصفحات، يشي بالشوك الجارح بين السّـطور. لم أتوقع أن يشـتتني بوحها بهذا الشـكل المسرف بقسوته، مع أنّي كنـت أخمّـن الحقائق الفجّة التي حوتها السّـطور، وأعي مسـبقاً أنّ رهاني كان على حصـان خاسـر. مـا يؤلمني أكثر أنّ حنيني ليوسـف، جعلني أخـرج الروايـة القديمـة مـن الـدرج، وأقـرّر أن أكملهـا، لأبتعد بأحاسيسي عن الحسن، وأجعله ورائي دائماً.

أعـدت قـراءة الروايـة مرّة أخرى، فأذهلني مـا جاء فيها من تنميط للحبّ ومفهومه، وإغراقها في الترويج للإخلاص على أنّه سمة مشتركة بيـن مـن يحبـون، لا تبدّلهـا الأيـام! ولـم يخـرج يوسـف عـن الصـورة المتعـارف عليهـا للحبيب في سـتينات القـرن الماضي، وكأنّه خارج من فيلم بالأسود والأبيض، ولعلّه يحمل من ملامح «كلارك جيبل» الكثير. بالتأكيـد.. كانـت عواطفـي عندما بدأتُ كتابـة الرواية تميل للقبض على زمـن جميـلٍ احتلـت فيه «ذهب مع الريح» قلوب ملايين البشـر، ومنهم قلبـي. لا بـدّ لـي أن أعتـرف أنّ يوسـف كان الحـبّ الأوّل في حياتي.. ولأنّـي لـم أسـتطع الارتبـاط بـه فـي الواقـع، حاولت أن أسـتدرجه في

روايـة! أضـع فيهـا الظـروف الملائمة لتطور علاقتنا كمـا كان ينبغي لها أن تكـون.. حبّـي الأوّل الـذي رافق تفتّح أنوثتـي، يصرُّ دائماً على ثباته على الصورة ذاتها، على الشكل، الحركات، الكلمات.. يحافظ على ألق النظرة الأولى..

عندما يحدّق في عينيّ، يتكسّر النرجس زهواً، ويفيض الماء منهما، ولأنّـي حيـن أنظـر فـي المرآة أرى انعـكاس صورته فـي حدقتيّ.. أكره البكاء!

الغريـب يقينـي أنّ صورتـه لا تبرح مكانها في عينيّ حين يغادرني، ربّمـا يكـون ذلـك وهماً يصوّره العشـق.. وربّما يكـون بعضاً من حقيقة لم يثبتها العلم بعد..

أحياناً أسـأل نفسـي «هل يسـتحق كلّ هذا الحبّ؟ وأجيب بأنّ من يحبّ لا يسـأل هذا السـؤال السـخيف، لأنّه يحبّ فكرته هو عن الآخر، لا يحبّ الشـخص نفسـه! لهذا لا أجده متجسـداً أمامي في الحلم بكلّ تفاصيله.. شيء ما يختلف عن الصورة الفوتوغرافية المطبوعة في حدقة العين.. شيء لا أدركه بعقلي، مع هذا ألمسه بحواسي كلّها!

لأجل ذلك، يستبيحني الحلم مجدداً، فأجدني على رصيف تصفر فيـه الريـح، ويشـتدّ قـوام الغبـار، ليصبح جـداراً، وفجأة تتوقـف حافلة أمامـي! أركـب، وكأنّـي أنتظـره! أنزل في مدينته البعيـدة، مدينة غامضة، الدمار يحيط بأزقتها الملتوية، المنفتحة على حديقة تشبه دغلاً كنّا نلتقي فيه... أجوبها بيتاً بيتاً، وأنا أسأل عنه، يشيرون إلى هناك.. في الحديقة، أجـده ينتظرنـي، كمـا كان دائماً! يمدُّ يديه، يشـدّني، فأتهالك بقربه على المقعد بثوبي الأخضر القصير!

يحيط كتفي بذراعه، فأريح رأسي على كتفه، يرفع وجهي بأصابعه، يقبّلني من دون كلام... أسأله «تذكرني؟» فيقول «وهل نسيتك لأذكرك؟

أنت التي لا تبرحين روحي وقلبي، مهما افترقنا» أسأله «لم تركتني إذن؟» يصمت... وفجأة ينهض، ويقول «عليّ أن أذهب، تأخرت، لا تخرجي إثري، انتظري قليلا، كي لا يراكِ أحد معي!». يمضي، وروحي تتمزّق! أبحث عن حافلة تعيدني إلى حيث الجدار الأصم، فلا أجد إلاّ سيارات عابرة، تلوثني برذاذ عجلاتها، ودخانها، وتمضي بلا مبالاة!

أذكر حين نوّر اللوز أوّل مرّة في عتمة شعري، وامتدت يده لتقطف ألقه، كان البياض يزرع المسافة إليه بالياسمين البحري، ويختفي الضوء ما بين غمازتين أسفل العسل المتساقط من عينيه، يشعّ كلّما ابتسم، ويغوص في بحيرة رماد حين يهدّه الحزن! لم أشأ ساعتها أن أقول له «هيت لك» مع أنّ الخلايا نطقت وحدها، والشوارع فاضت ببقايا المطر...

لم أشأ أن أقول «لا تفعل» فكلُّ ما فيّ يحترق بهمسٍ يفجّر شريان اللحظة، مصاحباً صوت عبد الحليم المتسرب من ثقب في الذاكرة «أنا لك على طول خليك ليّ». ربّما لم يدرك وقتها، أنّ ما كان بيننا، صار أفقاً من بنفسج، يكاد ينتحر ـ عند أوّل هفوة ـ على جدار القلب!

حين أنهيت كتابة الفصل الأخير من الرواية، وأعدت قراءتها، لم ترق لي، شعرت أنّ فيها مستويين لغويين، كما أنّ الشخصيات تغيّرت ملامحها قليلاً! لكنّي لم أملك الرغبة في إعادة الكتابة، فقط كتبت إهداءً له في بدايتها:

حبّك ورطتي...

لم يعد هناك مفر..

أيقظتني حمم الصهيل من غفلتي،

وغمرتني برماد حوافرها خيول الوقت...

عندها وعيت بألم.. أنّ جميع الرقع البيضاء قد شغلتها أحصنتك، وأنّ قدر الجنود، أن يموتوا دفاعاً عن قلاعٍ لا تخصهم!.

***

كلّما دخلت نافذتي الافتراضية وسط العتمة، أجده قد ترك لي أوف لاين، لكنّي فقدت قدرتي على التواصل مع كلماته، بل فقدتْ كلماته تأثيرها على عواطفي!

«مساؤك مغفرة هاجر...

وورد، أنثره في دربك من هنا إلى هناك! ينشرُ عطره حيث تكونين.

أدركُ تماماً مدى قسوتي وحدّة طبعي معك.

إذا كان للمرآة قدرة انعكاسنا من خلال زجاجها، فإنّ للكلمات قدرة التّأثير بمرآة حروفها ونبضها ومعانيها، وفي الوقت الذي لا نستطيع إلاّ أنْ نرى ملامحنا في انعكاس المرآة، فإنّنا نتلمّس جراحنا في مرآة حروفنا، وهي لاشكَّ أكثرُ قسوةً وجمالاً!

نديّة أنتِ كقطرةِ مطر، وصلبة كحبّة ماس، إنّك كالمشاعر، تجمعين فيكِ الأضداد سيدتي، وليس تملكين في نهاية الأمر إلاّ أنْ تكوني جميلةَ الرّوح، ليتني عرفتكِ قبل هذا!

ليتنا يا هاجر!

كيف لي أن أسبقني إليكِ؟!

هل حان الوقت؟

لستُ أسأل، ربّما أقرّر، لأبعد بشكّي عني، وأصل بي إليكِ.

أنتظركِ...

أنتظرك كي نناقش الرواية، أنتظر أن تضيئي نافذتك وقلبي، وإن كان قلبي مضاءً بروحك الحاضرة أبداً، وشعوري يؤكد أنّك موجودة

في النافذة وسط العتمة!».

أضأتُ النافذة من دون رغبة، بادرني:

- مساؤك ياسمين..

- ومساؤك.

- لم تسأليني عن قصدي من النقاط هذه المرّة؟

- ذلك شأن لا يعنيني.

- كيف وأنا أقصدك؟ يبدو أنّك منزعجة جداً... سأترك لكِ الحريّة في اختيار الوقت المناسب لتخبريني ما الذي يزعجك، وإن كنتُ أرغب في معرفة السبب الآن..

- أشعر بغربة تفقدني رغبتي في الحديث.

- يقول المتنبي:

هكذا كنتُ في أهلي وفي وطني

إنّ الغريب نفيس حيثما كانا.

ـ ذلك لأنّ المتنبي شاعر.

- ويقول مارون عبود «لولا الشاعر لماتت الآلهة».

- لا بأس أن تموت، فالحياة مملة، و«حين تصبح الحياة مملة، فإنّ الموت يضحي تسليتها الوحيدة». (55)

- حين ننظر إلى الحياة من خلالنا، فسنرى الجمال لا الموت، ما عهدتك سوى وردة تنشر عطرها، وتمنح مَنْ حولها أمل مواصلة الحياة كما هي.

لم أشأ أن أتابع الحديث على هذا المنوال، فكتبت له:

(55) ـ جاك بريفير

- لم تقل لي رأيك في نهاية الرواية؟

. لماذا تغيّرين الحديث؟ تخافين أن نتحدّث عنا؟

- لا أخاف من شيء غير موجود.

- تنكرين وجود شيء لم أسمِّه؟ إذن هو إقرار منك أنّ ما بيننا حبّ.

- ما الحبّ؟ صفه لي لأعرف إن كان فعلاً هو ما بيننا.

- يقول شوقي:

وقال أناس لو وصفتَ لنا الهوى

لكي يعرفَ الحبّ الذي ليس يعرفُ

فقلت: لقد ذقتُ الهوى ثمّ ذقته

فوالله ما أدري الهوى كيف يوصفُ

ـ مادام شوقي قد وصفه لي، سأنتظر حتّى ألتقي شوقي، وأردّ عليه! تصبح على خير.

أغلقت النافذة من دون انتظار ردّ، ولم أترك له وردة كعادتي!.

وقبل أن أقطع الاتصال، وصلني تنبيه بوصول رسالة من غفران! على غير العادة كانت الرسالة قصيرة جداً..

«كلّما قُرعتْ أجراسُ الرغبة في الرّوح الرّاكدة، تسلّقتْ شياطين الجوع على أعمدة الوهم، وعربدتْ الوسائد ناثرة قطنها في أرجاء الفراغ، معلنةً العصيان على طيفه الحاضر في الذاكرة.. هي ثورة لا تلبث أن تخبو مع صمت الأجراس!

«أنتِ لي» يبسملها مع صلاة فجره، ويقرؤها فاتحة لعناقي!

عواصفي لا تعرف السكينة.. ارتعاد قلبي مازاره يوماً عارض الهدوء.. أنا المنهمرة على قناديل عمره، مُقسِمَةً ألاّ يشتعل فتيله إلاّ

من لهبي! أو يبقى يصارع الظلام حيثما عبر إنْ لمْ أكن وحدي من تتأبط ذراعه...

مهووسة أنا بأظافر أصابعه.. بتفاصيله.. بدفء صوته.. بابتسامة عينيه.. وغارقٌ هو بأنوثة قصيدته!

كثيراً ما تساءلت مع أم كلثوم ..هو صحيح الهوى غلّاب؟..

مساؤك مطر ..

سألقاك قريباً في دمشق..

***

لنذهب كما نحن:

عاشقةٌ حُرّةً

وشاعِرَها

...

لنذهب كما نحن

إنسانةً حرَّةً

وصديقاً وفياً،

لنذهب كما نحن. جئنا

مع الرّيح من بابلٍ

ونسيرُ إلى بابلٍ...

....

كان ينقُصُنا حاضرٌ لنرى

أين نحن. لنذْهَب كما نحن،

إنسانةً حرّةً

وصديقاً قديماً

لنذهب معاً في طريقين مختلفين
لنذهب معاً،
ولنكن طيّبين...[56]

.....

تركـت ديـوان محمـود درويش من يدي على المقعد الخشـبي في الحديقة، حين أصرَّ عمرو أن أنهض لألعب معه.

قطـع لعبنـا أنـا وحفيـدي، صوت هاتفـي النقّال ينبـئ عن وصول رسالة. فتحتها، فوجدته قد كتب لي «فيروز تغني: أهواه.. مَنْ قال إنّي ما ابتسمت له؟ دنا، فعانقني شوقٌ إلى الهرب، نسيت من يده أن أسترد يدي، طال السلام، وطالت رفّة الهدب[57]. ماذا لو قالت «شوقاً؟». كتبت له «حينها يمكن للسحب أن تنبئ بغيم يمطر رماداً، يكتسح الزرع، ويفسد أزرار الورد». ردّ برسالة سريعة «بل يمكن وقتها أن يكون العناقُ انعتاقاً من أسـر الشـوق، ليمكّن الجسـدين من التحليق وسـط زرقة لا تنتهي». كتبت له: «في مطلق الأحوال هذا تعدٍ على القواعد يخلّ نظام البيت». كتب لي «بل نظام الكون يختلّ إن عانقك الشـوقُ إلى الهرب. يكفيك هرباً، فأنا أنتظر أن تعتدلَ بكِ الأشـياءُ.. ثمّ.. لا يوجد تعدٍ على قاعدة نحويـة. «شـوقٌ» فاعـلٌ يبعدنـي عنكِ، و«شـوقاً» حالٌ يدنينـي منكِ حدّ تداخل الضوء بالضوء، وشتان ما بين بعد وقرب!».

وجدتني أحتال على اضطراب جسـدي، وارتعاش يدي بمزيد من الضحك، ولأوّل مرّة منذ سنوات رحت أركض وراء حفيدي، كأنّي لا أعاني من مشاكل في الفقرات، أو ألماً في العظام!

(56) محمود درويش ـ كان ينقصنا حاضر، من ديوان، سرير الغريبة.
(57) الأخوين رحباني

حيـن عـدت إلـى البيـت وجـدت مظروفاً علـى الطاولـة، وضعته الخادمـة، فتحتـه، كتـب باختصار عنواناً للمـكان الذي يريدني أن أذهب إليـه، وتـرك مفتاحـاً فـي الظـرف! ثقتـه تلـك أزعجتنـي، وقـرّرت عدم الذهـاب، لـن أرد علـى رسـالته، وسـأغلق هاتفي النقّـال. ذهبت للنوم، وأنا أرتعش... سـاعات طويلة مضت، وأنا أتقلّب في الفراش من دون جدوى.. نهضت، صنعت فنجان قهوة، وجلست خلف الشاشة. حاولت كتابة شيء ما، فشلت في استحضار كلمة تعبّر عن حالتي. نهضت ثانية، أحضـرت أدوات الرسـم، كانـت الخطـوط التـي وضعتهـا علـى الورق عشـوائية كشـبكة عنكبوت ممزقة! رميت القلم، وخرجت إلى الشـرفة. برد نيسان أصرّ على اختراق عظامي بقسوة، دفعتني الريح إلى الداخل، أغلقت باب الشرفة، وحاولت النوم ثانية.

ساعات أخرى وأنا أتقلّب على فراش الشوك ذاك، ولا أصل لحل مناسـب لقلقي واضطرابي، شـيء أقوى مني كان يدفعني للذهاب إليه. أهـي الحاجـة؟ أم الحـبّ؟ اسـتعرضتُ علاقتنـا منذ البدايـة، كذبه عليّ بشـأن علاقاتـه مـع الأخريات، علاقته بي، زواجنـا الافتراضي الذي بدأ بمزاح إثر خبر عن شـيخ سـعودي أصدر فتوى بجواز الطلاق والزواج عبر الانترنت، وانتهى بكارثة حقيقية حين أحضر شاهدين وشيخ وكتب كتابنـا، وتحدانـي أن أوقّـع... وقّعت وأنا أضحك، وأرسـلت له التوقيع بإيميـل... لكنّـه فاجأنـي حين قال إنّ ذلك حقيقي وليس لعبة، وأعطاني رابط الخبر الذي يثبت الفتوى!

كلّ مـا حـدث لـم يكن يؤلمنـي بقدر ما آلمتني علاقته بغفران! لم أكـن يومـاً أتصـوّر أن أكـون وإياها فـي هاوية واحـدة! حاولتُ أن أجد له أعذاراً، لم أسـتطع. حاولت أن أقنع نفسـي بنسـيانه، لم أسـتطع. أهو الحبّ؟ أم هي غواية الماء؟ أتجرّني الرغبة إلى فخ زواج فاشـل للمرّة

الثالثة!؟ فليختلّ نظام الكون إذن، ونظام حياتي، وأنا أقدم على تجربة حبٍّ غير متوازنة ومربكة، في سبيل الحصول على جزء من حياة متوازنة! أليس غريباً أن نجعل الأمور منطقية حيث لا يحكمها منطق؟.

في الثانية عشرة ظهراً، قرّرت الذهاب إليه...

لم يكن في البيت ممّا أشعرني بالارتياح، وترك لي فرصة لاستكشاف المكان، وتحديد موقفي مع فنجان قهوة، صنعته، وشربته على مهل.

كان المطر يجلد زجاج النافذة بسياط فضية، تترك غبشاً ثقيلاً على السطح الأملس، وتمنع عني الرؤية.. اقتربت من الشبّاك، ووجدتْ أناملي طريقها إلى عبث طفولي لا يني يشاكس رغباتي المتزنة، فيمنح قلبي بهجة مفقودة.. أرسم على السطح بسرعة، لا أعرف أيّ مارد حملني على أجنحة الحلم إلى بلاد بعيدة، رسمتُ الحلم بتفاصيله، فخرج من بغداد ألف ليلة وليلة، وكتبت اسمه وسط ذهولي... ثمّ انتبهت فجأة على طرقاتٍ خفيفة تقرع سمعي والباب!

انتفض قلبي بين الضلوع، وركضت بحماس اقتلعني من أوجاعي، وأنساني للحظات أين أنا؟ وفي أيّ زمن أعيش؟..

فتحتُ الباب... دلفتَ والماءُ يقطر من ملابسك. خلعتها بسرعة، واقتربت من المدفأة، ناولتك يديّ، وقلتُ: «أشعر بالبرد». أخذت يديّ معاً بين راحتيك، فشعرتُ بالدّفء يسري في بدني، وضعتُ رأسي على كتفك، همستَ قريباً من وجهي: «أحبّك». أنفاسك الحارّة، أعادت إليّ وهج صباي الآفل، ووجدتني مستسلمة ليديك تعبثان بشعري، تضغطان برفق صدغيّ، وتنزلقان إلى رقبتي.. وتقرّب شفتيك من شفتي... حينها ارتّجت الأرض تحتي، ومادت. قبلةٌ أحسست أنّها الحلم الذي انتظرته طويلاً، وخانني بعدم حضوره طيلة السنوات الماضية! سحبتني من يدي

فجأة، ورميتني فوق السرير! كنت أنتظر أطواق الياسمين، ولكنّي رأيتُ يديك خاليتين من الورد!

أغمضتُ عينيّ على صيغة الحلم الذي رسَـمَتْهُ أناملي بدقة ريشـةٍ على غبش النافذة... حيث اسـتلقيتُ على السـرير، ونثرتَ فوق جسدي وحوله كمشة ياسمين. كلُّ ياسمينة هطلتْ فوق جسدي، فتحت مسامة فيه، واستنفرت حواسي تلتمس الماء! مغمضة العينين كنت، لكنّي أراك بوضوح... تجلس على الحافة، تدرك عطشي بفيض الورد من أناملك...

على طاولة صغيرة بجانبي، وضعتَ باقات الجوري البيضاء، وعلى الوسادة رميت زهور الجاردينيا، ورحت تقبّل ياسميني، وتسألني: «أيّهما أشـدُّ بياضـاً؟» مـسٌ رقيـق مُحلّـق ككلماتك فـي نافـذة المحادثة وعلى الهاتـف، مسّـتني أناملـك برفـق، تناولـتَ كفّي، قبّلت أصابعـي إصبعاً.. إصبعـاً... قبّلـت عنقـي... وقلـت: «أشـعر بالبـرد، ضميني». وشـددتني بقوة إلى صدرك، قلتُ: «ليس هكذا» همستَ: «بل أكثر». بحة صوتك أمطرت حنيناً في أوردتي، حرّكتْ في حواسي لهفةً لأنين الضلوع على تخوم الرغبة! نظرتَ في عينيّ..

نظرة واحدة..

وانزاح ستارُ غمام..

نبت الطيون منها، أصفر، أصفر،

زفَرتْ أنفاسُك حبوبَ طلعه في سمعي،

فتعرّت روحي من أوهامها...

وفزّت من خلايا جسدي، أشواكُ صبّار ناعمة...

تخزني،

تدميني،....

نظرةٌ واحدة...
وانفلت عقال الكلام...
على شفا همسة،
خطّت أناملُ زهوركَ ـ على أكوازي ـ ملحمتها...
أعصرُ الخمر من راحتيك... وأشربُ.. إصبعاً.. إصبعا...
قليلٌ من الوقت معك...
يكفي لأخرج مني إليكَ...
قليلٌ من الوقت..
يكفي لأغمس قدميّ بحناء الرغبة،
وألج سماء الشهوات بقبلة.
أنا وأنت... اثنان كنّا،
صرنا واحداً...
تَشكّلنا وردةً...
اندمجنا عطراً...
ثمّ انفصلنا، لنرنو إلينا في مرآتنا...
فاجتاحتنا رغبة العناق من جديد...
كلّما ابتعدنا مسافةً، نرى وجهنا أكثر شبهاً بنا...
تغفو في الجفون رغبةٌ أخرى...
فيدهشنا أنّنا لم نبرحنا!
أنا وأنت...
زهرة مانوليا تطاولت عشقاً نحو الأزرق...
ومدّت جسدنا بساطاً من عطر...
كتبتَ بأناملك فوقه بحبر الرغبة، تراتيل اللحظة العابرة...

انشر فوق جسدي جناحي عطرك،
واهطل فوق سفوحي قرنفلاً وياسميناً...
واكتب مرّةً أخرى: «هنا اتّحد عاشقان...»
وقّع أسفل الصفحة اسمينا...
لا... دع عنك الكتابة...
لا توقّع أسفل الصفحة...
اترك مكان التّوقيع فارغاً...
ما حاجتنا للكتابة؟
مادام كلانا يعرف بحبره السريّ، طريقه ليكون الآخر!
قليلٌ من الوقت...
نختبر فيه انحناءة زهرة الكلونيا، أمام رخام الينابيع...
قليلٌ من الوقت.. معك..
تأخذني فيه برفق...
لتدلّني إلى متاهة جسدي...
تضعني على أوّل الدّرب...
تشير إلى ارتعاشة العشب في حضرة الرّيح...
وتخبرني همساً بأسباب الوشاية القاتلة!
قليلٌ من الوقت...
ترتجفُ أشرعتكَ وسط ريح عاصفة،
ويبتلعها بحرٌ، لا يُعرف له قرار.. هو بحري..
أغرق بكَ... وأنساني!
أحيا بك... وأدفنني!
وعلى كتف رغبة جديدة، تُشعل دمي، وتحرقني!

أصرخ من ألمي:

ليتني لم أحبّكَ!... ليتني لم أحبّكَ...

فجأة انتشلتني قبلات سمجة من الحلم المرسوم على النافذة، ورمتني في واقعٍ، راح السرير ينتفض منه! خلال دقائق، أمطرتني بكلماتٍ فجة، خرّشت سمعي قبل روحي. نهضتَ بعدها إلى الحمّام، وتركتني أحصد الخيبة! كلّ ما حلمتُ به انهار في دقائق. فقد رأيتك تدخل المطبخ، وتعدّ طعاماً، ثمّ ترجع إلى الصالة، لتجلس قرب المدفأة! ارتديت ملابسي، وأنا أشعر بأمعائي تنقلب، ركضت إلى الحمّام، أفرغت محتوياتها، وغسلت وجهي.. حينها رأيت غبش النافذة ينسال خيوطاً، والحلم انقضى.. واسمك انمحى تماماً وسط فوضى المشهد! التفتَ إليّ، وقلتَ باختصار: «ألن تأكلي»؟ لم أستطع النطق بكلمة...

«كان الوداع ابتساماتٍ مبللةً/ بالدمع حيناً وبالتذكار أحيانا!»[58] صوت فيروز يعيد تلك الأغنية بهدوءٍ متآمرٍ عنيد... وأنا ألعن نيتشه في سري، ومنظومة علم النفس، والأخلاق، وديكارت، وكلّ الهلوسات التي حرصتُ على استيعابها والإيمان بها... لماذا لجأتُ للإيمان بدل الفطرة؟ لمَ اقتنعت بتلك الأفكار والفلسفات المبنية على عقد نفسية لهؤلاء المهووسين بالكلمة؟ ألم يكن يكفيني أن أعرف أنّ العمق الموغل في التاريخ لعواطف أيّ امرأة لا يحتكم لقانون؟... اللعنة!

تنظر إليّ... فيتكسّر الحلم، وتُصدم الروح، وهي تقتلعُ رغباتها، وتلبس صمتاً صاخباً أمام مخيلةٍ فرغت للتوّ من استحضار بقايا حلمٍ لم يأتِ الواقع بشيءٍ منه.

ربّما كنتَ تنظر للأمر على أنّه اكتمالٌ لشكل الحبّ الروحي الذي

(58) أمس انتهينا/ الأخوين رحباني

جمعنا، وترى أنّه لم يعد هناك ضرورة لنسبح في بحر الكلمات، مادام الجسد يتكلّم! بصقتُ المرارة العالقة في حلقي عبر الكلمات «واقع الجسد كان مشوهاً، ويعاني كلّ مشاكل النطق، ربّما كان أخرس أيضاً، فلم أفهم من همهماته شيئاً!».

اكتفيتُ بنظرة شاردة، نهضتُ بعدها لأجمع أغراضي في حقيبتي الصغيرة، وأغادر المكان، من دون أن أردّ على ندائك وتساؤلاتك.

المطر في الخارج خفّ قليلاً، لكنّ الهواء البارد كان يعصف بثوبي وغطاء رأسي! كيف خرجتُ في هذا الجوّ العاصف بملابس خفيفة؟ وفوق هذا من دون سيارة! يا لغبائي، بل يا لحماقة الأحلام! لا أعرف كيف استجبت لرغبته بأن أرتدي عباءة، وأضع غطاء رأس كي يصحبني إلى المزارات معه. لا أنكر أنّ الفكرة راقت لي، فقد حلمت بأجواء مختلفة، في السيدة زينب، ومقام رقية، ووو

السيارات تمرّ لا مبالية، تبلّل ملابسي بالماء القذر، وترسل أدخنتها في وجهي كأنّها تنتقم لأمر ما.

أخيراً توقفت واحدة، بعد نصف ساعة من البلل والقهر والغيظ. حين وصلت البيت كان عمرو نائماً، وهذا ما أراحني قليلاً.. دخلت الحمّام، وبعد ساعة خرجت وقد أُنهك جسدي تماماً، استلقيت على السرير، كتبت لابنتي رسالة أخبرها فيها أنّي سأسافر غداً قبل موعد وصولها إلى مطار دمشق.. وقرّرت أن أغلق هاتفي نهائياً، حينها لمحت عدّة رسائل ومكالمات لم يرد عليها.

فاجأني صوت نور على الهاتف، تسألني «أين أنتِ؟» نور! ما الذي ذكّرها بي الآن؟. هل تعرف أنّه في دمشق؟ أيعقل ذلك؟

أشهر مرّت على اليوم الذي التقينا فيه بمحض المصادفة، وكانت مصادفة غريبة لا يمكنني أن أستوعب كيف حدثت؟ كنت يومها قادمة

مـن بيـروت فـي طريقـي إلـى الرقة، لحضـور مؤتمر الروايـة هناك. في حمص توقف الباص، وصعدتْ. كنت أشـغل كرسـياً مزدوجا ولا أحد بجانبي. استأذنتْ، وجلست! تضايقتُ في البداية، فمن عادتي دفع أجرة كرسـيين كي لا يجلس أحد بجانبي، ولا أضطر لمجاملة أحد بحديث، أو التّعرف إلى رفيق سفر. ربّما هذه العادة استبدت بي بعد ازدياد وزني، وميلي إلى العزلة، واستفحال آلام العظام. وقتها لم أعد أرغب بمشاركة أحد في حديث عابر، لكنّها حين صعدت، لم تجد مقعداً خالياً بجانب أنثى غيري! ولا أعرف لمَ خجلتُ أن أقول لها إنّ المقعد الثاني يخصّني أيضـاً. أدرت وجهـي صـوب النافذة، ورحت أراقـب الطريق، لكنّي بعد فتـرة اختلسـتُ نظـرة فضوليـة إليها، فرأيـت وجهاً حزيناً وبشـرة حنطية شـاحبة، ونظرة سـاهمة. عدت إلى مراقبة الطريق، حتّى سـمعتها تقول: «كم الساعة معك»؟ أدهشني السؤال، لا أحد يسأل عن الساعة في هذه الأيـام، كلّ النـاس لديهـا هواتف نقّالة! تنحنحت، وأنا أخرجُ هاتفي من الحقيبة، وقلت هامسـة: «الثانية». قالت بحياد: «هذا يعني أنّي سـأتمكّن مـن حضـور الجلسـة المسـائية» قلت مستفسـرة: «عفواً؟» قالـت وكأنّها تتابع حديثاً بدأناه: «لكن للأسف فاتني حضور الجلسة الصباحية، ولقاء روائيَّ المفضل». فهمت أنّها تقصد المكان نفسـه، فقلت: «هل تعرفين الطريق إلى الفندق؟». بدا عليها فرح غطّى وجهها الشـاحب بابتسـامة، قالـت: «نعـم، أنـتِ ذاهبـة إلى هنـاك إذن؟». عرّفتني بنفسـها، وبدأ بيننا حديث لم ينتهِ حتّى بعد وصولنا الفندق، حدّثتني عن إعجابها بلوحاتي وكتاباتـي، وفوجئـتُ أنّهـا منتسـبة إلى موقعي على الانترنت لكن باسـم مسـتعار! كانـت تثرثـر بلا توقـف، حتّى ارتمينا معاً منهكتين من السّـفر على سريرين متجاورين في الفندق بانتظار الجلسة المسائية التي تفصلنا سـاعة من الزمن عنها. اقترحتْ خلالها أن نشـرب فنجان قهوة.. كانت

قهوتها جاهزة في ترمس صغير أحضرته معها. أعطتني حبّة شكولاتة، وتابعت حديثها عن مشاكل العالم الافتراضي!... في تلك الليلة حين دخلنا الغرفة بعد الواحدة ليلاً، قالت لي وهي تبدّل ملابسها، وتندس في السرير: «لديّ حديث خاص، لكنّي مترددة بالبوح به». شجّعتها من دون فضول، وأنا أرفع الغطاء فوقي، وأستعد للنوم. صحيح أنّ حديثها أمتعني، لكنّ النعاس افترسني أيضاً، وشعرتُ أنّ قواي كلّها تستسلم لقوة جبارة، تابعتُ حديثها من دون اهتمام، وكان النوم يغلبني أحياناً، فأفتح عينيّ مرغمة، تذكّرت أنّي لم أتناول أدويتي.. مددت يدي لأرشف قليلاً من الماء. سألتني «مابكِ؟ مَ تتألمين؟» قلت باختصار «آلام العظام.. ركبتاي تؤلماني» ضحكت، ثمّ قالت بجدية «أهو الغضروف؟ أنتِ لا تحتاجين لدواء.. بل لرجل» حدّقت فيها باستغراب، فأضافت «لا تندهشي، كلامي علمي، ولا أجدف. تعلمين؟ أنا أجد لذّة في جلسات الطاقة، وأتعلّم خفايا العلاج بها، وأنا على يقين أنّ هذا العلم سيقضي مستقبلاً على الكثير من الأمراض، وسيحلّ تدريجياً مكان الكثير من الأدوية.. فقط كوني إيجابية، وامتلكي يقينك.. آلام الغضروف تحديداً مرتبطة بالهرمونات الجنسية، وأرى من حالتك أنّك بحاجة لرجل، وستنتهي آلامك كلّها» كدت أضحك، لكنّي ابتلعت ضحكتي، وتابعت حديثها، الذي أدخلني متاهات عدّة، تسرقني الغفوة منه، ويعيدني الصحو إليه.. حتّى حدث ما جعلني انتبه بحواسي كلّها، وأدفع عني الغطاء، وأنهض، لأجلس على حافة السرير. ومن دون أن أعرف ما أفعل، صببت فنجان قهوة، ورشفت رشفة كبيرة، وأشعلت سيجارة، وأنا أحاول السيطرة على اضطرابي. سألتها: «أهو عراقي؟». قالت هامسة: «نعم، وأنت تعرفينه ولا شكّ، حدّثني أنّه يعرفك من خلال الموقع. قلت باختصار «نعم، أعرفه، كان مشرفاً في قسم الشعر، لكنّه ترك الموقع إثر

خلافات بينه وبين بعض الأعضاء». ابتسمتْ بوهن: «أعرف، قال لي عن تلك المشاكل، وكان مستعداً للعودة لو أنّكِ أصلحت الأمر». لم أرد. ماذا أقول لها؟ هل أحدّثها عن سوسن؟ عن علاقتنا، عن... لم يكن من اللائق أن أحكي عن الآخرين بالنيابة، ولا أريد أن أحكي قصتي لغريبة التقيتها مصادفة، وسنفترق بعد يومين أو ثلاثة عند انتهاء المؤتمر. المضحك أنّ لقائي الغريب بسوسن يتكرّر الآن مع نور! فقد اتّصلت بي سوسن مرّة لتخبرني أنّها معجبة بكتاباتي، وأنّها تكتب في الموقع الذي أشرف عليه، وأخبرتني أنّها تحبّ أن تدعوني إلى منتدى للقصة في مدينتها، لأشارك بأمسية هناك! وحين سألتها من أين حصلتْ على رقم هاتفي، قالت إنّها حصلت عليه من صديقة لي، فتّشتْ حتّى استطاعت معرفة أصدقائي المقربين، وحصلتْ على رقم الهاتف. وطلبت موعداً لتزورني إن لم يكن لديّ مانع. ولما أردت الاعتذار، قالت إنّها تريد أن تناقش معي أمراً مهماً. كانت سوسن امرأة مطعونة بكرامتها تبحث عن شخص تبكي على كتفه، أمّا لماذا اختارتني، فهذا ما كشفت عنه بسرعة بقولها: «ما شعورك وأنتِ تجدين أمامك إحدى شخصيات روايتك؟» قلت مازحة، مع إدراكي للفخ الذي وقعتُ فيه: «بالتأكيد لن يدهشني الأمر، فالواقع يأتي أحيانا بأغرب ممّا في مخيلتنا» تابعت وكأنّها لم تسمعني: «تعلمين؟ كنت أكرهك، وأشعر بالغيظ منك». قلت مفتعلة الاستغراب: «لمَ؟». قالت: «لأنّك خط أحمر عنده، لا يسمح لي حتّى بالحديث عنك، ويقول إنّ بينكما مشروع رواية مشتركة! وقد استأذنني ليعطيك المحادثات التي دارت بيني وبينه. قال إنّك ستضعينها في روايتك، هل هذا صحيح؟ جئت أتأكد منك». لم يكن أمامي سوى تركها تبكي على كتفي، ومع دموعها شعرت بحياد غريب تجاهه، كأنّ عواطفي تجمّدت تماماً، ولم أعد أطيق التحدّث إليه عبر الماسنجر...

أغلقت نافذتي الافتراضية، ونسيت اسمه في زحمة انشغالي بالحياة من حولي. وجاءت نور لتروي لي حكاية أخرى، لم تكن مفاجأة بالنسبة لي، بقدر ما كانت غريبة، لم أعرف من أصدِّق من أطراف الحكاية! هو قال لي، إنّه أحبّها، وكانا سيتزوجان، لكنّ الموت خطفها! وهي تقول إنّه خانها مع صديقة لها... وسوسن قالت، إنّه بقي يعشقها زمناً، ويبحث عنها في كلّ مكان في العالم الافتراضي،

وأنّه أخبرها باسمها واسم بلدتها، واسم أهلها... وحلفت له أن تزور قبرها، وتضع الورد عليه نيابة عنه... لكنّها حين ذهبت إلى البلدة التي سمّاها لها، لم تجد عائلة بذلك الاسم! وذهبت إلى المقبرة علّها تجد قبراً يحمل اسمها، لكنها لم تجد شيئاً! وحين أخبرته، لم يصدّق.. قالت له بكلّ بساطة «اسمها مستعار، وهي تضحك عليك»... قال: «لكنّي لمستها بيدي، ورأيتها بعينيّ، لم تكن افتراضية، حديقة الزوراء تشهد، أشجارها، بحيرتها، ماء دجلة، فندق الرشيد، مقهى أبي نواس... لا يمكن أن تكون مجرد وهم!». ولكي تتأكد أكثر، ذهبت مرّة أخرى، وزارت صديقة لها تعمل في «دائرة النفوس» ولم تجد شيئا!

نور.. هل يعقل ذلك؟ خرجت من الموت، وكانت معي في مدينة الرّقة، على سريرين متقابلين في فندق اللازورد! وهاهي تتصل بي لتسأل، أين أنا؟

فكرةٌ شيطانية خطرت لي تلك الساعة. أعطيتها العنوان الذي كنت فيه. بعدها أرسلت رسالة «لغفران» أخبرتها أنّي لن أستطيع مقابلتها في الخامسة في الموعد المضروب بيننا، وكتبت لها العنوان لتأتي هي!

كانت مخيلتي في تلك اللحظة تنسج القصص حول كيفية اللقاء بينهم، نور وغفران وسوسن! وهو... أهي بداية لرواية جديدة عن خيبة لا تنتهي؟.

رميت تلك القصة بكلّ ملابساتها المزعجة، والألم الذي سبّبه لي بحضوره المربك، إلى ليل دمشق، وأوصدت باب الشرفة جيداً.

كان ليلُ دمشـق يميل إلى برودة تقرضُ أركانَ جسـدي... تدفأت بأغطية مضاعفة، وغفوت.

فـي الصّبـاح لم تشـرق الشّـمس، اختفت خلف السّـحب، وهطل المطـر خجـولاً، وخطواتـي تقـرع الرّصيف بقلق وسـرعة باتّجـاه كرّاج بيروت.

كدت أتعثر وأنا أقترب من الرصيف، لأصعد إلى السيارة! فتحتُ فمي مذهولة من قوة المفاجأة.. هي صخرة مالاريميه ولا شكّ، تكسّرت فوق رأسي، وتركتني وسط دهشتي مما فعلته عيناه بي.. لم أسمع صوتاً لصرختي الخرسـاء.. أومأت بيدي، عيناه نظرتا في عينيّ مباشـرة، نظرةً جعلت ساقيّ ترتجفان، احتجت معها ليده الممدودة إليّ لتسند عجزي وارتباكي! هتف قلبي «يانارَ عينيه كوني برداً وسلاماً عليّ»..

مـدّ يديـه، وأخـذ بهما راحتيّ، هتفت شـراييني «يا نـارَ كفيه أوقفي زحفـك المقـدس علـى جلـدي، فحطب الكـروم، غدا رمـاداً، والجرار أفرغت نبيذها على قارعة الانتظار اللامجدي!».. قال وهو يتأملني «لم أتوقع حضورك، على الرغم من يقيني لسنواتٍ طويلة، أنّي سأجدك بعد طول انتظار. أين كنتِ؟» حاولت أن أتكلّم، لكنّ صوتي لم يصل أذني! كانت الأشـياء تغرق في العتمة تدريجياً، وهواء نيسـان يشـتدُّ مودّعاً آخر أشعة لشمسٍ احتضرت منذ دقائق وراء البنايات الشاهقة... وعيت وأنا أهمس بحرقة «يوسـف» أنّ اسـمه ما يزال يسـتقي موسـيقاه الخاصة من لوعة روحي وهي تنطق به.. قال هامساً أيضاً «جرحني بُعدك» قلت «هي الحيـاة هكـذا، لا ذنـب لنـا فيمـا يجري، ليـس مهماً من منـا أدار ظهره للآخر، ورحل أولاً.. المهم أنّنا افترقنا، لندرك حجم ذاك العشق الذي

كان دائماً يحرق المسافات بيننا، وينسف كلّ يقين بالنسيان.. ها نحن من جديد نزرع الأفق بوردة الأماني، وننتظر أن يهطل سحابها فوق روحينا.. أتعلم؟ أتحرّق فضولاً ولهفة لمعرفة السرّ وراء نظرتك هذه». قال بنبرته الدافئة الرتيبة «ألم تعرفي بعد؟ ألستِ من قال لي يوماً، إن أردتَ أن تعرف ما بقلب امرأة، انظر في عينيها؟ أنا أقول لكِ إن أردتِ معرفة الحقيقة حدّقي بعينيّ». قلت «لا أريد حقائق.. بل أريد أن ألمس قلبك بأصابعي». مرّرت أصابعي على وجهه، وانحدرت إلى نحره! لم أجرؤ على لمس الأزرار التي أغوتني بفض اشتباكها مع عروتها! فقد هرب الدم من كفي، وشعرت بالصقيع... قميصه كان بارداً، على الرغم من لفحات أنفاسه الساخنة! التي تلغي فكرة أن يكون...

قال برجاء «لماذا أنتِ صامتة؟». قلت «أبحث عن كلمات مناسبة أقتل بها الصمت». همس «قولي أيّ شيء.. فأنا أكره الصمت، وأخشاه.. دائماً أبحث عن صوت إنسان يبدد وحشتي، فإن لم أجد، أكلّم نفسي». قلت وغصة تحرق حلقي «ليتني معك دائماً، حينها لن أدع للوحشة مجالاً للتغلب على ثرثرتي.. ابتسم أرجوك». قال «أحاول جمع شتات ابتسامة كانت تلازمني، فلا أجدها.. كم هو صعب أن نبحث عن أرواحنا وسط دمار أنفسنا».

أغمضتُ عينيّ في محاولة لحماية جسدي من نبال نظراته التي رشقتني بقسوة، اجتاحت عروقي، ونزفت كلّ دمي دفعة واحدة. أدركتُ في لحظة أنّي لم أستطع التخلص منه بالكتابة عنه، وأنّ الزمن كان كفيلاً بجعله بعضي، بل كلي.. لذا لم أستطع إخراجه مني، وتركه يمضي بين السطور، أسطورةً.. أخلق منها كوناً غرائبياً، أحيا به.. وأنّي وعلى الرغم من كلّ خيباتي، أريده هو كما كان في أوّل لقاء بيننا.. وأدركت حمق النظرية القائلة «إنّ أفضل طريقة لنسيان حبّ ما، هي بالوقوع في

حبّ جديد!». صرختُ «يوسف». كنت أستغيث، وغصة تحرق حلقي، وتهيب بي أن أرتمي بين يديه، لكنّي فتحتُ عينيّ على فراغ، وضجيج السيارة وهي تنهب الطريق بسرعة!..

في العشق، كما في التأمل، لا يمكننا أن نثق أنّ ما نعتقده نوماً هو كذلك.. بل هو مستوى آخر من صحو مشوش بمشاعر طاغية في ارتباكها! ربّما كان حلم يقظة!.. فحين امتلكت صحوي تماماً، أدركتُ ما حلّ بجسدي، فقد فاضت عليه عيناه سلاماً، فغدا خفيفاً، لم أشعر بحيثيات وجوده... كلّ ما بدماغي تبدّد، انطفأت الحرائق تماماً، ولم تعد الدوائر الحمراء تلتهب في مدى رؤيتي.. سكون، وسماء زرقاء، ونوارس تصيح من بعيد.. وطفلة تشاغب في حقل أقحوان.

عيناه استجابتا لندائي وحملتاني بعيداً عبر زمان كان لنا..! تمنيت ساعتها ـ كما في الحكايات ـ ثلاث أمنيات. الأولى.. أن أديم النظر في عينيه، حتّى يغمى عليّ من الوجد.. فتحترق أطرافي طلباً لمائه..

والثانية، أن يجلس بجانبي، علّ أصابعنا تضلّ الطريق إلى فنجان القهوة، فتتشابك في غفلة من حيادنا.. والثالثة، أن ألتقط بأنامل الحقيقة قبلته الأثيرية خلف الباب! فأغتسل برحيقها مرّات ومرّات.. لأغدو فراشة مبللة برماد احتراقها!

ولأنّ لكلّ سؤال عدّة أجوبة محتملة، فقد اخترت لنفسي أبسط الإجابات، وأكثرها قدرية، لأحميها من حماقة بعض الأسئلة، وقسوة بعضها.. ورحت أراكمها في لعبة مخيفة، أدخلتني متاهة، تشبه الهيكل العظمي لرواية جديدة، ما تزال تتخبط بارتباكها وتشوشها! حتّى واريت جثث أمنياتي خلف كلمات لا تعني أحداً، وتمضي هكذا من دون غاية!

لفت انتباهي فجأة أنّ السيارة اقتربت من بيروت، وأنا أعيش في

الحدّ الفاصل ما بين زمنين، أستحضر يوسف كحقيقة، وأتجاهل وجود الحسن!

فضولـي نبـت فجـأة كزهـرة صبّـار فاقعة اللون، نثـرت في وجهي شوكها الناعم، فأحرقتني لسعاته!

مـددت أصابعـي المرتعشـة إلـى جهاز الهاتف، كانـت هناك أربعة إشـعارات لرسـائل مسـتلمة... كاد نبضـي يتوقف، وأنا أحـاول التراجع عن هاوية تتلقفني بشراسـة! هل أفتح الرسـائل؟ هل من الضروري أن أقرأ ملامحهم الحاقدة في الكلمات؟.

لتذهـب إلـى الجحيـم تلك الرواية التي أصابتنـي بصداع لا ينفكّ يطحن أعصابي...!

***

الأحداث لم تنتهِ بعد . . مادامت هناك قلوبٌ معلقة بين نافذتين . .

2008 /2009 /2010

داخل النص:

عندما بدأت كتابة الرواية، كان مقرراً أن يشاركني فيها الشاعر العراقي»الحسن بن هانئ»، والروائية الجزائرية غفران، وصديقتي الفنانة والكاتبة الفلسطينية هاجر، لكنّ أحداثاً كثيرة، حالت دون ذلك، فنسفت البدايات، التي اتفقنا عليها، وهي أن يتحدث كلٌ منا بلسان شخصية، إيماناً منا أنّه لا أحد يمكن أن يتكهن بردّة فعل إنسان تّجاه حدث ما، ما لم يعشه. وقرّرنا أن نعيش الحدث، لنروي للقارئ، ما حدث من خلال وصف مشاعرنا وردود أفعالنا بصدق.

لكنّ صديقي الشاعر العراقي، اشترط أن يتحدّث فقط وأنا أكتب، متحججاً أنّه لا يجيد السّرد! وصديقتي الرّوائية اختفت في ظروف غامضة في باريس بعد نشر روايتها الأخيرة التي هاجمت فيها بجرأة السّلطة القمعية في الجزائر، وتحدّثت عن الفساد في النظام الحاكم...

أمّا صديقتي المبدعة الفلسطينية فقد عرجت روحها إلى السّماء أثناء قصف غزة.

ولم يتبقَ أمامي سوى أن أعود مرّة أخرى إلى شحذ مخيلتي، وجمع ما تناثر من محادثات ورسائل بيننا، لأعيد ترتيبها في رواية... حرصت فيها أن أكون أمينة لأسلوب أصدقائي في السّرد.. ونقل بعض الأحداث كما حدّثوني عنها.

خارج النص :

إهداء ثانٍ لأشخاص كان لهم الفضل في خروج هذه الرواية إلى النور .

- صديقتي الروائية الجزائرية ياسمينة صالح
- الشاعر العراقي علي عطوان الكعبي. «الهوامش المشار إليها بأرقام فقط، تشير إلى قصائد الشاعر»
- الفنانة والأديبة الفلسطينية المرحومة حنان الآغا.
- المبدعة فداء عيسى. «مقدمة رسائل غفران بالحبر الغامق بقلمها»

وأسماء أخرى أهدتني تجربتها في الفضاء الافتراضي...

...

شكر على قدر المحبة لكلٍ من:

الشاعرة هزار طباخ، القاصة غفران طحان، المبدعة فداء عيسى، الإعلامية والكاتبة المبدعة نسرين طرابلسي. الروائية ياسمينة صالح... ودمعة تعبر روحي دائماً لذكرى حنان الآغا...

الفنانة التشكيلية خالدة حبيب «شكر خاص لأجل لوحة الغلاف.

همسة أخيرة

الماسنجر رصيف العشاق

نسرين طرابلسي 14-2-2006

الماسنجر رصيف العشاق الافتراضي، يتواعدون على ناصيته ويتركون للخيال مهمة تزيينه بشجرة حبلى بالعصافير أو بموجة بحر تلطم حافته، أو يضعون الكراسي في زواياه ليصبح مقهى الرصيف مأهولاً بالأصدقاء. يتطفلون، يضحكون، يغازلون اللغة ويغزلون منها غضبا وضحكا وثرثرة.. في الماسنجر أنت لا ترى الآخر ولا تسمعه ولا تكلمه عملياً، وتستبدل آلية الحواس بالقراءة والكتابة والتخيل التبادلي، فتتطور تلك المهارات الذهنية، وتفوق حساسيتها ما تفعله الحواس في أي لقاء فعلي بذات الأشخاص لو أنك رأيتهم بعينيك وسمعتهم بأذنيك وخاطبتهم بلسانك .

في الماسنجر يصبحُ النّاس رعاة الكذب الجميل، فكلّ ما يدّعونه أبيض، تدلّ عليهم الصور المعلّقة على الزاوية اليمنى من النّافذة، أزهارٌ، أطفالٌ، صورٌ بريئة.. وفي الترويسة أسماءٌ تختصر مواقفهم من العالم، تتغيّر حسب القناع الذي يختارون ارتداءه اليوم.! يوفرون ما يتكبدونه في اللقاءات الشخصية، فمن يهتم حقا بما يرتديه وهو متوجه إلى الرصيف الافتراضي لينكشف على العالم؟؟ من تهتم إذا كانت بيجامتها ممزقة عند الكتف أو كان إصبع قدمها الكبير يخترق الجراب وعلى وجهها ماسك من خليط اللبن والعسل وتغطي جفنيها بشريحتي

خيار؟؟ من يهتم إن كان يشرب النسكافيه أو الميرمية ودخان سيجارته يخنق أنفاس الهواء، ويريح نفسه بحرية من غازات عشاء ثقيل من الفول والفلافل؟؟ طالما أن الصورة الملتقطة بإتقان منذ عدة سنوات هي الصورة التي يمنتجها عقل الطرف الآخر ويحمّلها خلاصة الكلام الأنيق.

مع الوقت يصبح بعض الناس رعاة الصراحة الفجة، يشهرون أدقّ التفاصيل مكتوبة كنوع من الاختلاف، مستغلين فضول الآخر وإدمانه عادةَ اللقاء، وما تؤمنه تلك التقنية من الإفلات في الوقت المناسب، ساعة يتملكهم الملل وتسقط الأقنعة وتفرغ جعبة اللغة من سهام جديدة. ومن يملك حيلة تجاه انقطاع التيار الكهربائي أو دخول فايروس مفاجئ عشش في جهاز الكومبيوتر أو احتراق مبنى الاتصالات !!!

ولن تنفعك أي وسيلة لكشف الحجب، فالضغط على هذا البرنامج يؤكد انعدام الثقة في تلك العلاقات. في حين يكون الآخر غارقاً حتى أذنيه في حديث جديد على ذات النافذة، ينظر إلى اسمك المكلوم مشفقاً وأنت تنتظر على قارعة الرصيف الافتراضي مدموغاً بإشارة بلوك. رسائل الحب على الماسنجر أو في المنتديات فقدت خصوصيتها ولم تعد مستمسكاً أو أسلوبا تهديدياً، فليس هناك خط يدوي ليتبع خبراء الخطوط رجفة اليد وشكل الحرف وتطابق التواقيع، ولا نوع ورق محدد ولا رائحة عطر مميزة. هناك فقط أسلوب كتابي متشابه ولغة فضّاحة وأسماء وهمية، اتبعها وستتعب رأسك حتماً، وحين يكتب شاعر باسمه الصريح رسائل حب (إليها) أو تكتب شاعرة باسمها الصريح رسالة ولهٍ (إليه) فمن السهل الادعاء بأن الـ (ها) تعود لها بعينها والـ (ــه) تعود أبداً إليه. أما الحقيقة فتسوح في الماسنجر هناك، على رصيف العشاق الافتراضي.

وليس من الإنصاف نفي الحب الماسنجري ونسفه بهذه الطريقة (:، عـارٌ علـي ألا أعتـرف بوجـوده بكثافـة تنهـك الأفئـدة وتملأ فراغ الأرواح وتتحفنـا بـأروع القصائـد والنصـوص، حتى مـن أولئك الذين لا يلعبـون الكتابـة بحرفنـة. لكنـه دون أدنى شـك؛ شـكل من أشـكال التعويض عن واقع جاف، وهروب من تكلّف التقاليد وجنزرة العادات ومحاذيـر مجتمـع عالـق في عنق الزجاجة. وهو صـورة دقيقة للتكيّف العولمي للعاطفة، ودلالة ثاقبة على أن العاطفة لا تطيق حبسها داخل الجسـد، بل يمكن لها أن تعوّضه عن حاجاته وتهدئ بشـبعها الراقي من غول جوعه.

الحـب الماسـنجري خاضـع لشـروط ظرفـه وتناقضاتها، فهو يعانـي المسـافات ويقربهـا، يلغـي الحـدود بيـن البلـدان ويصنعها، يتعالـى على الأشـكال والهيئـات ويتخيّلها، يحيي اللغات ويهدمها، يمجّد الاختلاف وينبذه، يوقد الذهن وينهكه، يبني الوعود والأَيْمان والآمال والمخططات؛ وما أن يغرس سوء الفهم وجهه الصغير بين طرفـي حـوار حتـى تنهار كل القصور على شـاطئ بحر الطحينة... لا يكتمـلُ حـبٌ لا يـرى ولا يسـمع ولا يتكلـم، فطرفة عين تفسـر ليلـة كاملـة مـن الجدل لتوضيح وجهة نظـر بين اثنين على رصيف افتراضـي، والإنصـات الحقيقـي لا يتحقـق فيما الآخـر يثرثر كتابيا وأنـت تتصفـح موقعـاً أو تنهي لعبـة ورق وتتجاوب من حين لآخر بوجه أصفر مستدير يبتسم ببلاهة. والحوار الديمقراطي ليس كلاما مكتوبـاً يمكـن أن يضيـع ربع معناه بين (إنتـر وإنتر). إن الحبَّ هو المنطـوق الواعـي، يتكامل مع تعابير الوجه وتهدج الصوت ورقرقة دمعة وإشارات الانفعال باليدين، إنه الزفرة والنفخة والآهة والشهقة، إنه تفاعلُ اللحظة التي تقرر فيها أن تلجم لسـانك وتصمت لأنك

في لهفة حيّة لسماع رأي الآخر.

الحب الواقعي هو أن لا ترى ولا تسمع ولا تكلّم غير الآخر رغم أنك محاط بضجيج الآخرين وأشكالهم وإغراءاتهم، وليس عزل نفسك عن الآخرين لأنك الآن في حالة حب، وكأنك تعطيهم إشارة: أنا أحب إذن أنا غير موجود.

صدر للكاتبة

1 ـ **جذور ميتة** ـ مجموعة قصصية ـ دار سعاد الصباح 2001

2 ـ **جبل السماق** / الجزء الأول / سوق الحدادين / رواية، دار فصلت 2004

3 ـ **نساء بلا هديل** ـ مجموعة قصصية / موقع لها أون لاين الرياض.

4 ـ **ذاكرة الرماد** / رواية / دار الحوار / اللاذقية 2006

5 ـ **جبل السماق** / الجزء الثاني / الخروج إلى التيه ـ دار العوام، دمشق 2007

6 ـ **المعراج** / رواية / عن دار العوام 2008

7 - **عين الشمس** / رواية / الدار العربية للعلوم ـ بيروت 2010

لمراسلة الكاتبة:

ibtesamtr@yahoo.com